جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي
Université Echahid Hamma Lakhdar - El-Oued

جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي
Université Echahid Hamma Lakhdar - El-Oued

محاضرات في اللسانيات العربية موجهة لطلبة السنة الثالثة لسانيات عامة

(المحاضرات من:1-9)

من إعداد الدكتور: علي بلول

المحاضرة الأولى: تحديـــــد المصطلحات اللغويـــــــة التراثيـــة:

(النحو، علم العربية، علوم العربية، الإعراب، فقه اللغة).

تمهيـــــــد:

قبل الحديث عن المصطلحات اللغوية التراثية القديمة، ينبغي الحديث عن مفهوم التراث أولا

- مفهوم التّراث :

التّراث لغة كما جاء في القاموس المحيط للفيروزابادي، وَرِثَ أباه ومنه بكسر الرّاء، يرثه كيعِدُه وِرْثًا وَوِرَاثَةً وَإِرْثًا وِرْثَةً بكسر الكل وَأَوْرَثَهُ أَبُوهُ وَوَرَّثَهُ جعله من وَرَثَتِهِ والوَارِثُ الباقي بعد فناء الخلق، وفي الدّعاء" أمتعني بسمعي وبصري واجعله الوَارِثَ مني" أي أبقه معي حتّى أموت، وتَوْرِيثُ النّار تحريكها لتشتعل والوَرِثُ الطّريّ من الأشياء[1]، فالتُّراث **لغة** مصدر من الفعل وَرِثَ، إذ يقال: وَرِثَ فلانا، أي انتقل إليه مال فلان بعد وفاته، ويقال وَرِثَ المال والمجد عن فلان، إذ صار مال فلان ومجده إليه.[2]

والتُّرَاثُ لغة مأخوذة من وَرِثَ، والتّاء في التُّرَاثِ مبدلة من الواو، فالعرب يقولون وَرِثْتُ الشّيء من أبي أَرِثُهُ وِرَاثَةً وَإِرْثًا،[3] وقد وردت كلمة التّراث في القرآن الكريم مرّة واحدة في قوله تعالى:﴿كَلاَّ بَلْ لَّا تُكْرِمُونَ اليَتِيمَ، وَلَا تَحُضُّونَ عَلَى طَعَامِ المِسْكِين، وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ الفجر(18-20)، أمّا كلمة ميراث فقد وردت في القرآن الكريم مرّتين في قوله تعالى: ﴿وللَّه ميرَاثُ السّمَوَاتِ وَالأَرضِ﴾ آل عمران(180)، الحديد(10) بمعنى أنّه تعالى يرث كل شيء فيهما لا يبقى منهما باق لأحد من مال أو غيره.[4]

ويذهب بعضهم إلى أن التُّراث قد اكتسى في الخطاب العربي الحديث والمعاصر معنىً مختلفًا مباينًا إن لم يكن مناقضًا لمعنى مرادفه الميراث في الاصطلاح العربي القديم، ذلك أنّه لَمَّا كان لفظ الميراث يفيد التَّركة الّتي تُوزَّع على الورثة أو نصيب كل واحد منهم، أصبح لفظ التّراث يشير اليوم إلى ما هو مشترك بين العرب، أي التَّركة الّتي تجمع بينهم لتجعل منهم جميعًا خَلَفًا لسلف، فإذا كان الإِرْثُ أو المِيرَاثُ هو عنوان اختفاء الأب وحلول الابن محلّه، فإنَّ التُّراث أصبح بالنّسبة للوعي العربي المعاصر عنوانًا على حضور الأب في الابن، حضور السّلف في الخلف، حضور الماضي في الحاضر.[5]

أمّا **اصطلاحًا** فينبغي أن نشير إلى جملة من المفاهيم المترابطة، وهي على التّوالي:

- يشمل التّراث الأمور المادّيّة والمعنويّة، فهو يشمل كلّ ما خلّفته لنا الأجيال السّابقة في مختلف الميادين الفكريّة والأثريّة والمعماريّة، متمثّلا في الأرض الّتي نحيا عليها، وما أُنشئ على هذه الأرض من معالم وآثار، وما حفظ في داخلها من خيرات، وما ابتدعته عقول الأمّة من مبتكرات ومؤلّفات ورسوم، وغير ذلك.[6]

- يطلق لفظ التّراث بالمعنى الواسع على نتاج الحضارة في جميع ميادين النّشاط الإنساني، من علم وفكر وأدب وفن ومأثورات شعبيّة وآثار ومعمار وتراث فلكلوري واجتماعي واقتصدي.[7] فالكثير من هذا التّراث سجّله لنا الأجداد فيما خلّفوه من مخطوطات عربيّة تتناول البحث في فنون المعرفة المختلفة، من تفسير وفقه وأدب ولغة ونحو وتاريخ وفلسفة وطب وعلوم ورياضيات وفلك وفلاحة، وغيرها.

---

[1] - القاموس المحيط، الفيروزبادي، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8(طبعة فنية منقحة ومفهرسة)، 2005م، ص177.

[2] - دراسات في المعاصرة والتراث، محمود أحمد السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، مكتبة الأسد ،دمشق،دط،2013م،ص97.

[3] - الدرس اللغوي في النصف الأول من القرن العشرين ، ميمونة عوني، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2015م، ص214.

[4] - ينظر: التراث والحداثة دراسات ومناقشات، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1991م، ص22.

[5] - دراسات في المعاصرة والتراث، ص100.

[6] - ينظر: دراسات في المعاصرة والتراث ، ص97-98.

[7] - في التراث العربي، محمد عبد القادر أحمد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1979م، ص5.

- التّراث هو ما خلّفته لنا الأجيال في ألوف الكتب والرّسائل ما يزال الكثيرُ منه مخطوطًا في مكتبات العالم شرقًا وغربًا وما تحتويه هذه الكتب من آراء ونظريّات علميّة ليس إلى حصرها سبيل.[1]

- التّراث خبرات جاهزة وفروض تجاوزت مرحلة الاختبار، وتجارب وُضِعَتْ على المحكّ مصيبة أو مخطئة، ولكنّها في جميع الأحوال مفيدة سواء عملنا بها أو أعرضنا عنها، وفي الحالتين نحن ننظر إليها ونستضيء بها، أيًّا كان موقفنا منها.[2]

وهناك من الباحثين من يرى أنّ مفهوم التّراث يحمل معنيين مترابطين يتولّد ثانيهما عن أوّلهما، وأوّل هذين المعنيين أن التّراث هو المنجز التّاريخي لاجتماع إنساني في المعرفة والقيم والتّنظيم والصّنع، ويتجسّد هذا المفهوم في تراثنا في قطاعات أربعة رئيسة، وهي:[3]

*- القطاع المعرفي: يشمل مختلف العلوم والمعارف من علوم لغويّة وطبيعيّة ودينيّة...إلخ.

*- قطاع القيم: من أنماط السّلوك والتّفكير والعادات والأخلاق...إلخ.

*- قطاع النُّظم والمؤسّسات: ويشمل المؤسّسات والنُّظم الّتي تستند إليها الشّؤون العلميّة والاجتماعيّة والقانونيّة والإداريّة كالأسرة والمدرسة والمسجد والدّيوان والوزارة...إلخ.

*- قطاع الإبداع والصّنع: يشمل الإبداع الفنّي والأدبي الّذي يوحي بالحسن والجمال، ويمتدّ إلى كل ما أبدعت اليد بصنعه من أعمال يدويّة، ويشمل الأدب بأشكاله المختلفة كالغناء، الموسيقى، والموروث الشّعبي...إلخ.

وبهذا يظهر التّراث كأنّه هو الحضارة ذاتها أو أنّه هو المادّة والثّانية هي الصّورة، والفرق بين المصطلحين أنّ مفهوم الحضارة ذو دلالة معنويّة ونظرة شاملة للعالم، أمّا مفهوم التّراث فيدلّ على مجموعة مخصوصة من المنجزات.

أمّا المعنى الثّاني للتّراث، فيتمثّل في كونه هو كل ما هو حاضر في وعينا الشّامل، وفي تشخيصنا الحاضر ممّا ينحدر إلينا من التّجارب الماضية في المعرفة والقيم والنّظم والمصنوعات.[4]

وصفوة القول أنّ التّراث- بما هو منجز إنساني تاريخي- متفاوت في قيمته البقائيّة، ولكنّ شطرًا عظيمًا منه – على تعاقب القرون- ما يزال صالحًا باقيًا بل معاصرًا بل مرشّحًا للخلود، ويمثّل رافدًا لبقاء العربيّة واستمرارها على مرّ الزّمان.[5]

إنّ قضيّة التّراث في الحقيقة قضيّة مصيريّة ينبني عليها حاضر ومستقبل الأمّة، وهي تطرح نفسها في كل وقت، وتؤكد أهميتها على الصّعيد القومي كعنصر أساسي يدل على أصالة الأمّة العربية وعراقتها وصمودها أمام التّحدّيات الّتي تواجهها، ومن هنا لابدّ علينا أن نعتني بالتراث بروح المسؤلية القوميّة، وأن نسقط الدّعوات التي تدّعي وجود تناقض أو صراع بين الأصالة وإحياء التّراث والمعاصرة والتّقدم الحضاري، فتراث الأمّة العربيّة هو سيرتها والقوّة الدّافعة لبناء المستقبل على ضوء التّوازن بين المحافظة على التّراث القومي ومواكبة العصر والتّقدم، فالماضي في الحقيقة هو الّذي يضيء المستقبل والأمّة التي لا ماضي لها لا حاضر ولا مستقبل لها[6].

إنّ التّراث العربي لا يقف عند حدّ زماني أو مكاني معيّن يحصره في نصوص الأدب الجاهلي وذخائر علوم العربيّة والتّاريخ الإسلامي، بل تمتدّ أبعاده لتستوعب التّراث القديم لكلّ أقطار وطننا العربي على امتداد الزّمان والمكان منذ أقدم العصور وحتّى الآن[7].

---

[1] - ينظر: تحقيق التراث العربي، منهجه وتطوره، عبد المجيد ذياب، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1993م، ص12.

[2] - ينظر: التراث بين القطيعة والتواصل، محمد عبد اللة الهادي، دار ناشرون للنشر الالكتروني-أشغال المؤتمر الرابع لإقليم شرق الدلتا الثقافي تحت عنوان: التراث بين القطيعة والتواصل، يوليو، 2005م، ص8.

[3] - ينظر: دراسات في المعاصرة والتراث، ص98-99.

[4] - ينظر: دراسات في المعاصرة والتراث، ص99.

[5] - ينظر: اللغة العربية في العصر الحديث، قيم الثبوت وقوى التحول، نهاد الموسى، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2007م، ص54.

[6] - ينظر: في التراث العربي، ص7-8.

[7] - ينظر: دراسات في المعاصرة والتراث، ص101.

وعند مجيء الإسلام كانت الانطلاقة الحقيقيّة للحضارة العربية الإسلاميّة بدءًا بعهد النُّبوّة إلى عهد الخلفاء الرّاشدين رضي الله عنهم، ثم مرحلة الدّولة الأمويّة والعبّاسيّة، وبعدها بدأت بالأفول والتّدهور الّذي شمل كلّ ميادين الحياة.

والحقيقة الهامّة التي يجب توضيحها في هذا الصّدد هي أنّ الدّولة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها لم تخضع لحكومة مركزيّة موحّدة، إلاّ أنّه ساد هذه الدّولة من أقصاها إلى أقصاها وحدة أو رابطة من نوع آخر لا تقلّ عن الوحدة الجغرافيّة أو السّياسيّة، هذه الرّابطة تتمثّل في رابطة الدّين، ومن ناحية أخرى اجتمعت وحدة اللّغة إلى جانب وحدة العقيدة، وأصبحت اللّغة العربيّة في كلّ مكان لغة الدّين ولغة العلم والمعرفة[1].

إن هذا التّقديم لمفهوم التّراث يشمل التّراث بمعناه الواسع، والذي يشمل الموروث الحضاري ليمسّ جميع مناحي الحياة من فكر وإبداع وسلوك وطبائع وعادات، وبهذا فالتّراث يشمل كلّ ما هو مادي ومعنوي، ولا بأس بعد هذا الشّرح أن نسلّط الضوء على ما يهمّنا كباحثين في ميدان اللّغة وهو التّراث اللّغوي العربي.

– **مفهوم التّراث اللّغوي** : التّراث اللّغوي العربي يمثّل منظومة خاصّة بالثّقافة العربيّة الإسلاميّة، فهو نسق فكريٌّ وضع في مرحلة تاريخيّة محدّدة نتيجة ظروف خاصّة، وقام على أسس فكريّة معيّنة بوصفه يمثّل جزءًا من بيئة ثقافيّة عامّة هي الثّقافة العربيّة بمختلف مكوّناتها الفكريّة والاجتماعيّة والمعرفيّة والثّقافية والسّياسيّة ويشمل: مصنفات النحو وما تشتمل عليه من قواعد للتركيب وبنية الكلمات وخصائص أصواتها، إضافة إلى أصول النحو، والموروث البلاغي وجملة المعاجم[2].

أولا - مفهوم النحو:

- النّحو: يعني القصد والطّريق الّذي يُتَّبَعُ، يقال: نَحَوْتُ نَحْوَكَ، أي: قَصَدْتُ قَصْدَكَ [3].

- « النّحو: الطَّرِيقُ والجِهَةُ ج أَنْحَاء ونُحُو والقصد يكون ظرفًا واسمًا، ومنه نَحْوُ العربيّة وجمعه نَحُوٌ كعُتُلّ، نَحَاهُ يَنْحُوهُ قَصَدَهُ، ورجل نَاحٍ من نُحَاة نَحْوِيّ، ونَحَا مَالَ على أحد شقّيه، وأَنْحَى عليه ضربًا أقْبَلَ، والاِنْتِحَاء اعتماد الإبل على أيسرها، ونَحَاهُ صرفه، وأَنْحَاهُ عنه عَدَلَه»[4].

وتجدر الإشارة أنّ مصطلح النّحو لم يكن معروفًا حتّى أواخر القرن الأوّل للهجرة، وإنّما الّذي كان يتردّد على الألسن في الرّوايات والأقوال هو الإعراب والعربيّة، فما وضعه أبو الأسود الدّؤلي من نقط سُمِّيَ عربيّة، وإذا ذكر النّحو فهو لا يتعدّى هذا المعنى كما ورد عن الحسن البصري(ت 110 هـ)، ثمّ تطوّر المصطلح وأخذ يعني الملاحظات اللّغويّة في مجال تصحيح الأخطاء الّتي يقع فيها المتكلّم.[5]

- عرّفه ابن جني بقوله: «هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتصغير والتكبير والإضافة والنسب والتركيب، وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها، وإن لم يكن منهم، وإن شذ عنها ردّ به إليها.»[6].

- النّحو علم من العلوم التّصويرية وهو يدرس مستوى محدّدًا من مستويات النّشاط اللّغوي، هو مستوى الجملة، أي تركيب الكلمات في نطاق الجملة، وما ينتج عن هذا التّركيب من علاقات [7].

---

[1] - ينظر:المرجع السابق، ص23-24.

[2] - التفكير الدلالي في الدرس اللساني العربي الحديث، الأصول والاتجاهات، خالد خليل هويدي، مكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ط1، 2012م، ص288.

[3] - ينظر:لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط3، 1994م، ج15، ص309-310.

[4] - القاموس المحيط، الفيرزابادي، ص1337(بتصرف).

[5] - في التفكير النحوي عند العرب، زهير غازي زاهد، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط1، 1986م، ص44-45.

[6] - الخصائص، أبو الفتح عثمان (ابن جني)، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، د ط،2000م، ج1 ص34.

[7] - المدخل إلى دراسة النحو العربي، علي أبو المكارم، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 2006م، ص43-44.

- وعرّفه مازن الوعر مستعملاً مصطلح علم التّركيب بقوله: « علم التّركيب Syntaxهو الطّريقة الّتي من خلالها تنظّم وترتّب الكلمات لتَبِين العلاقات الدّلالية داخل الجملة وبين الجمل، ويرجع مصطلح Syntax إلى الكلمة اليونانيّة Syntaxis الّتي تعني التّركيب أو التّنظيم Arrangement، ولقد ركّزت معظم الدّراسات التّركيبيّة النّحويّة على بنية الجملة، ذلك لأنّ العلاقات القواعديّة تتجلّى أكثر ما تتجلّى في هذه البنية »[1].

لذا فإنّ علم النحو(Syntaxe)، يُبحث فيه عن أحكام بنية الجملة العربية بعد الإسناد، حيث يترتّب على علاقة التّأثير والتّأثر بين أقسام الكلام(الاسم والفعل والحرف) ما لا يكاد يتناهى من جمل أصلية وجمل معدّلة، يتحقّق بها غرض مطابقة الكلام لمقتضى الحال[2].

وأنّ الغاية من النّحو هو ضبط اللّسان وصون العربيّة من الفساد، حتّى لا يطال اللّحن القرآن الكريم، يقول عبد القاهر الجرجاني:« واعلم أن ليس النّظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرّسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها، وذلك أنّا لا نعلم شيئًا يبتغيه النّاظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كلّ باب وفروعه»[3].

- مسألة أول من وضع النحو :

لا نريد أن نتوسع كثيرا في هذه المسألة ولكن يمكن القول بأن الروايات تعددت في هذا الشأن، حيث ذكرت أسماء مثل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وأبي الأسود الدؤلي ونصر بن عاصم وعبد الرحمان بن هرمز.

أما علي بن أبي طالب، فتذكر الروايات أن أبا الأسود الدؤلي (ت 69 هـ)[4] ، دخل عليه بالعراق فرآه مطرقا يفكر فسأله فيما يفكر؟، فقال له سمعت ببلدكم لحنا، فأردت أن أضع كتابا في أصول العربية، وأتاه بعد أيام، فألقى إليه صحيفة فيها : «بسم الله الرحمن الرحيم ، الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل ».

ثم قال له :«اعلم أن الأشياء ثلاثة ظاهر، ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بمضمر ولا ظاهر»[5].

وذكر أن أبا الأسود جمع لعلي كرم الله وجهه أشياء وعرضها عليه كان منها حروف النصب ،(إن وأن وليت ولعل وكان)، ولم يذكر أبو الأسود لكن، فقال له علي: لما تركتها؟ فقال: ما أحسبها منها، فقال: بل هي منها فزدها فيها[6].

وقد شكك الدكتور شوقي ضيف في هذه الرواية، حيث قال بأن عليا كان مشغولا بأمور الدولة الإسلامية، وحربه مع معاوية، وبحروب الخوارج، كما أن النحو يحتاج إلى تفرغ وهدوء تامّين، كما ذكر احتمال بأن يكون شيعته هم الذين نحلوه هذا الوضع، حبا فيه وإشهارا له[7].

أما بخصوص أبي الأسود الدؤلي، فذكر الزبيري في كتابه "طبقات النحويين واللغويين"، بأنه أول من أسس العربية ونهج سبيلها ووضع قياسها، وذلك حين اضطرب كلام العرب، وصاروا يلحنون، فوضع باب الفاعل والمفعول به والمضاف، وحروف النصب، والرفع، والجر، والجزم ، وهو أول من وضع العربية ونقط المصاحف[8].

---

[1] - دراسات نحوية ودلالية وفلسفية في ضوء اللسانيات المعاصرة، مازن الوعر، دار المتنبي للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 2001م، ص11.

[2] - ينظر: مصادر التراث العربي، صبري متولي متولي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2005م، ص108.

[3] - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط5، 2004م، ص81.

[4] - لترجمة ينظر:طبقات النحويين واللغويين، ص21-26. وأيضا: أخبار النحويين البصريين، أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط1، 2004م، ص65-71.

[5] - المدارس النحوية ، شوقي ضيف، ص 13-14.،وللتوسع في الموضوع، ينظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري، ص4.

[6] - المرجع نفسه، ص14.

[7] - ينظر: المرجع نفسه، ص14-15.

[8] - ينظر: طبقات النحويين واللغويين، ص21، وينظر: الفكر النحوي عند العرب، أصوله ومناهجه، علي مزهر الياسري، ص92.

ويذكر السيرافي(284-368هـ)، في كتابه، بأن أبا الأسود الدؤلي سمع قارئا يقرأ :﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[1]، فقال: « ما ظننت أن أمر الناس صار إلى هذا»، فرجع إلى زياد فقال :« أنا أفعل ما أمر به الأمير فَلْيَبْغِنِي كاتبا لقنا يفعل ما أقول»، فأوتي بكاتب من عبد القيس، فلم يرضه، فأتي بآخر فقال له أبو الأسود: «إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، فإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن أتبعت شيئا من ذلك غنه، فاجعل مكان النقطة نقطتين»، فهذا نقط أبي الأسود[2].

ويذكر الزبيدي، بأن أبا العباس محمد بن يزيد سأل أبا الأسود الدؤلي عمن فتح له الطريق إلى الوضع في النحو، فأرشده إليه، فقال : « تلقيته من علي بن أبي طالب رحمه الله»، وفي حديث آخر قال: «ألقى إليّ علي أصولا اهتديت عليها»[3].

وروي أن الذي أوجب عيه وضع النحو أن ابنته قعدت معه في يوم شديد الحر فقالت له :ما أشد الحر؟ ، فقال لها: القيظ، وهو ما نحن فيه يا بنية، جوابا عن كلامها لأنه استفهام، فتحيّرت، وظهر لها خطؤها، فعلم أنها أرادت التعجب، فقال لها: قولي: ما أشد الحرا ، فعمل باب التعجب، وباب الفاعل والمفعول به، وغيرها من الأبواب"[4].

وقد شكّك بعض الدّارسين مثل أحمد أمين ، وإبراهيم مصطفى في هذه الروايات ،حيث إن الأسماء الدقيقة للأبواب التي نسبت إليه، لا تناسب طبيعة العصر ، واستدلوا بأن سيبويه لم يذكر له ولا لتلاميذه رأيا واحدا، وقد مال هؤلاء جميعا إلى أن أبا الأسود الدؤلي لم يضع سوى نقط الإعراب[5]، وقد ذهب شوقي ضيف هذا المذهب[6].

أما بخصوص نصر بن عاصم الليثي، فذكر السيرافي أنّه روي عن محمود البكري عن خالد الحذاء قال:«سألت نصر بن عاصم وهو أول من وضع العربية كيف نقرأها ؟»، قال﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد ،اللهُ الصَّمَد﴾[7]،(لم ينون) قال: « فأخبرته أنّ عروة ينون»، فقال: « بئسما قال، وهو للبئس أهل»، فأخبرت عبد الله بن أبي إسحاق بقول نصر بن عاصم ، فمازال يقرأ بها حتى مات واختلف عن محبوب في عروة وعزوة، فقال خلف بن هشام عروة، وقال عمر بن شبة: عزوة، وكان نصر بن عاصم أحد القراء الفصحاء، وأخذ عنه أبو عمرو بن العلاء والناس، وروي عن عمرو بن دينار قال: «اجتمعت أنا والزهري ونصر بن عاصم، فتكلم نصر فقال الزهري(ت121هـ): إنه ليغلق في العربية تغليقا[8]».

علما أن هذه الرواية لا تتكلم عن وضع النحو بل هي ملحقه بما ذكر عن أبي الأسود الدؤلي حين يذكر الدكتور شوقي ضيف بأن نصر بن عاصم أخذ عن أبي الأسود الدؤلي، حيث كان من تلاميذه الذين نقطوا المصحف وأخذ عنهم النقط وحُفظ وضُبط وقُيّد وعُمل به واتُّبع فيه سبتهم واقتدى فيه بمذاهبهم.[9]

وكذلك فعل عبد الرحمان بن هرمز حين ذكر الزبيدي، بأن أبا النصر، قال: «كان عبد الرحمان بن هرمز من أول من وضع العربية، وكان من أعلم الناس بالنحو وأنساب قريش[10]».

---

[1]- سورة التوبة، الآية (3).

[2]- أخبار النحويين البصريين، ص67-68، وينظر: المدارس النحوية، ص16.

[3]- طبقات النحويين واللغويين، ، ص21.

[4]- المصدر نفسه، ص21-22(بتصرف)، وينظر: أخبار النحويين البصريين، ص70.

[5]- ينظر:مكانة الخليل بن أحمد الفراهيدي في النحو العربي، جعفر نايف عبابنة، دار الفكر، عمان ، ط1، 1984م، ص18.

[6]- ينظر: المدارس النحوية ، شوقي ضيف، ص16.

[7]- سورة الإخلاص، الآية (1-2).

[8]- أخبار النحويين البصريين، ص71-72، وأيضا: طبقات النحويين واللغويين، ص27.

[9]- ينظر:المدارس النحوية، شوق ضيف، ص16.

[10]- طبقات النحويين واللغويين، ص26، وينظر: أخبار النحويين البصريين، ص72.

ورغم الشكوك في حقيقة وضع النحو لهؤلاء، فإنه يمكن القول، بأن أبا الأسود الدؤلي وتلميذه نصر بن عاصم الليثي وعبد الرحمان بن هرمز، قد كانوا السابقين لوضع نقط الإعراب[1] والإعجام[2]، وكان ذلك عملا خطيرا حقا فقد أحاطوا لفظ القرآن الكريم بسياج يمنع اللحن فيه، مما جعل بعض القدماء يظن أنهم وضعوا قواعد الإعراب أو أطرافا منها، وهم إنما رسموا في دقة نقط الإعراب لا قواعده، كما رسموا نقط الحروف المعجمية، مثل الباء والتاء والثاء والنون[3].

وهذا العمل في نظرنا لا يمكن الاستهانة به، فهو لا يقل شأنا عن النحو في حد ذاته، لأن نقط الإعراب والإعجام أصبحا من القواعد الراسخة للعربية، وهما جزء لا يتجزأ من النحو، وخاصة نقط الإعراب، كما أن حديثهم عن بعض قواعد النحو ليس مستبعدا، لأن بداية أيّ علم، كما ذكرنا سابقا تكون بسيطة ثم تتطور شيئا فشيئا، إلى أن يتاح لها من يسير بها قدما فتصبح في متناول الجميع، وتأخذ مجراها إلى النقاش والأخذ والرد، كما وقع للنحو بعد ذلك.

- تقويم مفهوم النّحو:

وهو في اعتقادي مصطلح أوسع ممّا ورد في التّعاريف وممّا عَلِقَ بأذهاننا، فالنّحو العربي هو الطّريق أو السُّنن أو الضّوابط (القوانين والقواعد النّاظمة للكلام العربي)، وهو بهذا لا يعني فقط الجانب التّركيبي، بل يتعدّاه إلى الجانب الصّوتي والصّرفي وحتّى المعجمي والدّلالي، بل هو لا يعنى فقط تلك القوانين النّاظمة أو الضّابطة للّغة العربية، بل يشمل طبيعة التّفكير النّحوي العربي القديم وفلسفته، فلابدّ أن نميّز بين النّحو التّعليمي والنّحو العلمي، والتّراث يشمل المكوّنين معًا، بل إنّ الرّوايات المشهورة حول نشأة النّحو العربي، ومفهوم "مصطلح النّحو" فهي تذكر مثلاً رواية عن الإمام علي كرّم اللّه وجهه، حيث ذكر لأبي الأسود الدّؤلي:"الكلام كلّه اسم وفعل وحرف انح هذا النّحو"، وهذه الرّواية لا تشير إلى مستوى معيّن، ثمّ إنّ ذِكر حركات الإعراب والإعجام في هذا السّياق لا يوحي بذلك أيضًا، ولعلّ ربط النّحو بالإعراب كان بسبب تلك الرّوايات الّتي تتحدّث عن الأخطاء الّتي بدأت تتسرّب إلى العربيّة ولغة الذّكر الحكيم، ورُبطت بالرّفع والجرّ والنّصب(حركات الإعراب)، ومنه الرّواية الّتي تتحدّث عن ذلك القارئ الّذي قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُه﴾التّوبة(3) بجرّ "رسولِه"، وهذا خطأ جسيم لا يُغتفر ولا يُقبل، فارتبط النّحو بالإعراب وبجانب تركيب الجمل، وفي اعتقادي إنّ هذه التّسمية ارتبطت بذلك الظّرف(ظرفيّة) حيث كان يتردّد على الألسن في بداية ظهور هذا العلم مصطلحات مثل:"الإعراب والعربيّة"، وإذا ذُكِر النّحو فهو لا يتعدّى هذا المعنى، لكن من الخطأ الاحتفاظ بهذا المفهوم كلّ هذا الوقت، لذا يُستحسن أن نستخدم مصطلح التّركيب بدل النّحو للدلالة على المفهوم الّذي ترسّخ بأذهاننا.

ممّا سبق نستطيع القول بأنّ **التّراث النحوي** هو كلّ ما تركه لنا أجدادنا النّحاة من كتب ومصنّفات ومخطوطات وشروح وتحليلات وآراء وتعليقات وتفسيرات للغة العربيّة في كلّ مستوياتها التّركيبي والصّوتي والصّرفي والمعجمي والدّلالي علمًا أنّ التّراث النّحوي قيمته تتفاوت صعودًا ونزولًا، فهناك الأصيل وغير الأصيل، وهناك العميق وغير العميق(السّطحي السّاذج)، لذلك يفرّق بعض الباحثين ومنهم أستاذنا عبد الرحمان الحاج صالح وعبد القادر المهيري وأحمد العلوي بين مستويين من التّراث النّحوي العربي، سنفصّل في هذه المسألة في حينها.

---

[1] - يقصد بنقط الإعراب هي الحركات التي توضع على الحروف كي تنطق نطقا مطابقا لمقتضى الحال، وهي ما يسمى بالحركات الإعرابية.

[2] - ويقصد بنقط الإعجام النقاط التي تفرق بين الحروف المتشابهة في الرسم، كالجيم والخاء، وكالباء واتاء والثاء والياء...إلخ.

[3] - المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص17، وينظر: الفكر النحوي عند العرب، أصوله ومناهجه، علي مزهر الياسري، ص100، وينظر: المدارس النحوية، خديجة الحديثي، دار الأمل ، الأردن، ط3(مدققة ومنقحة)، 2001م، ص42-44.

ثانيا: علم العربية:

تطلق كلمة علم Science اصطلاحا على كل بحث موضوعه دراسة طائفة معينة من الظواهر لبيان حقيقتها وعناصرها ونشأتها وتطورها ووظائفها والعلاقات التي تربطها بعضها ببعض، والتي تربطها بغيرها، وكشف القوانين الخاضعة لها في مختلف نواحيها[1]. والبحث العلمي في اللغة يعد ظاهرة حديثة نسبيا، شأن البحث العلمي في شتى ميادين المعرفة المختلفة، فالإنسان يتنفس منذ وجد، لكنة عرف جهاز التنفس وعملياته وما يرتبط به من عمليات فسيولوجية في جسم الإنسان تعد من الحقائق التي اكتشفها البحث العلمي في الوقت القريب، واللغة قديمة قدم الإنسان نفسه لكن البحث فيها مرتبط بالتقدم العلمي وهو أمر حديث في التاريخ الإنساني[2].

ولقد أطلق علماء اللغة على دراسة بنية اللغة من جوانبها الصوتية والصرفية والنحوية مصطلحين اثنين هما" النحو" و"علم العربية" ومن هؤلاء ابن النديم وابن فارس وابن الأنباري ولكنهم كانوا أميل لمصطلح النحو،[3]، يقول ابن فارس: «...وكذلك الحاجة إلى علم العربية، فإنّ الإعراب هو الفارق بين المعاني، ألا ترى أنّ القائل إذا قال:"ما أحسن زيد" لم يفرّق بين التّعجّب والاستفهام والجزم إلا بالإعراب ».[4] لكن المغاربة والأندلسيين كانوا يفضلون مصطلح العربية أو علم العربية على نحو ما فعل الزبيدي وابن خلدون هذا الأخير الذي أطلق على القواعد النحوية مصطلحين مترادفين هما:"قوانين العربية:و"القوانين النحوية.[5] كما صنّف كتاب سيبويه بأنّه في علم العربية وكذلك شأن ألفية ابن مالك.

ثالثا: علوم العربية:

علوم اللغة العربية وتسمى أيضا بعلم الأدب، وهي علوم يحترز بها عن الخلل في كلام العرب لفظا أو كتابة، وقسمها علماء اللغة العربية إلى اثني عشر قسما أو علما أو أكثر، هي:(1- علم اللغة،2- علم النحو، 3-علم التصريف، 4-علم المعاني،5- علم البيان ، 6-علم البديع، 7-علم العروض، 8-علم القوافي،9-علم قوانين الكتابة، 10-علم قوانين القراءة، 12-علم المحاضرات ومنه التواريخ.)

منها الأصول وهي العمدة في ذلك الاحتراز ، فالبحث إما عن المفردات من بحيث جواهرها وموادها؛ فعلم اللغة، أو من حيث صورها وهيئاتها؛ فعلم التصريف، أو من حيث انتساب بعضها إلى بعض بالأصالة والفرعية؛ فعلم الاشتقاق. وإمّا عن المركّبات على الإطلاق، فأمّا باعتبار هيئاتها التركيبية وتأديتها للمعاني الأصلية؛ فعلم النحو، أو باعتبار إفادتها لمعان مغايرة لأصل المعنى؛ فعلم المعاني، أو باعتبار كيفية تلك الإفادة في مراتب الوضوح؛ فعلم البيان.وأمّا عن المركّبات الموزونة، فأما من حيث وزنها؛ فعلم العروض، أو من حيث أواخر أبياتها؛ فعلم القافية

ومنها الفروع، والبحث فيها إمّا أن يتعلّق بنقوش الكتابة؛ فعلم الخط، أو يختص بالمنظوم؛ فعلم قرض الشعر، أو بالمنثور؛ فعلم إنشاء النثر من الرسائل والخطب، أو لا يختص بشيء منها؛ فعلم المحاضرات ومنه التواريخ[6].

وقد جمعها أحمد الهاشمي:

نحو وصرف وعروض ثم قافية وبعدها لغة قرض وإنشاء
خط بيان معان مع محاضرة والاشتقاق لها الآداب أسماء

أو في قولهم:

صرف بيان معاني النحو قافية شعر عروض اشتقاق الخط إنشاء

---

[1] - علم اللغة، على عبد الواحد وافي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط9، 2004م، ص24.

[2] - ينظر: مدخل إلى علم اللغة، محمود فهمي حجازي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، طبعة جديدة مزيدة ومنقحة، 1997م، ص9-10.

[3] - ينظر:أسس علم اللغة العربية، محمود فهمي حجازي، دار الثقافة للطباعة، القاهرة، 2003م، ص59-60.

[4] - ينظر: فقه اللغة في الكتب العربية، عبده الراجحي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، دط، دت، ص40.

[5] - ينظر: أسس علم اللغة العربية ، ص62-64.

[6] - ينظر: موقع شبكة الألوكة، بتاريخ:2022/09/25م، الساعة12:37.

محـــاضرات وثاني عشرها لغـة تلك العلـــوم لها الأداب أسمـــــاء

أساسها أربعة جمعها الشيخ الإثيوبي في قوله من نظم "التحفة المرضية":

نحو وصرف واشتقاق ولغة هذه الأساس فاجتهد أن تبلغه

ومن العلماء العرب البارزين الذين فصّلوا في هذه العلوم ابن خلدون في مقدّمته المشهورة، حيث ذكر بأن علوم اللسان العربي(اللغة العربية)، هي اللغة والنحو والبيان والأدب، إذ يقول:«أركانه أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والأدب ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة ، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها في الكتاب والسنة وهي بلغة العرب....والذي يتحصّل أنّ الأهم المقدّم منها هو النحو إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة...وكان من حق علم اللغة التّقدّم لولا أنّ أكثر الأوضاع باقية في مواضعها لم تتغير لولا الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر، فلذلك كان علم النحو أهم من علم اللغة، إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللّغة»[1] سنشرحها بشكل وجيز كما وردت من وجهة نظره في المقدمة[2]:

1-علم النحو:

يعد ابن خلدون اللغة تعبير عن مقصود متكلمها وهي فعل لساني ناشئ قصد إفادة السّامع، واللغة أحسن ملكات العرب، ولمّا جاء الإسلام تغيّرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات للمستعربين، والسّمع أبو الملكات اللسانية ففسدت الألسنة، وخشي العرب أن تفسد تلك الملكة ويصيب اللحن القرآن الكريم والحديث، فاستنبطوا من كلامهم قوانين لتلك الملكة اللسانية مطردة تشبه الكليات والقواعد التي يقيسون عليها، فالفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع، ورأوا أن الدلالة تتغير بتغيّر الحركات فاصطلحوا على تسميته إعرابا والموجب لذلك التغير عاملا، واصطلحوا على هذا العلم تسمية علم النحو، وأول من كتب فيه أبو الأسود الدؤلي، أن الخليل هو الذي هذب هذا العلم وأكمل أبوابه وأخذ عنه تلميذه سيبويه الذي أكمل تفريعاته واستكثر من الأدلة والشواهد في كتابه المشهور الذي صار إماما لكل من جاء بعده، لكن الكلام فيه طال وظهر بعد ذلك الخلاف بين الأمصار فتعددت مدارسه واتجاهاته.

2- علم اللغة:

وهو بيان للموضوعات اللغوية فإذا كان النحو هو قانون يعالج فساد ملكة اللسان العربي في حركات الإعراب، فإن الفساد تعدى إلى دلالات ومعاني الألفاظ نفسها ففسدت موضوعات الألفاظ واستعمل المستعربون كلام العرب في غير موضعه وخالفوا في ذلك صريح العربية وهو أمر لا يقل خطورة عن الأول ولعله أخطر، فقام كثير من أئمة اللسان وألفوا الدواوين لحماية المعجم العربي، على غرار ما فعل الخليل بن أحمد الفراهيدي في كتابه "معجم العين" حيث أحصى فيه مركّبات حروف العجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي معتمدا على التركيب بالتقليب فانحصرت له ألفاظ العربية ورتب أبواب كتابه على حروف المعجم، معتمدا على ترتيب المخارج بداية بالحلق ثم الحنك وصولا للشفتين جاعلا حروف العلة آخرا، لذلك بدأ بحرف العين الذي سمى به كتابه، وقد بين الخليل المهمل من المستعمل، ذاكرا أن أكثر المهمل من الرباعي والخماسي والثنائي لقلة دورانه، وأن الاستعمال كان أكثر في الثلاثي كثرته دورانه في الألسنة، ثم جاء بعده أبو بكر الزبيدي والجوهري وابن سيدة وابن دريد وابن الأنباري وغيرهم، معتبرا هذه المؤلفات أصول كتب اللغة.

---

[1] - مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، مكتبة ابن سينا للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2009م، ص616-617.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص617-625.

3- علم البيان:

يتبع علمي النحو واللغة علم البيان وهو يتعلق بالألفاظ وما تفيده، وكلام العرب واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة، فقولهم:"زيد جاءني" مغاير لقولهم:"جاءني زيد"، والمتقدّم عندهم أهم بالنسبة للمتكلم، ففي الجملة الأولى اهتمام بزيد قبل المجيء المسند، وفي الثانية اهتمام بالمجيء قبل الشخص المسند إليه، وفي قولهم: زيد قائم فالعاري عن التوكيد إنما يفيد خالي الذهن الّذي لا يعلم الخبر، وقولهم: إن زيدا قائم، فالمؤكّد بأداة التوكيد"إنّ" يفيد المتردد الذي ربما يعلم الخبر لكنه يشك فيه، وقولهم:"إن زيدا لقائم"، فهو يفيد المنكر الذي يعلم الخبر لكنه ينكره فالمتكلّم بحاجة إلى استخدام أكثر من آداة توكيد واحدة "إنّ" ولام التوكيد، فهذه الجمل متغايرة المعنى وإن تشابهت إعرابا، فخلو الذهن حال وإتيان الخبر مجردا من أدوات التوكيد مراعاة لمقتضى الحال، والتردد حال، وإتيان الخبر بأداة التوكيد مراعاة لمقتضى الحال، والإنكار حال، وإتيان الخبر بأكثر من أداة توكيد واحدة مراعاة لمقتضى الحال.

إن ابن خلدون يعتبر البحث عن الهيئات والأحوال الّتي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال من علم البلاغة، وأن البحث عن الدلالة عن اللازم اللفظي ومدلوله من استعارة وكناية من علم البيان وأن ثمرة هذا الفن هي فهم إعجاز القرآن لأنه وافي الدلالة بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهذا الإعجاز يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه، وأن تزيين الكلام وتنميقه إما بسجع أو تجنيس يشابه بين ألفاظه أو ترصيع يقطع أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى خفي لاشتراك اللفظ من علم البديع، وأطلق الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان، وأن أهل المغرب اختصوا بعلم البديع وفرغوا له ألقابا وعدّوا أبوابا ونوّعوا أنواعا، وذلك لسهولة مأخذه مقارنة مآخذ البلاغة والبيان لدقتهما وغموض معانيهما فتجافوا عنهما، ومن ذلك كتاب "العمدة لابن رشيق"، هذا ويعد ابن خلدون تفسير جار الله الزمخشري أكثر التفاسير تقيدا بأحكام هذا الفن رغم ملاحظاته عنه بأنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن.

4- علم الأدب:

وهو الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم من شعر عالي الطبقة، وسجع متساو في الإجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة ومتفرقة أثناء ذلك، فالأدب كما يقول ابن خلدون هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كلّ علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو علوم الشريعة من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث الشريف، وأصول هذا العلم وأركانه أربعة دواوين وهي:"أدب الكاتب لابن قتيبة"، وكتاب:"الكامل للمبرد"، "البيان والتبيين للجاحظ"، وكتاب:"النوادر لأبي علي القالي البغدادي"، وما سواها فهي تبع لها وفروع.

والغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما أنه تابع للشعر إذ الغناء إنما هو تلحينه، وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصفهاني كتابه في الأغاني، وجمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولتهم، وجعل مبناه على الغناء في المائة صوتا التي اختارها المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك أتم الاستيعاب وأوفاه، معتبرا هذا الكتاب جامعا أشتات المحاسن الّتي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ولا يعادله كتاب في ذلك.

رابعا- الإعراب:

الإعراب والتعريب لغة معناهما واحد هو الإبانة والإفصاح، يقال:"أعرب عنه لسانه وعرّب أي أبان وأفصح وأعرب عن الرجل أي بيّن عنه وعرّب عنه، وإنّما سمّي الإعراب إعرابا لتبيينه وتوضيحه، وعرّب منطقه أي هذّبه من اللحن، والإعراب الّذي هو النّحو، إنّما هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، وأعرب كلامه إذا لم يلحن في الإعراب[1].

---

[1] - ينظر: لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، دط، دت، ج1، ص588-589.

تمتاز اللغة العربية في شؤون التنظيمSyntqxe بتلك القواعد الدقيقة التي اشتهرت باسم قواعد الإعراب والّتي يتمثل معظمها في أصوات مد قصيرة تلحق أواخر الكلمات لتدل على وظيفة الكلمة في العبارة وعلاقتها بما عداها من عناصر الجملة، وهذا النظام لا يوجد له نظير في أي أخت من أخواتها السّاميّة، اللهم إلا بعض الآثار الضئيلة البدائية في العبرية والآرامية والحبشية[1]، والإعراب -كما يقول مهدي المخزومي- بيان ما للكلمة أو الجملة من وظيفة نحويّة، أو من قيمة نحوية، ككونها مسندا إليه، أو مضافا إليه، أو فاعلا، أو مفعولا، أو حالا، أو غير ذلك من الوظائف الّتي تؤديها الكلمات في ثنايا الجمل ، وتؤديها الجمل في ثنايا الكلام أيضا[2]، فاللغة العربية تعد لغة متصرّفة بمعنى الكلمة، محافظة على نهايات الإعراب والتصرّفات المختلفة، كالضمة في حالة الرّفع والكسرة في حالة الجر، والفتحة في حالة النصب...إلخ وهذا التّغير في العلامات في آخر الألفاظ داخل التركيب بسبب تغيّر العوامل الّتي تتحكّم في التركيب وتحدّد معناه[3]، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هذه القواعد المتشعبة الدقيقة وخاصة قواعد الإعراب كانت متعلّقة أكثر بلغة الآداب(شعرا، وخطابة، ونثرا)، أمّا اللهجات فكانت غير معربة منذ القديم، أو أنها لم تكن تهتم بها كما يحدث في لغة الأدب، ودليل هؤلاء في ذلك يتمثل في أمرين[4]:

أ- أحدهما دليل لغوي أن جميع اللهجات العامية المتشعبة من العربية والتي تستخدم اليوم في الحجاز ونجد واليمن ومصر والعراق والشام وبلاد المغرب العربي مجردة من الإعراب، ولو كانت قديما معربة لانتقل بعض من نظامها إلى اللجات المستعملة اليوم أو إلى بعضها على الأقل.

ب- الثاني دليل منطقي عقلي أن القواعد متشعبة ودقيقة وصعبة التطبيق فهي تتطلب شدة الانتباه وملاحظة عناصر الجملة والعلاقات بينها، وهو أمر لا يعقل أن يتم في اللهجات بتك الصرامة الموجودة في لغة الأدب، فاللهجات تميل إلى السهولة والبساطة.

خامسا- فقه اللغة:

فقه اللغة(Philology)، الفقه في اللغة الفهم، وقد فقه الرّجل صار فقيها، وفاقهه باحثه في العلم، والفقيه العالم الفطن،قال ابن فارس وكلّ علم بشيء فهو فقه

فلفظة"فقه" في المعجمات العربية تعني "العلم، و"فقه اللغة فيها هو"علم اللغة"، وقد ظهر هذا المصطلح في القرن الرّابع الهجري عند ابن فارس(ت395ه) وأطلقه على كتابه المشهور"الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها"، بيد أن هذا المصطلح لم ينتشر الانتشار الواسع، حيث ظهر بعد مدّة عند أبي منصور الثعالبي(ت429ه) وأطلقه أيضا على كتابه:"فقه اللغة وسر العربية"[5].

وقد بين ابن فارس في مقدّمه كتابه المذكور أن المقصود بفقه اللغة هو:«القول على موضوع اللغة وأوّليتها ومنشئها، ثم على رسوم العرب في مخاطبتها وما لها من الافتنان تحقيقا ومجازا».، أمّا الثعالبي فكان يقصد به:"إيراد مجموعة من الألفاظ الّتي تقال في موضوع معيّن كالنبات أو الشّجر مثلا"، وهذا المصطلح عربي صرف، ويشمل دراسة مفردات اللغة وما تشتمله من معان ويدخل في ذلك الحقول الدلالية سواء كانت هذه الحقول ظواهر طبيعية، كالأنواء والسحاب والمطر والغيث، أم نباتية كالنبات والنخيل والشّجر والكرم، أم حيوانية كالإبل والشاء والخيل، وهلم جرّا، وبما دخل تحت ذلك الغريب، كما في: "غريب اللغة" لابن قتيبة، ويدخل في ذلك المشترك اللفظي، والترادف والتضاد والفروق وأنواع المعاجم، كما يطلق هذا المصطلح على الدراسة المقارنة للغة العربية واللغات السامية، وتاريخ اللغات

---

[1] - فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط6، 2004م، 161.

[2] - في النحو العربي نقد وتوجيه، مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1986م، ص67.

[3] - ينظر:العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، يوهان فك مع تعليقات المستشرق الألماني شبيتالر، ترجمة وتقديم، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط 1980م، ص14.

[4] - ينظر: فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي ، ص161.

[5] - ينظر: فقه اللغة، حاتم صالح الضامن، مكتبة مازن عبد القادر المبارك، دط، 1990م، ص10.

السامية، كما يطلق على عملية مقارنة الألفاظ الفصيحة بغير الفصيحة، كما يطلق على دراسة اللهجات كما فعل إبراهيم أنيس في كتابه: "اللهجات العربية" ، كما يطلق على دراسة الأصوات ككتاب ابن جني:"سر صناعة الإعراب"، وكتاب ابن سينا:"أسباب حدوث الحروف [1]. أما منهج البحث في فقه اللغة فإنّه منهج وصفي استقرائي يعرف به موطن اللغة الأول وفصيلتها وعلاقتها باللغات المجاورة أو البعيدة، الشقيقة أو الأجنبية، وخصائص أصواتها، وّأبنية مفرداتها وتراكيبها، وعناصر لهجاتها، وتطوّر دلالتها، ومدى نمائها قراءة وكتابة، والبحوث الأساسية المذكورة في التعريف تتعلّق بعلوم ثلاثة[2]:

أ- التاريخ لمعرفة موطن اللغة الأول، وروابط القربى بينها وبين اللغات الإنسانية الأخرى، وتنوع لهجاتها وتطور خطّها وكتابتها.

ب- علم الصوت، لبحث لهجات اللغة وأصواتها، ومعرفة أنواع التطوّر الصوتي فيها.

ج- علم الدلالة، لبحث تطوّر ألفاظها وما تفيده من المعاني

وفي العصر الحديث استخدم هذا المصطلح استخدامات عديدة منها[3]:

أ- تم استخدامه في مقابل المصطلح الأجنبيPhilology وهو يختص أساسا بدراسة النصوص القديمة مفسرا لها ومبينا محتواها اللغوي والأدبي والحضاري.

ب- تم استخدامه بمعنى البحوث الّتي تختص بدراسة فقه اللغات السامية أو إحدى هذه اللغات، على غرار صنيع علي عبد الواحد وافي في كتابه:"فقه اللغة.

ج- كما استخدم مرادفا لعلم اللغة كما فعل الأنطاكي في كتابه: "الوجيز في علم اللغة".

د- واستخدم مردفا لعلم المفردات اللغوية"المعجم" Lexicography".

وإذا كان من العسير تحديد الفروق الدقيقة بين علم اللغة وفقه اللغة، لأن جلّ مباحثهما متداخل لدى طائفة من العلماء في الشرق والغرب، قديما وحديثا، وقد سمح هذا التداخل أحيانا بإطلاق كلا التسميتين على الأخرى، حتى غدا العلماء يسردون البحوث اللغويّة الّتي تسلك عادة في علم اللغة، ثم يقولون:"وفقه اللغة يشمل معظم العلوم السابقة، ولا سيما إذا قورنت هذه البحوث بين لغتين أو لغات متعددة"[4].

ويرى تمام حسان أنّ فقه اللغة من قبيل المعارف لا الصّناعات، وهو ينتمي إلى العلوم غير المضبوطة، لا إلى العلوم المضبوطة، فهو بذلك أقرب إلى الفيلولوجيا منه إلى علم اللغة، غير أنّه يختلف عنها من حيث فكرة القدم ليست دائما من عناصر فهمه، بل نلمح فيه عنصرا مستقبليا هو ما يطلق عليه إثراء اللغة، وهذا العنصر بالّذات هو مجال نشاط المجامع اللغوية[5].

ولقد حدد العلماء الفرق الواضح بين الصناعات(العلوم المضبوطة) والمعارف(العلوم غير المضبوطة)، وإذا كان من خصائص الدراسة العلمية المضبوطة: الشمول والموضوعية والتماسك والاقتصاد، يحق لنا التساؤل هل يتصف البحث في أبواب فقه اللغة بأنّه علم من العلوم؟، فإذا حاولنا تطبيق خصائص العلم على فقه اللغة فسنجد بأنّه يتصف ببعضها، ونقصد تحديدا الموضوعية والتّماسك، أمّا الشمول واستنباط القواعد العامة من الظواهر الخاصة، وما يترتب على ذلك من حتمية صدق النتائج، فهو أمر لا يمكن أن يتصف به فقه اللغة، وذلك لأن الحتمية والاستقراء الناقص متلازمان، أما سمة الاقتصاد فمما نفتقده في فقه اللغة[6].

---

[1] - ينظر: الأصول دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، النحو، فقه اللغة، البلاغة، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، دط، 2000م، ص 240-241.

[2] - دراسات في فقه اللغة، ص22.

[3] - ينظر: مقدمة في فقه اللغة العربية واللغات السامية،عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، الجرسي للكنبيوتر والطباعة والتصوير، القاهرة، ط2، دت، ص9-10.

[4] - دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 2009م، ص19.

[5] - ينظر: مقدمة في فقه اللغة العربية واللغات السامية، ص12.

[6] - المرجع نفسه، 11-12.

ومن كتب فقه اللغة في تراثنا اللغوي الّتي تبعث على الإعجاب والفخر والإكبار، إذ يظهر في شيء غير قليل من قضاياها سبق بعض علمائنا القدامى لأحدث النظريات اللغوية الحديثة بألف عام أو يزيد، ومنها ما كتبه ابن جني(ت 392ه) في كتابيه:"الخصائص"و"سر صناعة الإعراب"، وابن فارس(ت 395ه) في كتابه:"الصاحبي في فقه اللغة"، والسيوطي(ت 911ه) في كتابه:"المزهر في علوم اللغة وأنواعها"[1].

[1] - ينظر: دراسات وتعليقات في اللغة، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، دط، 1994م، ص173.

المحاضرة الثانية:(اللسانيات العربية -النشأة)

تمهيـــــد(كلمة في مصطلح اللسانيات العربية):

مع بداية الثّمانينيات من القرن العشرين بدأ استعمال عبارتي"اللّسانيات العربيّة"،و"لسانيات العربية" في الانتشار وقد هيمنت العبارة الأولى تدريجيًّا على الكتابات العربية الّتي لها صلة بموضوع الدّرس اللّغوي العربي قديمه وحديثه دون أن تختفي العبارات الأخرى نهائيًّا من سوق الاستعمال،[1] ويزداد الخلط والغموض عندما نجد أن اللّسانيات العربية تبدأ من سيبويه والجرجاني والسّكاكي وابن خلدون وغيرهم، ورغم الاعتراف بمكانة هؤلاء –يقول غلفان-فإنّه لا يمكن أن نطلق على التّراث اللّغوي العربي تسمية اللّسانيات الّتي تحمل دلالات نظريّة ومنهجيّة مختلفة ومحدّدة زمانًا ومكانًا[2].

أمّا الفرق بين"لسانيات العربية"،و "اللّسانيات العربيّة"، فهو فرق في الموضوع المشتغل به، فلسانيات العربيّة تشتغل بمختلف مستويات التحليل باللّغة العربية موضوعًا لها، أما اللّسانيات العربية فتتناول ما يكتب في اللّسانيات باللغة العربية سواء أتعلّق الأمر باللّسانيات العامّة أم بلسانيات العربيّة، أم بلسانيات أي لغة طبيعية أخرى[3].

إن هذا المصطلح ملتبس عند الكثيرين وتجنبا لأي إشكال يمكن اعتماد مصطلح" الدرسات اللغوية عند العرب" أو "الدرس اللغوي العربي"أو"البحث اللغوي عند العرب"، الذي اعتمدناه في هذه المحاضرة تماشيا مع مفردات المقياس حيث يتحدّث عن النشأة ويعتمد كتاب سيبويه في التطبيق، لأن رأي غلفان وجيه وحقيق بأن يعتمد فاللسانيات العربية مرتبطة بظهور علم اللسانيات الحديث فهي حديثة حداثة اللسانيات على الأقل كمصطلح.

1-نشأة البحث اللغوي عند العرب:

قبل نشأة أي علم من العلوم لا بد من إرهاصات ودلائل تسبق هذه النشأة، هذه الإرهاصات تتمثل في التفكير والتأمل حين يكون المجتمع متهيئا لظهور هذا العلم ومحتاجا إليه في مجال المعرفة والحياة، وكانت حياة العرب بعد ظهور الإسلام قد جدّت فيها ظروف وأحوال في المجالات المختلفة الفكرية والاجتماعية[4]. فحين هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة دخل النص القرآني في ظروف جديدة، فقد توسع الإسلام وتكاثر المسلمون، ومعلوم أنّ العرب أنفسهم كان بين لهجاتها تباين وخلاف، وكانت هذه اللهجات تتميز بظواهر لغوية في مجال الأصوات والصرف والنحو والدّلالة، وهذه الاختلافات انعكست على قراءة القرآن الكريم، ما أثار الانتباه والتفكير بدليل أنها وصلت إلى النبي ﷺإلا أنه أجازها واستصوبها"ما لم تجعل رحمة عذابا وعذابا رحمة" وقد روي حديث الأحرف السبعة، وهو قوله ﷺ:"أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه".[5] وبعد وفاتهﷺ ازدادت رقعة الإسلام أكثر فتكاثر المسلمون من غير العرب فصار الخلاف في قراءة القرآن مدعاة لزيادة التفكير في الحفاظ على لغة الذكر الحكيم(وقد تكلمنا في المحاضرة السابقة عن مظاهر اللحن التي وقع فيها المسلمون وخاصة الأعاجم منهم، ومن مظاهر اللحن التي تذكرها الروايات نذكر[6]:

- تسكين أواخر الكلمات وترك الإعراب خوفا من اللحن، ومن ذلك ما حكي أن مهدي بن مهلهل كان يقول:"حدّثنا هشامْ بنْ حسانْ".

- الانحراف في نطق بعض الأصوات كنطق الظاء ضادا، وكنطق الصاد سينا، فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر برجلين يرميان فقال أحدهما للآخر:"أسبت"، فقال سيدنا عمر رضي الله عنه:"سوء اللحن أشد من سوء

---

[1]- اللسانيات العربية أسئلة المنهج ، مصطفى غلفان، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط1، 2006م، ص43.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص44.

[3]- ينظر: المرجع نفسه ، ص46-47.

[4]- في التفكير النحوي عند العرب، زهير غازي زاهد، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط1، 1986م، ص11.

[5]- ينظر المرجع نفسه، ص12-13.

[6]- ينظر: البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط6، 1988م، ص86-87.

الرمي"، ومثال ذلك ما روي عن مولى زياد أنّه كان ينطق الحاء هاء، فكان يقول:"أهدى لنا همار وهش" يقصد:"حمار وحش".

- الخطأ في قواعد النحو كما يروى أن مؤذنا كان يقول:"أشهد أن محمدا رسولَ الله" بنصب رسول، فقال له أعرابي: ويحك يفعل ماذا، وما روي أن أبا عمرو بن العلاء مرّ بالبصرة فإذا أعدال مطروحة مكتوب عليها: "لابو فلان: فقال: يا رب يلحنون ويرزقون؟ وما يروى أن رجلا دخلا على زياد فقال له:" إن أبينا هلك وإن أخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا، فقال له زياد: ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضاع من مالك.

- الخطأ في بنية الكلمة، كما يقال إن أول لحن سمع في البادية قولهم:"هذه عصاتي) والأصح أن يقول: عصاي لأنها من عصا وليس من عصاة، وهو أمر دفع إلى التفكير في جمع النص القرآني ثم توحيده، وقد بدأ هذا العمل العظيم في عهد سيدنا أبي بكرﷺ حين دعا زيدا بن ثابت إلى ذلك بمساعدة الصحابة الكرام، وكان من أوائل المشجعين على هذه الخطورة سيدنا عمرﷺ، واستمرت هذه الجهود إلى توحيد القرآن الكريم في عهد سيدنا عثمان ﷺ ثمّ نسخ ووزع على الأمصار كمكة والبصرة والكوفة والشام، وطلب من معلّميه اتخاذ هذه النسخة الموحدة العثمانية أساسا في ذلك[1].

إلى هذه اللحظة-في غالب الظن-(نهاية عصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم جميعا) لم يكن المصحف الكريم معربا ولا منقوطا، فقد كان خاليا من أي نوع من العلامات التي تبيّن حركات أواخر كلمه(حركات الإعراب) أو تميّز بين المتشابه من حروفه في الرسم(حركات الإعجام)، ذلك أن افتقار المصحف الكريم إلى هذه الضوابط كان سببا في وقوع اللحن في تلاوته، فقد ضعفت السليقة واختلطت الألسن والثقافات، فجاءت جهود أبي الأسود الدؤلي(ت69 هـ) في وضع نقط الإعراب، وتلميذه نصر بن عاصم الليثي (ت 89 هـ)حين وضع نقط الإعجام، وقد ظهر هذا الجهد في عهد الإمام علي ﷺ بشكل جلي لأن الخلفاء من قبله كان جهدهم منصبا على توحيد النص القرآني، وهو عمل غير يسير[2]، إن هذه الجهود العظيمة التي قام بها هؤلاء لم تكن كافية لحماية النص القرآني والكلام العربي، فبدأ التفكير بعدها في وضع أبواب النّحو، وهو أمر يسند في بداياته إلى نخبة من اللغويين العرب بما فيهم الإمام علي كرّم الله وجهه، وأبي الأسود الدؤلي ونصر بن عاصم الليثي وعبد الرحمان بن هرمز والخليل بن أحمد الفراهيدي الذي هذب القواعد ووضع الأبواب الأساسية للنحو العربي، وصولا إلى تلميذه الفذ سيبويه الّذي فرّع الأبواب وتوسّع في وضع الشواهد والبراهين...

أ- عوامل نشأة البحث اللغوي عند العرب:

*- العامل الديني:

لم تكن اللغة العربية قبل الإسلام تتبع كيانا سياسيا موحّدا، يدافع عنها ويرتقي بها، ويحافظ عليها، لأنها إذ ذاك كانت لغة قبائل متفرِّقة في جزيرة العرب، لكنها بمجيء الإسلام أصبحت لغة الدولة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة، وأصبح أمر حمايتها والحفاظ عليها واجبا من واجبات تلك الدولة، ولا سيما أن أساس الدولة القرآن الكريم الذي لا يجوز تحريفه أو تغيير سمته لمراعاة أي تطور يطرأ على اللغة العربية لاحقا[3].

إن هذا العامل هو الأساس، بحيث إنه سيأتي أكله فيما بعد عندما تتهيأ الظروف والأسباب للتّعبير العلمي عن ارتباط اللغة العربية بالإسلام، وأهمية وجود الدولة في الحفاظ على اللغة والدفاع عنها[4]، وهو ما حدث بالفعل فيما بعد، عند اتساع رقعة هذه الدولة الفتية، ودخول الأعاجم الإسلام، وبسبب اختلاطهم بالعرب ضعفت السليقة اللغوية العربية، فتسرّب اللحن إذ ذاك إلى العربية وانتشر، والعرب كما قرر ابن جني أشد استنكارا لزيغ الإعراب منهم

---

[1] - ينظر: المرجع السابق، ص13-14.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص15-16.

[3] - التفكير العلمي في النحو العربي(الاستقراء، التحليل، التفسير)، حسن خميس الملخ، دار الشروق، عمان، ط1 2002م، ص61.

[4] - المرجع نفسه، ص61.

لخلاف اللغة، فقد ينطق العربي بالدخيل والمولد، ولكنه لاينطق بخلاف النحو، وهو بمثابة الجرم العظيم الذي لا يغتفر، ولذلك اشتد بلال بن أبي بردة على خالد بن صفوان لما رآه يلحن في حديثه العفوي معه، فقال له أتحدثني أحاديث الخلفاء، وتلحن لحن السقاءات ؟[1].

ولقد كان اللحن في صدر الإسلام قليلا جدا، ثم بدأ يشيع بشكل رهيب حيث إن الحجاج، هذا الخطيب البارع الذي اشتهر بفصاحته وبلاغته، سأل يحي بن يعمر، هل يلحن في بعض نطقه؟، فقال له يحي: بأنه يلحن في حرف من القرآن الكريم، إذ كان يقرأ قوله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُم وَأَبْنَاؤُكُم ﴾[2]

إلى قوله تعالى: ﴿ أَحَبَّ ﴾ بضم أحب، والوجه أن تقرأ بالنصب، لأنها خبر لكان، لا بالرفع [3].

ويذكر هذا الأمر الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" حيث إن اللحن لم يمس العامة فقط، بل إن المثقفين من الأمة وأعيانهم وقعوا فيه، حيث إن أبا حنيفة (ت 150 هـ) لحن هو ومالك بن أنس (ت 179 هـ)رضي الله عنهما، ومنذ القرن الثاني الهجري اتهم الخلفاء باللحن، فهذا يحي بن نوفل الحميري يحقر خالدا بن عبد الله القسري والي العراق(ت 120 هـ) ، بقوله:

وألحن الناس كل الناس قاطبة وكان يولع بالتشديق في الخطب.

يضاف إلى العامل الديني مجموعة من العوامل المحركة لهذا الأمر، منها:

***- العامل الاجتماعي:**

ويتمثل في اختلاط العرب بغيرهم إثر انتشار الإسلام، واستقرار الفتوح، وقد اقتضى ذلك أن يتخذ الناس في مختلف الأقاليم لغة يتخاطبون بها، فهذه القضية حاجة اجتماعية وفكرية وحضارية للأمة[4].

***- العامل القومي:**

ويتمثل في عدم قبول العرب وعدم رضاهم عن الخلط الذي أصاب لغتهم، بسبب انتقال اللغة نفسها إلى مواطن أجنبية بعد الفتوحات، بل إن العرب أنفسهم عندما نزلوا الأمصار الإسلامية أخذت سليقتهم تضعف، لبعدهم عن ينابيع اللغة الفصيحة.[5]

***- العامل السياسي:**

حيث إن ازدهار أي علم لابد أن يواكبه اهتمام سياسي من القادة، وهو أمر معروف فيما تعلق بهذا العلم وجمع تراث اللغة سواء في عهد الخلفاء رضي الله عنهم، أو من تلاهم، ولعل تركيز كثير من المصادر التاريخية على دور أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه دليل وجيه على ذلك، فالحفاظ على القرآن دستور الدولة، والعربية لغتها من أعظم وأهم مهام وأدوار القائمين عليها، ولو كان هذا السبب ليس مباشرا، فإننا دون شك لا يمكن أن نغفل ما يمثله هذا الأمر من دافع قوي ، وما يوفره من ظروف مناسبة للباحثين في هذا المجال.[6]

---

[1] - ينظر: في أصول النحو، سعيد الأفغاني..ص15.

[2] - سورة التوبة، الآية (24).

[3] - ينظر: طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف،القاهرة، ط2، 1984م، ص28، وينظر: المدارس النحوية ، شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة،ط7، 1992م ص11-12.

[4] - ينظر: نظرات في التراث اللغوي العربي، عبد القادر المهيري، ص226.، وينظر كذلك: في التفكير النحوي عند العرب، زهير غازي زاهد، ص37.

[5] - ينظر: في التراث العربي، محمد عبد القادر أحمد، ص55.

[6] - ينظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري، تحقيق، د: عطية عامر، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، ط2، 1998م، ص4-8.، وينظر كذلك: المدارس النحوية، خديجة الحديثي، ص50-51.

***- السبب التعليمي:**

حيث بدأ النحو لغرض ديني وسياسي واجتماعي وتعليمي، فكان بسيطا في أوله يتخذ منحى عمليا في الحفاظ على اللغة وتعليمها، ولكنه انتقل بعد ذلك إلى نشاط خاص مال أصحابه لإعمال الذهن، وحتى الفلسفة فيما بعد ، وربما لم يكونوا قصدوا ذلك قصدا[1].

ب- الأطوار والمراحل التي مر بها البحث اللغوي العربي:

تكلم علي الطنطاوي في كتابه "نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة"، عن أطوار أربعة مر بها النحو العربي، وهي طور الوضع والتكوين (بصري خالص)، طور النشوء والنمو (بصري كوفي)، وطور النضج والكمال (بصري كوفي كذلك) ،وطور الترجيح والبسط في التصنيف (بغدادي وأندلسي ومصري وشامي)، وأضاف علي أبو المكارم طورين جديدين، هما: طور التجمد أو الجمود، وطور التحرك[2].علما أنه لا يمكن الحديث عن تاريخ محدد يقف عنده طور ويبدأ ثان، وإنما هذه الأطوار متداخلة فيما بينها[3]، ولعلنا عند الحديث عن نشأة البحث اللغوي عند العرب سنركّز عن الطورين الأول والثاني:

***- طور الوضع والتكوين:**

يمتد هذا الطور من عهد أبي الأسود الدؤلي إلى أول عصر الخليل بن أحمد الفراهيدي [4].

وهذا الطور تميّز باستئثار البصرة، حيث كان لها الشرف في احتضان أول ثمار رجالها في مجال الدراسة اللغوية، وقد استغرق هذا الطور نحوا من قرن ونصف قرن، ولعل أهمية هذه الفترة تعود إلى أنها شهدت بدء محاولات استكشاف الظواهر اللغوية عقب نقط أبي الأسود للمصحف، حتى لا يخطئ فيه قارئ، كما تم فيها المحاولات الأولى لصياغة ما استكشف من الظواهر في القواعد، ثم تصوير هذه القواعد في شكل بعض المصنفات الصغيرة التي أتاحت الفرصة لمناقشة الظواهر والقواعد معا[5]، وقد فتح هذا الأمر لآخر أجيال هذه الفترة الباب لوضع الأسس المنهجية التي كان لها تأثير فيما بعد وتتلخص هذه الأسس في أمور ثلاثة هي:[6]

1- الخلط بين المستويات اللغوية، وقياس القواعد إلى ما يسمع من كلام العرب، لا إلى ما يطرد .

2- استخدام التأويل لتصحيح ما يخالف قياس النحو من نصوص.

3- افتراض واقع لغوي لا يعتمد على ما في اللغة من ظواهر، إنما يستند بصورة مباشرة إلى القواعد اللغوية المرنة المستنبطة من المستويات اللغوية المختلطة.

وقد اشتغل في هذا الطور طبقتان من البصريين بعد أبي الأسود الدؤلي، حتى تأصّلت أصول منه كثيرة وعرفت بعض أبوابه.[7]

***- <u>الطبقة الأولى</u>:**

أخذت عن أبي الأسود، واستمرت في تثمير ما تلقته عنه ووقفت إلى استنباط الكثير من أحكامه، وقامت بقسط كبير في نشره وإذاعته بين الناس وكان من أنداد هذه الطبقة عنبسة بن معدان الفيل[8]، ونصر بن عاصم الليثي وعبد الرحمان بن هرمز، ويحي بن يعمر العدواني [9]، ولم يدرك أحد من رجال هذه الطبقة الدولة العباسية

---

[1] - ينظر: الفكر النحوي عند العرب، أصوله ومناهجه، د: علي مزهر الياسري، مجمع البتراء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2011م، ص423.

[2] - ينظر: المدخل إلى دراسة النحو العربي ، علي أبو المكارم ، دار غريب، القاهرة، ط1، 2006م ، ص99-100.

[3] - ينظر:نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص36.

[4] - ينظر:المرجع نفسه، ص37.

[5] - المدخل إلى دراسة النحو العربي، ص93، وينظر: الفكر النحوي عند العرب، أصوله ومناهجه، علي مزهر الياسري، ص372.

[6] - المرجع السابق، ص93.

[7] - ينظر:نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص37.

[8] - للاطلاع على ترجمة، ينظر: أخبار النحويين البصريين للسيرافي، ص74.

[9] - للاطلاع على ترجمة ينظر: أخبار النحويين البصريين للسيرافي، ص73.

ويغلب على الظن، أن ما تكوّن من نحو هذه الطبقة فضلا عن قلّته كان الرّواية للمسموع، فلم تنبت بينهم فكرة القياس ولم تقو حركة التصنيف بينهم، إذ كان جل اعتمادهم على حفظهم في صدورهم، ورواياتهم بلسانهم، وهذا هو الراجح.[1]

***-الطبقة الثانية:**

أضافت كثيرا من القواعد، ونشأت حركة النقاش بينها، فجدت هذه الطبقة في تتبع النصوص، واستخراج الضوابط منها، واستطاعت أن تصنف في النحو كتبا مفيدة، وكان من هؤلاء عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي(ت117ه)[2]، الذي خطأ الفرزدق كثيرا حتى هجاه [3]، وقد روي أن ابن أبي إسحاق، سأل الفرزدق، لما سمعه يقول:

وعضُّ زمانٍ يا ابنَ مروانَ لم يدعْ من المال إلا مُسْحَتًا أو مُجَلَّفُ

على أي شيء ترفع أو مجلف ؟، فرد أبو عمرو بن العلاء: إنه على إضمار فعل، كأنه قال: لم يبق سواه.[4]

ومن نحاة هذه الطبقة كذلك، عيسى بن عمر الثقفي[5]، صاحب الكتابين في النحو الجامع والإكمال، وقد نوه الخليل بفضلهما بقوله:

ذَهَبَ النَّحوُ جَمِيعا كلُّهُ غَيرَ ما أحدثَ عيسى بن عُمَرْ

ذاكَ إكمال، وَهذَا جَامِع فَهمَا للنّاس شَمس وقمـــرْ[6]

ولم ينقض هذا الطور، حتى وضعت طائفة كثيرة من الأصول فاختصرت فكرة التعليل عند ابن أبي إسحاق كما أنه أول من نشط القياس وأعمل فكرة فيه، ووافقه عيسى بن عمر[7]، وخالفهما بعض من عاصرهما فأفسح ميدان القول في هذا العلم، فقد كان مزيجا من النحو والصرف واللغة والأدب، وما إلى ذلك من علوم العربية .[8]

***- طور النشوء والنمو(بصري كوفي):**

هذا الطور يمتد من عهد الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري (100-170ه)[9] وأبي جعفر محمد بن الحسن الرؤاسي[10]، إلى أول عصر المازني البصري[11]، وابن السكيت الكوفي، ففي هذا الطور اشتراك بين المدرستين في النهوض بهذا الفن والمنافسة فيه، فقد تلاقت فيه الطبقة الثالثة البصرية برئاسة الخليل بن أحمد الفراهيدي، والأولى الكوفية بزعامة الرؤاسي، فكان هذا الطور بحق طور النشوء والنمو، حيث انفصل النحو والصرف عن اللغة والأدب والأخبار والشعر[12]، نشط نحاة هذا الطور نشاطا كبيرا في التقصي واستقراء كلام العرب، وفي إعمال الفكر واستخراج

---

[1]- ينظر: نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص38.

[2]- للاطلاع على ترجمة، ينظر: المرجع السابق، ص75-76، وأيضا: طبقات النحويين واللغويين، ص31-33، وأيضا: المدارس النحوية، ص23-25.

[3]- ينظر: المرجع نفسه، ص38-39.

[4]- ينظر: نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ، ص 73، وأيضا، ينظر: مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، ص110.

[5]- للاطلاع على ترجمة، ينظر، المرجع نفسه، ص75-76.

[6]- المرجع نفسه، ص39.

[7]- للاطلاع على ترجمة، ينظر: أخبار النحويين البصريين، ص81-82، وأيضا: طبقات النحويين واللغويين ص40-45.

[8] ينظر: نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص39.

[9]- هو:الخليل بن أحمد أبو عبد الرحمان الفراهيدي الأزدي من أشهر النحاة الأوائل على الإطلاق، وهو أستاذ سيبويه؛ وكل ما قاله سيبويه في كتابه ، (وسألته)، (قال)، من غير أن يذكر قائله، فهو يقصد الخليل، وللاطلاع أكثر على ترجمته، ينظر:أخبار النحويين البصريين، ص86-87، وأيضا: طبقات النحويين واللغويين،ص47-51، وأيضا، ينظر: المدارس النحوية، ص30-56.

[10]- للاطلاع على ترجمة، ينظر: طبقات النحويين واللغويين، ص125، وأيضا: نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ص115.

[11]- للاطلاع على ترجمة، ينظر:أخبار النحويين البصريين، ص113-121، وأيضا: طبقات النحويين واللغويين ص87-93.، وأيضا: المدارس النحوية، ص115-122.

[12]- ينظر:نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص40-41.

القواعد، وكان مبعث ذلك النشاط، هو التنافس بين البصرة والكوفة، فجمع الخليل الأصول، وساق الشواهد، وعلّل الأحكام، وبلغ في ذلك غاية محمودة.[1]

وحمل الراية من البصريين مع الخليل يونس بن حبيب(ت182هـ) فكانت له حلقات دراسة يؤمها فصحاء العرب، وأهل العلم، وكان له في النحو أقيسة ومذاهب تفرد بها، وعاصرهما الرؤاسي شيخ الطبقة الأولى من الكوفة الذي تلقى عن الطبقة الثانية البصرية، وألّف الرؤاسي الفيصل[2]، حيث روى ابن النديم، قال الرؤاسي:«بعث الخليل إلي يطب كتابي، فبعثت به إليه، فقرأه وكل ما في كتاب سيبويه، وقال الكوفي كذا، فإنما يعني الرؤاسي»[3].

تكوّن على يد الإمامين الخليل، ومن معه من البصريين والرؤاسي ومن معه من الكوفيين مدرسة خاصة، فتتابعت الطبقات المتعاصرة من كلا البلدين، فسطع في سماء البصرة نجوم متألقة، تألق منها عقد الطبقة الرابعة بزعامة سيبويه(ت 188هـ)[4]، الذي وهب ملكة التصنيف والتنسيق، فأبدع كتابا ليس كغيره من الكتب، أطلق عليه لقب قرآن النحو، وأعنى بذلك الكتاب، فلم يدع للمتأخرين استدراكا عليه، وعاصرته الطبقة الثانية الكوفية بقيادة الكسائي(ت189هـ)[5]، فتكون للكوفيين جبهة قوية ثبتت أمام الجبهة البصرية، ووقفت معها الند للند، فهو المؤسس الحقيقي للمذهب الكوفي أو المدرسة الكوفية .

واشتد الصراع بين المدرستين وأصبح ظاهرا.[6]

ثم جاء الأخفش(ت215هـ)[7]، شيخ الطبقة الخامسة البصرية، وعاصره الفراء(ت207هـ)[8]، أستاذ الطّبقة الثالثة الكوفية الذي غمره المأمون بالعطايا وحفزّه على نشر العلم، وقد امتد لهيب الصراع بين المدرستين إلى نهاية الطور الثالث .

وعلى العموم فقد قطع النحو شوطا كبيرا شارف فيه على النهاية في هذا الطور، وكثرت فيه المؤلّفات التي أزيل منها ما ليس من فن النحو.

ولقد بهر العلماء كتاب سيبويه، فلم يروا إلا الطّواف حوله، تعليقا وشرحا واختصارا، وانتقادا، واستدراكا، ولعله بسبب تعلق العلماء به، جعلهم يمزجون بين فني النّحو، والصرف، واستمر ذلك طويلا، حتى عهد ابن مالك، ومن بعده .[9]

أما الكوفيون فقد ألّفوا أبوبا خاصّة بالصرف، اعتناء بشأنها، لكن جهدهم هذا لم يجعل الصرف منفردا عن النحو في التأليف، فصنّف الرؤاسي كتاب "التّصغير"، والكسائي كتاب "المصادر"، والفراء كتاب "فعل وأفعل" على أن الصرف بدأ يستقل فعليا على النحو، في مستهل الطور الثالث الذي سيأتي الحديث عنه[10].

2-مصادر الاحتجاج:

من المنطقي أن يكون البحث اللغوي عند العرب بدأ في شكل جمع المادة اللغويّة(اللغة والأدب والأخبار)، أو ما يعرف بمتن اللغة، وأن يسبق ذلك الدرس النحوي ووضع قواعد اللغة العربية، وقد تمّ هذا الجمع أولا بطرق المشافهة

---

[1]- ينظر: المرجع السابق، ص42.

[2]- ينظر: المرجع نفسه ، ص43.

[3]- المرجع نفسه، ص43

[4]- هو: سيبويه ، واسمه عمرو بن علة بن جلد بن مالك بن أدد، وسيبويه بالفارسية تعني رائحة التفاح، وهو تلميذ سيبويه، وصاحب أشهر كتاب في النحو (الكتاب)، ويطلق عليه قرآن النحو تعظيما لشأنه، وللاطلاع على ترجمته أكثر ينظر: أخبار النحويين البصريين، السيرافي، ص92-94.، وأيضا: طبقات النحويين واللغويين، ص66-72. وأيضا، ينظر: المدارس النحوية، ص57- 93 .

[5]- هو: هو علي بن حمزة من أصل فارسي ولد بالكوفة سن119 للهجرة من أشهر نحاة الكوفة، للاطلاع على ترجمته أكثر، ينظر: المدارس النحوية، ص172- 191.

[6]- ينظر: نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص43-44.

[7]- للاطلاع على ترجمة، ينظر:أخبار النحويين البصريين، ص94، وأيضا، ينظر: طبقات النحويين واللغويين، ص72-74.

[8]- للاطلاع على ترجمة، ينظر طبقات النحويين واللغويين، ص131-133، وأيضا، ينظر: ينظر: المدارس النحوية، ص192-223.

[9]- ينظر:نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص45.

[10]- ينظر: المرجع نفسه، ص46.

والحفظ دون منهج معين في ترتيب المادة المجموعة أو تبويبها، أو على حدّ تعبير أحمد أمين:" كان المدونون الأولون للغة في هذا العصر يدونون المفردات حيثما اتفق، وكما يتيسر لهم سماعها، فقد يسمعون كلمة في الفرس، وأخرى في الغيث، وثالثة في الرجل القصير، وهكذا فكانوا يقيدون ما سمعوا من غير ترتيب"[1]. غير أنه يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل:

- **المرحلة الأولى:** كان العلماء يدونون كل ما يسمعونه من الأعراب من غير ترتيب، أو تصنيف، إلا ترتيب السماع.

- **المرحلة الثانية:** تتمثل في ضم المتشابهات والنظائر اللغوية، والتأليف بينها في رسالة واحدة، كما فعل أبو زيد الأنصاري حين ألف كتاب المطر، وما يلحق به من الأنواء والغيوم، والرعد، والبرق، وكتاب اللبأ واللبن، وكما فعل الأصمعي حين جمع وألف كتاب الدارات والنبات والشجر والنخل والكرم، وأغلب ما ألف كان على هذا النحو.

- **المرحلة الثالثة:** تتمثل في وضع المعجم الذي يشتمل الكلمات ومعانيها واشتقاقاتها، ليرجع إليه من أراد البحث عن معاني الكلمات[2].

فبعد عملية الجمع بدأت مرحلة التبويب والتصنيف والتقسيم ورد النظير إلى النظير، كل بطريقته التي رآها، فمنهم من صنفها حسب الموضوعات"الحقول الدلالية مثلا" ومنهم من قام بشرح المفردات الصعبة في الشعر الجاهلي والإسلامي، ومنهم من اهتم بتسجيل بعض الظواهر الخاصة التي لاحظها في بعض القبائل العربية...إلخ، وتوجت هذه الجهود الأولى بظهور معجم العين للخيل بن أحمد الفراهيدي وهو أول المعاجم التي جمعت الكلام العربي المهمل منه والمستعمل، أما المصادر التي اعتمدها اللغويون العرب في ذلك فهي.

أ- القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو النص الصحيح المجمع على الاحتجاج به في اللغة والنحو والصرف، وعلوم البلاغة ، وقراءاته جميعا الواصلة إلينا بالسند الصحيح حجة لا تضاهيها حجة ، أما طرقه المختلفة في الآداء فهي كذلك، إذ أنها مروية عن الصحابة وقراء التابعين رضوان الله عنهم أجمعين ، وهم جميعا ممن يحتج بكلامهم العادي عدا قراءاتهم التي تحروا ضبطها جهد طاقتهم كما سمعونها من الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أن أئمة القراء، كأبي عمرو بن العلاء ، والكسائي ويعقوب الحضرمي هم أئمة في اللغة والنحو أيضا[3] ، وقد جرى عرف العلماء على الاحتجاج برواياته سواء أكانت متواترة أم رواية آحاد، أم شاذة، والقراءة الشاذة التي منع القراء قراءتها في التلاوة يحتج بها في اللغة والنحو[4]، إذ هي على كل حال أقوى سندا وأصح نقلا من كل ما يحتج به العلماء من كلام العرب غير القرآن، والملاحظة التي يجب ذكرها هنا أن النحاة عند جمع اللغة والتدوين اضطربوا من الناحية المنهجية [5]، وقد ذكرنا هذا عند حديثنا عن مراحل التدوين والجمع.

أما القراء فقد سلكوا مسلكا علميا صارما ومنهجية دقيقة، حيث إن أقل ما يشترط القراء لصحة القراءة شروطا ثلاثة:

*-صحة السند بها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

*- موافقتها رسم المصحف المجمع عليه.

*- موافقتها وجه من الوجوه العربية[6].

---

[1] - البحث اللغوي عند العرب، ص81.

[2] - ينظر: في التراث العربي، محمد عبد القادر أحمد، ص53.

[3] - في أصول النحو سعيد الأفغاني، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعي، مصر،دط،1994م، ص27-28.

[4] - ينظر: مدخل إلى أصول النحو محمد خان، ص15.

[5] - في أصول النحو، سعيد الأفغاني، ص29.

[6] - ينظر: المرجع نفسه، ص29-30، ولمزيد من الاطلاع ينظر: في التفكير النحوي عند العرب، زهير غازي زاهد، ص26، وكذلك:في أدلة النحو، عفاف حسنين، المكتبة الأكادمية، القاهرة، طبعة جديدة،1996م، ص30-72.

ب-الحديث النبوي الشريف:

لقد كان أولى أن يكون الحديث الشريف بعد القرآن مباشرة في الاحتجاج، وأن يتقدم سائر كلام العرب نثرا وشعرا، إذ لا تعهد العربية في تاريخها بعد القرآن الكريم بيانا أبلغ من الكلام النبوي ولا أروع تأثيرا، ولا أفعل في النفس ولا أصح لفظا ولا أقوم معنى، ولكن ذلك لم يقع كما ينبغي لانصراف اللغويين والنحويين المتقدمين إلى الشعر، فلم يبق فيهم لرواية الحديث ودرايته بقية، فتعللوا لعدم احتجاجهم بالحديث بعلل مختلفة، ومع إجماع اللغويين والنحاة عامة على أن النبي صلى الله عليه وسلم أفصح العرب قاطبة، فإنهم انقسموا فيما يروى من الأحاديث فريقين، فريق غلب على ظنه أنها لفظه عليه الصلاة والسلام، فأجاز الاحتجاج بها، وفريق قال بأنها رويت بالمعنى لا باللفظ، فلم يحتج به[1]، وقد أوضح السيوطي جوانب هذه المشكلة بقوله:« إن غالب الأحاديث مروي بالمعنى وقد تداولتها الأعاجم والمولدون قبل تدوينها فرووها بما أدت إليه عبراتهم، فزادوا ونقصوا، وقدموا وأخروا، وأبدلوا ألفاظا بألفاظ، ولهذا ترى الحديث الواحد في القصة الواحدة مرويا على أوجه شتى بعبارات مختلفة[2] »

والحقيقة أن ما ذهب إليه القدماء من حذر في قبول الحديث في اللغة، أو الامتناع عن الاستشهاد به قد زال سببه، لأن العلماء المحدثين قد صححوا كثيرا من الأحاديث، وهي معروفة المصادر.[3]

ج- كلام العرب(من شعر ونثر):

أما العرب المحتج بهم فقد ذكرناهم سابقا، والتفصيل، وحسب نظرة البصريين والكوفيين وما يشوبها من اختلاف، وإن الباحث في معاجم اللغة وكتب النحو يراها أوفر حظا في الاستشهاد بالشعر والنثر على السواء في إثبات معنى أو استعمال كلمة، ويجد النحاة يكادون يقتصرون على الشعر، وزادت عنايتهم بالشواهد الشعرية مع الزمن، مع أن الشواهد النثرية كانت نادرة أصلا[4].

أما حد الزمان: حددوا الفترة الزمانية التي يحتج بها وبلغتها ثلاثة قرون من 150 قبل الإسلام، و150بعده، وقد قال الأصمعي في هذا الشأن : ختم الشعر بإبراهيم بن هرمة(ت176ه)، وهو معاصر لسيبويه، وربما كان انقضى أجل سيبويه، وهو الذي جعل الشاهد الشعري يقف عند هذا الشاعر، فما يعتبر حجة في اللغة يتوقف على نصوص الأدب الجاهلي أو المخضرم، أو الإسلامي، أو الأموي، ويخرج بذلك من دائرة الاستشهاد ما كان عباسيا، وما كان مولدا، وما جاء بعد هذه العصور، فلا احتجاج بشعر المتنبي، ولا لابن الرومي، ولا للمعري ![5]

وقد قسم الشعراء الذين يستشهد بشعرهم إلى طبقات أربع:

- الطبقة الأولى: الشعراء الجاهليون، وهم قبل الإسلام كامرئ القيس والأعشى.
- الطبقة الثانية: المخضرمون، وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، كلبيد بن ربيعة العامري، وحسان بن ثابث.
- الطبقة الثالثة: المتقدمون، ويقال لهم الإسلاميون وهم الذين كانوا في صدر الإسلام، كجرير والفرزدق.
- الطبقة الرابعة: المولدون ويقال لهم المحدثون، وهم من بعدهم، كبشار بن برد، وأبي نواس[6].

وقد أجمعوا على صحة الاستشهاد بالطبقتين الأولى والثانية، وقد اختلفوا في الاستشهاد بالثالثة، أما الرابعة فقد أجمعوا تقريبا على عدم الاستشهاد بشعرها، وإن اختار الزمخشري الاستشهاد بمن يوثق به منهم[7].

---

[1] - في أصول النحو، سعيد الأفغاني، ص46-47، وللتوسع في الموضوع، ينظر: الاستدلال بالحديث النبوية الشريفة على إثبات القواعد النحوية، مكاتبة بينبدر الدين الدماميني، وسراج الدين البلقيني، دراسة وتحقيق، د: رياض بن حسن الخوام، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1998م، ص5-23.

[2] - الاقتراح، السيوطي، ص16

[3] - مدخل إلى أصول النحو، محمد خان ، ص20، وللتوسع في الموضوع، ينظر: في أدلة النحو، عفاف حسانين، ص72-85.

[4] - ينظر : في أصول النحو، سعيد الأفغاني، ص59-60.

[5] - ينظر: مدخل إلى أصول النحو، محمد خان، ص8.

[6] - مكانة الخليل بن أحمد الفراهيدي في النحو العربي، جعفر نايف عبابنة، ص53.

[7] - ينظر: المرجع نفسه، ص54.

والحقيقة إن لغة الشعر لا تصلح دائما لتقعيد القواعد، لأنها محل الضرورات والضرورات عند النحاة تختلف عن اللحن والخطأ، ذلك أن مستعملها يحاول وجها من وجوه القياس، أو يراجع أصلا متروكا من أصول اللغة.[1]لذلك ترى سيبويه يعلق على بيت الفرزدق الذي قال فيه:

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد االله مولى مواليا

يقول سيبويه: «فلما اضطروا إلى ذلك في موضع لا بد لهم فيه من الحركة أخرجوه على الأصل[2]».

3-الخليل بن أحمد الفراهيدي إمام علوم اللغة العربية ومؤسسها:

يعدّ الخليل بن أحمد الفراهيدي إمام علم النحو وعلوم اللغة العربية كلّها، وهو مخترع علم العروض وواضع أسس المعجم اللغوي عن طريق عملية حسابية عجيبة تلفت الأنظار وتذهل العقول، وكان من نتائج فكره أن أملى علم النحو على تلميذه سيبويه الذي دونه في كتابه المشهور بقرآن النحو. ولم يجمع مؤرخو العربية على التنويه بأحد مثل إجماعهم على التنويه بالخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي، فقد قال عنه أبو الطيب اللغوي:"إنه لم يكن قبله، ولا بعده مثله، ولم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى منه، فكان أعلم الناس وأفضل الناس وأتقى الناس، فكان مفتاح العلوم ومصرّفها"، وقال عنه سفيان الثوري:" من أراد أن ينظر إلى رجل خلقه الله من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل"[3]. وما يثبت هذا كلّه أنّه أجرى عددًا من العمليات الرّياضيّة، ورسم رسومًا كالدّوائر واستعمل عددًا من الرّموز، كالفاء والعين واللام في تمثيل الحروف الأصليّة(فعل)، وبعض المصطلحات،كالجداء ووجوه التّصرّف، والجدير بالذّكر أنّ تفكيره كان أصيلاً يعبّر عن أفكاره هو، لأنّه لا يمكن أن يجري هذه العمليات ولا أن يرسم هذه الدّوائر بهذا الشّكل، وبهذا التّعليق إلاّ من قد وضع الأصول الّتي يؤسّس عليها كلّ هذا[4].

لقد استطاع الخليل بذكائه العجيب أن يستنبط مقاييس التركيب العام للكلام العملي، وأن يفحص مادّته الّتي صيغ منها وهي الحروف(الأصوات)، ولبناته التي شيد منها وهي الكلمات، ونسقه المميز وهو التركيب الإعرابي، وفيما يلي نماذج مقتضبة من أعماله على مستوى الأصوات والمقاطع والكلمات والجمل والمعجم.

أ-مستوى الأصوات:

إن الملاحظ لمعجم العين يرى الطريقة العجيبة في تكوينة وترتيبه، حيث كان ذلك اعتمادا على الأصوات الأبجدية العربية يرى الحاج صالح أنّ ما اكتشفة الخليل في الجانب الصّوتي أي ميدان حدوث الأصوات دقيق جدًّا، وهو موجود في باب الإدغام في كتاب سيبويه، وبعضها مفرّقة على بقيّة الأبواب، كالإمالة والوقف وغير ذلك، وامتاز العرب في المجال الصّوتي بخصائص لم يذكرها الهنود كمفهوم الحركة والسكون، ومفهوم الفضيلة(أو فضل الحرف)، وهي مما لا يوجد مثلها حتى في الصّوتيات الحديثة، كما وصفوا جهاز أو آلة الصّوت وصفًا دقيقًا وعجيبًا.

وقد أحصى سيبويه تسعة وعشرين (29)صوتًا(حرفًا) تامًّا في نظام اللّغة العربيّة وثلاثة أخرى ناقصة، وكانوا يعنون بالأولى الحروف الصّوامت وحروف المد الثّلاثة، وبالثانية حركات الأصوات الثّلاثة، كما أحصوا الحروف الفرعيّة، وهي تنوّعات منها اللّهجيّة وغير اللّهجيّة كالهمزة المسهّلة والنّون المخفاة، وأنواع الممال والمفخّم، وأحصوا منها ستّة أصوات كثيرة الدّوران، كالّتي ذكرناها يضاف إليها الشّين الّتي كالجّيم والصّاد الّتي كالزّاي، وقال عنها سيبويه، وهي كثيرة يؤخذ بها، وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار، وهكذا هي الحروف الأصول التّسعة والعشرون، لكنّها مطّردة في الاستعمال وهذه أقلّ منها، وأحصوا سبعة أحرف لا تدخل في نظام العربيّة، لأنّها كما قال سيبويه:«غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيته»[5].

---

[1] - مدخل إلى أصول النحو، محمد خان، ص25.

[2] - الكتاب ، سيبويه، ج3، ص314.

[3] - تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، 79-80.

[4] - ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج2 ، ص68 .

[5] - ينظر: منطق العرب في علوم اللسان، ص214.

ب- مستوى المقاطع:

أثناء وضع علم العروض لاحظ الخليل أنه إلى جانب الأصوات التي تؤلف الكلمة، رأى أن هناك وحدات أخرى أكبر وهي المقاطع، وعبر عنها بالأسباب والأوتاد في علم العروض، منها ما هو ذو مغزى إيقاعي فقط، إذا كان المقطع جزءا لا يتجزّأ من الكلمة المجرّدة، ومنها ما يدلّ على معنى زائد في الكلمة سواء كان هذا المقطع لفظا مستقلا كحروف المعاني أو كان من زوائد الكلمة التي تغير معناها في صيغتها الأصلية ، مثل في من فيهم، وحرفي السين والتاء من استحسن كما لاحظ أن المقاطع قد تجتمع لتؤلف الكلمة، فقال: إنّ "لن" أصلها" لا أن"، وإن"مهما" مؤلفة من "ما ما" أبدلت ألف ما الأولى هاء تسهيلا للنطق، وأن أكثر هذه التغييرات تقع نتيجة كثرة الاستعمال[1].

ج- مستوى الكلمة:

لقد جمع الخليل كلم العربية بطريقة رياضية في معجم العين وفرق بين أصول الكلمة وزوائدها وبين أثر هذه الزوائد على قواعد الصرف ومنعه وعلى صيغ التثنية وجمع التكسير وعلى أمثلة التصغير، كما وطد الخليل قاعدة وضع الأوزان من حروف لفظة"فعل" لمقابلة أصول الكلمة، مع إيراد حروف الزوائد بلفظها، وهو أمر يوحي بمنهج الخليل في التجريد والتعميم في استعمال هذه الحروف كآلات قياسية، تميز الأصول من الزوائد، مثلما استعملها في الأوزان العروضية.

كما استنبط الخليل انطلاقا من هذه المفاهيم إعلال الكلمات وإبدال بعض حروفها ببعض، وجعل للإعلال والإبدال قواعد تحكمه، وكذلك الإدغام، التغييرات التي تجري على الكلمة بسبب اللواحق، وصلاتها بحروف الإعراب وعوامل البناء....[2]

د- مستوى التركيب:

لاحظ الخليل أن الكلام العربي يسير وفق نسق محكم بقواعد مضبوطة، فعمل على إظهار تلك القواعد باستقراء ما سمع من كلام العرب الفصيح، وعلى توضيح العلل وإبراز العوامل المتحكمة في التركيب العربي، وقد سبق غيره بفكرة القياس التعليلي. نظر الخليل إلى اللغة نظرة شاملة وافترض أن قواعدها معللة بأسباب معقولة[3]، ومن هذه القواعد الأصلية أن الإعراب مقيس في الأسماء، وأن البناء مقيس في الأفعال، وهي قاعدة ثابتة لا تتغير إلا لعلة عارضة مثل شبه الاسم بالحرف وشبه الفعل بالاسم، ومنها أن التعريف لا يحتاج إلى أداتين فلا نقول:" يا الغلام"، فالنداء وحده في معنى التعريف، ومنها أيضا عدم جواز أن تندب من لا تعرف، فامتنع أن يندب المنكور لأنه مبهم، ومن القواعد القياسية أيضا امتناع العطف على جزء من الكلمة، مما يجر إلى منع العطف على ضمير الرفع المتصل، فلا يجوز قول:"فعلت وعبد الله" لالتصاق الضمير بالفعل وإحداثه تغييرا في بنية الكلمة بإسكان اللام فيها، فصارت مع الضمير كلمة واحدة...كما بين الخليل أن الإعراب ليس وضعا اعتباطيا يقع دون سبب، لذلك أكد أن نسق الكلام لا يتغير إلا بسبب تأثير عامل خاصّة[4](سيأتي الحديث عن العامل).

هـ – مستوى المعجم:

لقد ابتكر الخليل نوعًا من الحساب يمكن به إحصاء كلّ التّراكيب الّتي تحتملها المجموعة من حرفين أو ثلاثة أحرف إلى خمسة أحرف، حيث يقول:«اعلم أنّ الكلمة الثّنائية تتصرّف على وجهين، نحو:قد، دق، شد، دش والكلمة الثّلاثية تتصرّف على ستة أوجه، وتسمّى مسدوسة، وهي نحو:ضرب، ضبر،برض، بضر، رضب، ربض والكلمة الرّباعيّة تتصرّف على أربعة وعشرين وجهًا، وذلك أنّ أحرفها وهي أربعة أحرف تضرب في وجوه الثّلاثي الصّحيح وهي ستّة أوجه،

---

[1] - ينظر: تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، ص82.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص83.

[3] - ينظر المرجع نفسه، ص83-84.

[4] - ينظر: المرجع نفسه، ص84*85.

فتصير أربعة وعشرين وجهًا يكتب مستعملها، ويلغي مهملها...والكلمة الخماسية تتصرّف على مئة وعشرين وجهًا، وذلك أنّ حروفها وهي خمسة أحرف تضرب في وجوه الرّباعي، وهي 24 وجهًا فتصير120وجهًا يستعمل أقلّه ويلغى أكثره»[1]، إنّ هذا التّفكير رياضي لا لبس فيه، ما يعنى أنّ صاحبه عبقريّ بالفعل كما ينعته أستاذنا الحاج صالح رحمه الله، وفي نفس النّسق يندرج ابتكاره علم العروض وحركات الإعراب، وقد ظهرت تلك الآراء الدّقيقة في الكتاب كما هو معروف.

وهذا ينطبق تمامًا مع الصيغة الّتي يتّخذها الرياضيّون المحدثون:

$2=2\times1=!2$

$6=3\times2=3\times!2=3\times2\times1=!3$

$24=4\times6=4\times!3=4\times3\times2\times1=!4$

$120=5\times24=5\times!4=5\times4\times3\times2\times1=!5$

أمّا الدّائرة الّتي رسمها الخليل لتمثيل قسمة التّراكيب للحروف، فهي ذات اتّجاهين متقابلين ووضع عليها ثلاثة أحرف متباعدة، فالإنطلاق من كلّ حرف باتّجاه معيّن يسمّى موضع الإنطلاق في العروض(مفكًّا)، فالضّاد تعد مفكًّا لضرب وتصير الرّاء مفكًّا لربض، وهكذا دواليك، ثمّ تقلب العمليّة في كلّ مرّة حتّى يتمّ ذكر كل الاحتمالات:

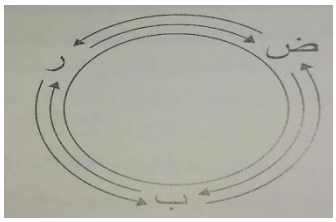

اعتمادًا على قلب الاتّجاه في كلّ عمليّة تركيبيّة هنا لها نظيرها (بقلب الاتّجاه)، وبالتّركيب التّسلسلي، وفيه صفة التّجميع(associative) وإمكانية عدم التّركيب تكون مجموعة التّراكيب الّتي يسميها الرّياضيون المحدثون (زمرةGroup)[2].

4- ظاهرة كتاب سيبويه:

قلنا بأن الخليل بن أحمد الفراهيدي هو العبقري الفذ الذي استكمل تنظير علوم اللغة العربية وإرساء قواعدها، لكن هذه الجهود يرجع الفضل في جمعها وترتيبها وتبويبها في مدوّنة تعارف أهل هذا الفن على تسميتها ب:"الكتاب" لسيبويه تلميذ الخليل المجتهد، الذي يعدونه المعجزة التي ليس لأحد أن يأتي بمثلها، وليس من شك أن الكتاب يعد ثورة علمية فريدة جمع فيه صاحبه حصيلة قرن من ثمرات تفكير العلماء الذين سبقوه من أبي الأسود إلى الخليل.

اعتمد سيبويه في كتابه أساسا على ما أخذه من علم الخليل، حتى قيل عنه أنّه جمع ألف ورقة من علم الخليل فتارة يذكره باسمه:" وزعم الخليل"، وتارة يقول:"وسألته"، فالأستاذ حاضر في ذهن التلميذ، كما أنه روى عن يونس بن حبيب الضبي نحوا من مائتي مسألة، وعن أبي عمرو بن العلاء زهاء الأربعين، وعن عيسى بن عمر قرابة العشرين ونصفها عن ابن أبي إسحاق الحضرمي، وروايته عن هؤلاء الثلاثة أكثرها عن طريق يونس بن حبيب.[3]

لقد شغل الكتاب اللغويين والدارسين منذ ذلك الوقت، فقيل أن الجرمي ظل ثلاثين سنة يفتي في الفقه من كتاب سيبويه، وقيل لمن يريد تدارسه:"هل ركبت البحر" فهو ليس يسيرا على كل قارئ، كما اعتمد عليه مناهضوه من

---

[1] - المرجع السابق، ص68-69.

[2] - ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج2، ص70.

[3] - ينظر: تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، ص89.

نحاة الكوفة، فقيل أن الفرّاء مات وكتاب سيبويه تحت وسادته، وقال عنه المازني :" من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد سيبويه فليستح"، وكان أبو الطيب اللغوي يسميه"قرآن النحو"، ومن أبلغ ما قيل فيه وفي مؤلفه، قول الزمخشري: ألا صلى الإله صلاة صدق على عمرو بن عثمان بن قنبر

فإن كتابه لم يغن عنه بنو قلم ولا أنداء منبر

إن هذه العناية التي أولاها الدارسون للكتاب يعود للأسباب التالية[1]:

أولا:- وضعه التاريخي إذ أنه أول ما وصل إلينا من المؤلفات النحوية.

ثانيا:- شموليته للمعارف النحوية، فهو موسوعة في النحو والصرف وأبنية الكلام العربي.

ثالثا:- اتفاق معاصريه على أمانته في النقل.

رابعا:- أسلوبه المتميز الذي لا يخلو من تعقيد وغموض احتاج إلى شروح كثيرة ولكنها لم تستنفد جميع طاقاته.

ولقد كان الأخفش الأوسط والمازني والجرمي والسيرافي والأعلم والرماني من بين الذين اجتهدوا في شرحه وبيان نكته، ومع ذلك فإن السيرافي الذي كاد أن يستكمل شروح من سبقوه قال عن "باب ما ينتصب من المصادر لأنه حال صار فيه المذكور"، هذا باب فيه صعوبة، وقال الزجاج:"هذا باب لم يفهمه إلا الخليل وسيبويه".

أما ترتيب الكتاب وعناوينه وأبوابه، فقد جمع سيبويه في كتابه مباحث النحو والصرف في قسمين متباينين، لكن ترتيبه لأبواب النحو يختلف عما اعتدنا عليه، فهو يبدو متناثرا لأن الدارسين تعودوا على ترتيب معين وواضح، أما في الكتاب نلاحظ كثرة الأبواب وعدم وجود فصول وطول العناوين والغموض بين العنوان والمتن، وقد تنبه دارسوه قديما وحديثا لهذه الصعوبات فقاموا بشرحه وتفسيره وتعديل عناوينه على غرار صنيع الرماني في شرحه للكتاب، ومن المحدثين من بيّن الأسس التي رتب الكتاب على أساسها على غرار علي النجدي ناصف[2].

-

[1] - ينظر: المرجع السابق، ص90-91.

[2] - لمزيد من الاطلاع ينظر: المرجع نفسه، ص93وما بعدها.

المحاضرة الثالثة:(اللسانيات العربية التطور).

تمهيـــــد:

تكملة لتصنيف علي الطنطاوي الذي تحدث عن الأطوار التي مرّ بها الدرس النحوي واللغوي العربي، حيث تحدث عن طورين، طور الوضع والتكوين وطور النشوء والنمو، واعتبرناهما يدخلان في مرحلة نشأة البحث اللغوي عند العرب، كما تكلّم عن طورين آخرين يمكن اعتمادهما كبداية لتطور البحث اللغوي عند العرب وبداية استقلال المستويات اللغوية بعضها عن بعض في البحث والدراسة، وهذان الطوران هما:

***-طور النضج والكمال (بصري كوفي):**

يمتد هذا الطور من أبي عثمان المازني (ت247ه)[1]، إمام الطبقة السادسة البصرية، ويعقوب بن السكيت إمام الطبقة الرابعة الكوفية، إلى آخر عصر المبرد (ت286ه) [2]،شيخ الطبقة السابعة البصرية، وثعلب (ت291ه)[3]شيخ الطبقة الخامسة الكوفية.

لقد وجد أصحاب هذا الطور الطريق سالكة ممهدة، فنزلوا إلى الميادين تسوقهم العصبيّة، وكثيرا ما جمعت بغداد الفريقين من حين إلى آخر، فكانت المناظرات حامية الوطيس بينهما، لكن بتعاقب الأيّام، وانقراض المتنافسين جمعتهما بغداد.[4]، شرح هؤلاء مجمل كلام من سبقهم، وأكملوا ما فاتهم، واختصروا ما ينبغي له الاختصار، وأكملوا وضع المصطلحات.

في هذا الطور بدأ الفصل الحقيقيّ للصرف عن النحو، وأول من سلك هذا الطّريق المازني، حيث ألّف كتاب التّصريف في الصرف وحده، ومن هذا الحين تشعّبت مسالك التأليف في العلوم اللغوية العربية، وقد رعى العهد القديم المبرّد في كتابه "الكامل"، الذي جمع فيه الأخبار، والتحقيقات، والنحو والممتع من الصّرف، والأدب الطّريف، لكن هذا المنهج قليل، حيث بدأت تستقل العلوم، كما ذكرنا [5].

ازدهرت الدراسات في هذا الطور بالمدن الثلاث، البصرة، والكوفة وبغداد، فتمت الأصول وانتهى الاجتهاد فيه على يد المبرّد، وثعلب، وكانت نهاية هذا الطور في أواخر القرن الثّالث للهجرة.[6]

***-طور الترجيح (بغدادي):**

المدرسة البغدادية أو المذهب البغدادي، هو عبارة عن مزيج بين المذهبين الكبيرين، مع إضافة بعض القواعد الجديدة التي استنبطها رواد هذا المذهب، الذي كان التأثير الغالب عليه في البداية كوفيا، لكن سرعان ما بدأ الأمر يميل نحو البصري، الذي وجدوه أكثر إقناعا [7]، حيث يقول ابن الشجري: «وللنحاة الكوفيين في أكثر كلامهم تهاويل فارغة من الحقيقة»[8] هذا الحكم يعطينا دليلا قاطعا عن عزوف المتأخرين عن المذهب الكوفي، مما جعل المتأخرين منهم يعتمدون على المذهب البصري أساسا .

ظل المذهب البغدادي مدة مديدة، حيث كانت بغداد بلد الخلافة ومقصد العلماء من كل بلاد الإسلام، إلى أن ضعفت الخلافة فيها، فنفر منها أهل العلم من العرب والفرس، فأخذوا يتفرقون في البلاد شرقا وغربا، فتنقل هذا العلم في المدائن الإسلامية، وتدرج الانتقال من بغداد شرقا، إلى خراسان فما وراء النهر، وغربا إلى الشام ومصر

---

[1] - للاطلاع على ترجمة، ينظر: أخبار النحويين البصريين، ص113-121، وأيضا، ينظر: طبقات النحويين واللغويين، ص87-93، وأيضا، ينظر: المدارس النحوية، ص115-122.

[2] - للاطلاع على ترجمة، ينظر:أخبار النحويين البصريين، ص136، وأيضا، ينظر: طبقات النحويين واللغويين، ص101-110، وأيضا، ينظر: المدارس النحوية، ص123-134.

[3] - للاطلاع على ترجمة، ينظر: طبقات النحويين واللغويين، ص 141-150، وأيضا، ينظر: المدارس النحوية، ص224-240.

[4] - ينظر: نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص46-47.

[5] - ينظر: المرجع نفسه، ص47-48

[6] - ينظر: المرجع نفسه، ص48-49.

[7] - ينظر: المرجع نفسه، ص185-186.

[8] - المرجع نفسه، ص186.

فالمغرب، والأندلس، فاشتغل علماء هذه الأقطار، كل في قطره، مما جعل المذهب البغدادي يتلاشى رويدا رويدا وينقرض عهده.[1] ومن أهم نحاة بغداد نذكر على سبيل المثال: أبو إسحاق الزجاج، أبو البركات الأنباري، أبو البقاء العكبري، الرماني، أبو الطيب اللغوي، الزجاجي، ابن السراج، السيرافي، الفارسي...

مظاهر تطور البحث اللغوي العربي القديم:

إذا كان اللغويون العرب المعاصرون قد اتجهوا في دراستهم للتراث اللغوي العربي اتجاها نقديا على نحو بارز بالحديث عن المعيارية والمنطق والفلسفة التي تميز بها في نظرهم، فإن نظرة المستشرقين والمنظرين اللغويين الغربيين كانت مغايرة فقد أثبتوا أوجه تفوق كبيرة جدا له أكثر من انتقاده، فهم يرون بأنه صيغ بشكل سريع غير عادي في كل حقول الدرس اللغوي : الأصوات والنحو والصرف والدلالة وفلسفة اللغة، ولقد تطور الدرس اللغوي عند العرب في ستة قرون في اتجاه أكثر انسجاما مع الدراسات اللغوية الغربية فيما بعد النهضة.[2]فجدير أن تستوفي أي دراسة لهذا التراث الزاخر ثلاثة شروط[3]:

- أن تكون"نظريات التراث اللغوي صوتيّا أو صرفيّا أو نحويّا...إلخ" هي العنوان العام الذي يقدم التراث النحوي من خلاله، وذلك لإعادة تقديم التراث اللغوي العربي في صورة نظريات لغوية مثلما سبق تقديمه في صورة اتجاهات ومدارس لغوية.
- أن تستوفي النظريات اللغوية المختلفة لكل علم من العلوم العربية على نحو جامع.
- أن تقدم هذه النظريات في إطار عام يبين علاقتها بعضها ببعض.

وعلى العموم فقد كانت للغويين العرب القدماء تحليلات رائدة مست اللغة العربية في كل مستوياتها دون استثناء لا تقل شأنا عمّا ظهر عند نظرائهم اللسانيين الغربيين المحدثين، يمكن توضيحها باختصار على النحو الآتي:

1- المستوى الصوتي:

يعتبر علماء اللغة المحدثون دراسة الأصوات اللغوية أول خطوة في أي دراسة لغوية، لأنها تتناول أصغر وحدات اللغة، ونعني بها الأصوات التي تعد هي المادة الخام للكلام الإنساني، أما اللغويون العرب القدماء فلم ينظروا إلى الدراسة الصوتية هذه النظرة، ولم يعالجوا الأصوات علاجا مستقلا[4]، وقد ذكرنا أن كتاب سيبويه وهو في النحو يشمل الصرف الذي لا يكاد ينفك عن النحو، والصوت ويظهر في باب الإدغام بشكل جلي، لكن بمرور الزمن بدأت تلك الدراسات تتخصص في مستوى معين من مستويات اللغة العربية.

لقد كان للباحثين العرب القدماء بحوث جليلة في الجانب الصوتي للغة العربية شهد المحدثون بدقتها وعمق تحليلها ووصفها مقارنة بالعصر الذي عاشوا فيه، وقد هدفوا من خلالها خدمة اللغة والعربية والذكر الحكيم(ترتيل القرآن)، ولقرب هؤلاء من عصور النهضة واحتكاكهم بفصحاء العرب كانوا مرهفي الحس ودقيقي الملاحظة والوصف، فوصفوا أصوات اللغة العربية وصفا أثار دهشة المستشرقين وإعجابهم، غير أن المتأخرين منهم اكتفوا بترديد ما أنجزة المتقدمون دون فهم له أو نظر فيه، وبحسب إبراهيم أنيس أن هذه الأصوات أصابها تطور لم يلحظه هؤلاء ولم يفطنوا له، ووقفوا بهذا حيث وقف القدماء فلم يكملوا طريق تلك الأبحاث القديمة، بل رووها مبتورة حينا وممسوخة حينا آخر[5].

فقبل ابن جني فقد تطرق الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت170) في معجمه العين للأصوات العربية وعلى أساسها جاء ترتيبه، وظهرت آراؤه بشكل أوضح في كتاب سيبويه فيما بعد، ونلاحظ ذلك أيضا في الجمهرة لابن دريد(ت321

---

[1] ينظر: المرجع السابق، ص189-190.

[2] - النظرية اللغوية في التراث العربي، محمد عبد العزيز عبد الدايم، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، دط، دت، ص46.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص50.

[4] - البحث اللغوي عند العرب، ص93.

[5] - ينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، دط، 2017م، ص7-8.

ه) ، والبارع في اللغة لإسماعيل القالي(ت352ه)، والتهذيب للأزهري(ت370ه)، والمحيط للصاحب بن عباد(385ه)، أما ابن دريد فقد أهمل ترتيب الحروف على المخارج الذي ابتكره الخليل وتمسك بالتفكير الألفبائي، أما القالي فقد أغفل ما فعله ابن دريد وعاد إلى طريقة الخليل في الترتيب، وإن خالفه في مخارج الحروف، حيث ترك ترتيب الخليل إلى ترتيب سيبويه مع شيء يسير من الخلاف، وعلى مدرسة الخليل جاء التهذيب والمحيط[1]، كما نشير في هذا الصدد إلى دور علماء التجويد والقراءات في بلورة هذا النوع من الدراسة، وقد كان ابن مسعودﷺ ينصح المسلمين ويقول:"جودوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات"، وقد روى البخاريﷺ أنّ النبي ﷺ كان يجهش بالبكاء حينما يسمع القرآن الكريم بترتيل ابن مسعودﷺ، فكان القراء يتناولون مخارج الحروف وطريقة نطقها وصفاتها كما فعل ابن الجزري في كتابه "النشر" الذي خصص سبع صفحات فيه لهذا المبحث وحده، وترددت في كتب التجويد مصطلحات صوتية مثل: الإشمام والإشباع والاختلاس والمد والتفخيم، والترقيق ونحوها[2].

تتبلور نظرية الفونيم(الأصول والفروع) عند الخليل وتلميذه سيبويه عند التمييز بين نوعين من الحروف(الأصوات)[3]:

أ- الأصول:

وهي حروف(أصوات) العربية المعروفة، وهي تسعة وعشرون حرفا(صوتا)، وهي:"الهمزة، الألف، الهاء، العين الحاء، الغين، الخاء، الكاف، القاف، الضاد، الجيم، الشين، الياء، اللام، الراء، النون، الطاء، الدال، التاء، الصاد الزاي، السين، الظاء، الذال، الثاء، الفاء، الباء، الميم، الواو.

ب- الفروع:

وأصلها من الأصوات الأصول السابقة وعددها ثلاثة عشر صوتا بعضها يستحسن في قراءة القرآن والأشعار وهي: النون الخفيفة، الهمزة التي بين بين والألف التي تمال إمالة شديدة، والشين التي كالجيم، والصاد التي تكون كالزاي وألف التفخيم بلغة أهل الحجاز في قولهم : الصلاة الزكاة والحياة، وبعضها لا يستحسن لا في القرآن ولا في الشعر وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالميم.

وبذلك يكون عدد الحروف في الكتاب اثنين وأربعين حرفا(صوتا) منها:(29من الأصول)و(13من الفروع)، وقد أشار سيبويه إلى أن هذه الفروع جيدها ورديئها أصلها من التسعة والعشرين الأصول، وهي تظهر مشافهة لا خطا(كتابة).

***- مخارج الأصوات العربية وصفاتها:**

فعلى سبيل المثال حدد الخليل وسيبويه ستة عشر مخرجًا، ومثلها صفات"والصّفة الأولى تخصّ حيّز الحرف، والثّانية هي فصل للتّمييز بين الحروف داخل المخرج، فمن الحلقي واللّهوي والشّجري والنّطعي واللّثوي والشّفوي، ثمّ المجهور والمهموس والشّديد والرّخو والمستعلي والمستفل والمطبق والمنفتح وغير ذلك[4].

فعلى سبيل المثال قسّم سيبويه الحلق إلى ثلاثة مخارج، أقصى الحلق ووسط الحلق وأدنى الحلق، أمّا هذا الأخير فهو الحيّز الّذي يلتقي فيه الحلق بتجويف الفم(Oro-Pharynx)، ويستمرّ حتى يصل إلى مستوى اللّهاة، ومنه تخرج الخاء والغين، أمّا وسط الحلق، فتخرج منه العين والحاء، أمّا أقصى الحلق فهو مستوى الحنجرة تمامًا، والدّليل على ذلك، ما يلي:[5]

---

[1] - الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، حسام سعيد النعيمي، دار الرشيد للنشر، العراق، دط، 1980، ص51.وللاطلاع أكثر ينظر: البحث اللغوي عند العرب ص93 وما بعدها.

[2] - البحث اللغوي عند العرب، ص95-96.

[3] - ينظر: علم الصوت العربي في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة، قاسم البرسيم، أفريقيا الشرق، المغرب، دط، 2018م، ص15-17.

[4] - ينظر: المرجع نفسه، ص214.

[5] - المرجع نفسه، ص61-62.

*- إحلال الخليل وسيبويه مخرج الهمزة في أقصى الحلق كما ورد في الكتاب .

*- وقول سيبويه من جهة أخرى أنّ "الهمزة نبرة في الصّدر" .

*- وقوله:"هذه الحروف غير مهموسات وهي حروف مد ولين، فإذا وقفت عندها...فيهوي الصّوت...حتّى ينقطع آخره في موضع الهمزة".

*- يقول الخليل:"أمّا الهمزة فمن أقصى الحلق، وهي مهتوتة مضغوطة(أي شديدةStop)، والأخرى لينة، فإذا رفّه عنها لانت وصارت الياء والألف الواو، وقال أيضًا:" أصلهنّ (حروف المد)من عند الهمزة...إذا وقف عندهنّ انقطع أنفاسهنّ فرجعن إلى أصل مبدئهنّ"، وقال أيضًا:"إنّما نُسبن إلى الجوف لأنّه آخر انقطاع مخرجهنّ"، وقال مكي:"زاد الخليل معهنّ الهمزة، لأنّ مخرجها من الصّدر، وهو متّصل بالجوف".

هذا ويعتبر ابن جني(ت392ه) أول من أفرد الأصوات ببحث خاص وكتب في ذلك مؤلفه المعروف"سر صناعة الإعراب"، حيث نظر إلى الأصوات كعلم خاص، مطلقا عليه مصطلح علم الأصوات، أو نظرية الفونيم بالمصطلح الجديد، وقد ذكر بأنه أول من أفرد هذا العلم ببحث خاص:"وما علمت أن أحدا من أصحابنا خاض في هذا الفن هذا الخوض ولا أشبعه هذا الإشباع"، وعلى العموم فقد تناول ابن جني المواضيع التالية[1]:

-عدد حروف الهجاء وترتيبها ووصف مخارجها.

- بيان الصفات العامة للأصوات وتقسيمها باعتبارات مختلفة.

- ما يعرض للصوت في بنية الكلمة من تغيير يؤدي إلى الإعلال أو الإبدال أو الإدغام، أو النقل أو الحذف.

- نظرية الفصاحة في اللفظ المفرد ورجوعها إلى تأليفه من أصوات متباعدة المخارج، يقول ابن جني:«وأذكر أحوال هذه الحروف في مخارجها ومدارجها، وانقسام أصنافها، وأحكام مجهورها ومهموسها، وشديدها ورخوها، وصحيحها ومعتلها، ومطبقها ومنفتحها، وساكنها ومتحركها...وأذكر فرق ما بين الحرف والحركة، وأذكر الحروف التي هي فروع مستحسنة والحروف التي هي فروع مستقبحة، والحركات التي هي متولدة عن الحركات كتولد الحروف عن الحروف»[2].

لقد ذكر ابن جني أن لعلم الأصوات علاقة بالموسيقى، ومخارج الحروف مماثلة للثقوب في الآلات الموسيقية، وقد أحصى ستة عشر مخرجا مرتبة من آخر مخرج أقصى الحلق إلى أدنى مخرج(الأنف)، وترتيب الأصوات كالتالي[3]:

1-في أقصى الحلق: الهمزة، ا، هـ.

2- في وسط الحلق: ع، ح.

3- من أدنى الحلق(ما فوق ذلك من أول الفم): غ، خ.

4- من أقصى الحنك: ق إلى الوراء.

5- من أقصى الحنك: ك إلى الأمام.

6- من أوسط اللسان: ج، ش، ي.

7- من أول حافة اللسان: ض قريبة من وسط الحنك.

8- من حافة اللسان فويق الضاحك والناب الرباعية: ل.

9- من طرف اللسان فوق الثنايا: ن.

10-من فوق مخارج الثنايا بقليل: ر.

11- من طرف اللسان وأصول الثنايا: ط، د، ت.

12- وما بين الثنايا وطرف اللسان: ص، ز، س.

13- بين أطراف الثنايا وأطراف اللسان: ظ، ذ، ث.

14- من باطن الشفة السفلى: ف.

15- بين الشفتين: ب، م، و.

16- من الأنف: مخرج النون الخفيفة.

غير أن ما يلاحظ اليوم عند اللغويين المعاصرين أن مكان الضاد عند ابن جني يأتي بعد الياء، بينما اليوم فيأتي مع الطاء والدال والتاء، كما يلاحظ أن الصاد والزاي والسين تالية للطاء والدال والتاء، ولكنها اليوم تأتي سابقة[4].

---

[1] - البحث اللغوي عند العرب، ص100-101.

[2] - سر صناعة الإعراب، ابن جني، دراسة وتحقيق: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط2، 1993م، ص4.

[3] - اللسانيات وتعليم اللغة، محمود أحمد السيد، دار المعرفة للطباعة والنشر، سوسة تونس، دط، 1998م، ص20-21.

[4] - ينظر: المرجع السابق ، ص21.

كما تناول الفيلسوف ابن سينا مجال الأصوات في كتاب بعنوان:"أسباب حدوث الأصوات"، وفي كتابه "الشفاء" في فصل السمع، حيث تناول سبب حدوث الأصوات، وقد انتهى إلى أن العملية الصوتية تتضمن عناصر ثلاثة هي:

- وجود جسم في حالة تذبذب، واشترط لذلك وجود قرع، كأن تقرع صخرة أو خشبة فيحدث الصوت، أو قلع، كأن تقلع جزءا من خشبة أحد شقيها عن الآخر طولا.
- وجود وسط ناقل لهذه الذبذبات، حيث يقول:"أظن أن الصوت سببه القريب تموج الهواء ودفعه بسرعة وقوة من أي سبب كان" وتحدث عن الوسط المائي والهواء.
- وجود جسم يستقبل هذه الذبذبات، حيث يقول:" فإذا انتهى التموج من الهواء أو الماء إلى الصماخ، وهناك تجويف فيه هواء راكد يتموج بتموج ما ينتهي إليه، ووراءه كالجدار مفروش عليه العصب الحاس للصوت-أحس بالصوت...ثم ذلك الموج يتأدى إلى الهواء الراكد في الصماخ فيموجه فيحس به العصبة المفروشة في السطحه"[1].

وهذه الأمور تكلم عنها العلماء المحدثون عند حديثهم عن الطابع الفيزيائي للصوت، كما تناول ابن سينا مخرج الصوت الإنساني وصفاته، وما يلفت النظر في ترتيب ابن سينا للأصوات مثلا[2]:

- تفريقه بين السواكن والعلل، حيث أطلق على الأولى صوامت والثانية مصوتات.
- تفريقه بين نوعين من الواو والياء، فنوع أدرجه في الصوامت ونوع أدرجه في المصوتات.
- تفريقه بين الحركة الطويلة والقصيرة.(الصغرى والكبرى).
- اتباعه الطريقة العربية التي ذكرناها في ترتيب الأصوات من الداخل إلى الخارج من الهمزة إلى الياء الصغرى والكبرى.

2- المستوى النحوي:

تناولنا نشأة النحو منذ بدايته التي كانت تسند إلى أبي الأسود الدؤلي في الغالب فمنه بدأ هذا الطريق الطويل الذي كان بسيطا ككل كل علم، وصولا إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي فهو الذي هذب القواعد وصنف الأبواب وتلميذه سيبويه الذي وضع الفروع والأدلة والشواهد وهي مرحلة اكتمل فيها بنيان علم النحو وهي مرحلة مبكرة قياسا بزمن النشأة وبغيره من العلوم، حتي قيل بأن ما قام به الخليل وسيبويه سابق لأوانه، هذا دون نسيان جهود نخبة من النحاة كعيسى بن عمر الثقفي، ويونس بن حبيب الضبي، وأبي الخطاب عبد الحميد المعروف بالأخفش الكبير، فكل هؤلاء أسهم إسهاما ملحوظا، فعيسى بن عمر جمع وأكمل في مؤلفيه، ويونس نظم دروسه في حلقته المشهورة، والأخفش الكبير نبه سيبويه على مسائل نحوية دقيقة[3].

ولا نعرف هل كان من حسن حظ النحو العربي أم من سوء حظه أن جاء سيبويه في وقت مبكر جدا لا يتجاوز النصف الثاني من القرن الهجري، إذ نتج عن تفوقه شدة إعجاب النحاة به أن أصيب التفكير النحوي بشلل، ودار الجميع حول فلك سيبويه، واتخذوه أساسا لدراستهم، وتحولت الكثير من الدراسات النحوية إلى مجرد شروح له أو اختصارات أو تعليقات عليه أو جمع شواهد وشرحها[4] فكان الجميع يسبح حول ما قدمه سيبويه في كتابه دون اجتهاد بل ربما سوء فهم وشرح له.

إن سيبويه يعد إمام النحو بلا منازع، وقد جمع في كتابه مباحث نحوية وصرفية، وجعل لكل منهما مكانا لا يكاد يشترك مع الآخر، فبدأ بالنحو وثنى بالصرف صنيع من يراهما علمين مستقلين، فالجزء الأول من الكتاب مثلا نجده خاصا بالنحو، حيث تناول فيه الكلمة والنكرة والمعرفة، والأفعال اللازمة والمتعدية، وأسماء الأفعال إلى جانب الفاعل والمبتدأ والخبر، وأيضا المنصوبات ، وإن وأخواتها والنداء وغيرها، أما الجزء الثاني فكان خاصا بالصرف إذا ما

---

[1] - البحث اللغوي عند العرب، ص103-104.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص108-109. وللاطلاع أكثر على تحليل ابن سينا للأصوات ينظر: المرجع نفسه، ص101 وما بعدها.

[3] - تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، ص67.

[4] - البحث اللغوي عند العرب، ص124.

استثنينا باب الممنوع من الصرف الذي افتتح به هذا الجزء، كموضوعات النسب، والتصغير ونونا التوكيد وجمع التكسير وأوزان المصادر وصيغ الأفعال، ومعاني الزوائد، واسم الآلة، وأسماء الأماكن وفعل التعجب، والإمالة والوقف والإعلال والإبدال[1].

وإذا كان النحو بالمفهوم الحديث هو التركيب(المستوى التركيبي)، فإن أول ما يسترعي انتباه الباحث في أشهر مصنفات النحو التراثية ككتاب سيبويه أو شرح المفصل لابن يعيش، أننا لا نجد فيهما فصولا وأبوابا خاصة بدراسة الجملة من حيث أنواعها وأنواع عناصرها ومختلف وظائفها، ولا يعني هذا أنها خالية من كل إشارة إلى الجملة، ولعل حديث سيبويه في باب المسند والمسند إليه وذكره للجملتين الاسمين والفعلية وتبيين المسند والمسند إليه فيهما، لكن دون تفصيل في أنواع الجملة أو تقسيم واضح المعالم كما حدث في زمن لاحق، ومعنى ذلك أن دراسة الجملة كانت رهينة بدراسة المفردات لا يكترث لها إلا إذا أمكن لها أن تعوض المفرد، فنجد حديثا عنها في بعض الأبواب كباب الحال، والنعت، والخبر، والشرط وجوابه...إلخ[2].

لقد ظلت العناية بالجملة محدودة طيلة قرون، ويمكن أن نعتبر إبن هشام هو أول من أدرك فائدة تخصيص باب للنظر في الجملة باعتبارها قاعدة الكلام ووحدته الأساسية، وقد أفرد لها بابا في كل من كتابيه" مغني اللبيب"و"شرح مقدمة الإعراب"، ومن طريف ما يلاحظ أنه استهل كتابه الثاني بدراسة الجملة ولعل في ذلك ما يدل على شعوره بأهميتها وإدراكه أن الدراسة النحوية ينبغي أن تنطلق منها إذا أريد من تلك الدراسة احترام الواقع والاحتفاظ بطابعه، إلا أن ابن هشام لم يتجاوز في حديثه عن الجملة جمع ما كان متفرقا في أمهات الكتب النحوية، ولئن كان ذلك لا يخلو من فائدة فإنه لا يضيف شيئا إلى ما حصل بعد ولا يعتبر تلافيا لما أهملته الدراسات السابقة.[3].

إن أول ملاحظة كفيلة بالاهتمام هي المصطلحات التي أطلقها القدماء على الجملة، الذي لم يستعملة سيبويه الذي استعمل مصطلح المسند والمسند إليه، إذ يقول:"هذا باب المسند والمسند إليه وهو ما لا يَغْنَى واحد منها عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بدا فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه، وهو قولك: عبد الله أخوك، وهذا أخوك، ومثل ذلك يذهب عبد الله، فلابد للفعل من الاسم، كما لم يكن للاسم الأول بد من الآخر في الابتداء[4]"، بينما نجد عند الزمخشري وابن يعيش وابن جني ترديدا لمصطلحين متداخلين لا يميزون بينهما، هما: الكلام والجملة، فيقول ابن يعيش مثلا:"والكلام هو المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى كقولك: زيد أخوك وبشر صاحبك أو في فعل واسم، نحو قولك: ضرب زيد وانطلق بكر ويسمى الجملة[5]"، وقال أيضا:"...الفرق بين الكلام والقول والكلم والجواب أن الكلام عبارة عن الجمل المفيدة وهو جنس لها فكل واحدة من الجمل الفعلية والاسمية نوع له يصدق إطلاقه عليها...[6]"، غير أننا نلاحظ في كلام ابن يعيش محاولة للتمييز بين الكلام والجملة على اعتبار أن الكلام أعم من الجملة، ولعل هذا الفرق هو أساس التمييز الذي يشير إليه ابن هشام ، الذي يفصل بين الكلام الذي احتوى معنى مستقلا لا يحتاج إلى تركيب أو كلمات تتمم معناه وبين الجملة التي تم تركيبها بفضل تضمنها للمسند والمسند إليه ولكنها لا تكوّن معنى مستقلا ، فلا بد أن ترد في تركيب ترتبط به ارتباطا جوهريا، وهو ما عبر عنه في قوله تحت عنوان: شرح الجملة وبيان أن الكلام أخص منها لا مرادف لها:"الكلام هو القول المفيد بالقصد والمراد بالمفيد ما دل على معنى يحسن السكوت عليه، والجملة عبارة عن الفعل وفاعله كقام زيد والمبتدأ وخبره، كزيد قائم، وما كان بمنزلة أحدهما...وبهذا

---

[1] - ينظر: المرجع السابق، 123-124.

[2] - ينظر: نظرات في التراث اللغوي العربي، عبد القادر المهيري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993م، ص32.

[3] - المرجع نفسه، ص32-33.

[4] - الكتب، ج1، ص23.

[5] - شرح المفصل، ابن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية بمصر، دت، دط، ج1، ص18.

[6] - المصدر نفسه، ج1، ص21.

يظهر لك أنهما ليسا مترادفين كما يتوهمه كثير من الناس، والصواب أنها أعم منه إذ شرطه الإفادة بخلافها، ولهذا تسمعهم يقولون جملة الشرط، جملة الجواب، جملة الصلة، وكل ذلك ليس مفيدا فليس كلاما...[1]".

وعلى العموم فإن النحاة القدامى قد درسوا الجملة واهتدوا إلى نواح هامة فيها، وسجلوا ملاحظات وتعليقات لا زالت محتفظة بقيمتها، وقد قدموا إلى الدارسين مادة لا يمكن إغفالها أو الاستهانة بها، غير أنها بطبيعة الحال ككل عمل بشري تحتاج إلى تأليف وتوضيح وتحديد وتنظيم يجلي الغموض الذي انتابها والاضطراب الذي أصابها في بعض الأحيان، ومرد ذلك أن الجملة خاضعة للقياس على المفرد وهو أمر يحول دون دراسة الجملة التي لها خصوصيات لا يشساركها المفرد فيها وإن جمعتها خصائص أخرى فما الجملة إلا كمفردات ركبت بطريقة مخصوصة.

3-المستوى الصرفي:

إذا كان الدرس النحوي يقوم بدراسة العلاقات النحوية التي تكون بين الكلمات التي تشكّل تركيبا نحويا صحيحا، فإن الدرس الصرفي يقوم بدراسة العلاقات الصرفية بين الكلمات التي أخذ بعضها من بعض، فالمستوى الصرفي يعد مستوى لغويا مقابلا للمستويات اللغوية الأخرى.[2] فالتصريف إنما هو لمعرفة أنفس الكلمة الثابته والنحو لمعرفة أحواله المتنقلة، ألا ترى أنك إذا قلت: قام بكرُ، ورأيت بكرًا، ومررت ببكرٍ، فإنك خالفت بين حركات حروف الإعراب لاختلاف العامل ولم تعرض لباقي الكلمة، وإذا كان ذلك كذلك فقد كان من الواجب على من أراد معرفة النحو أن يبدأ بمعرفة التصريف، لأن معرفة ذات الشيء الثابت ينبغي أن يكون أصلا لمعرفة حاله المتنقلة[3].

استعمل النحاة العرب القدماء مصطلحين متشابهين في هذا المستوى، هما:"التصريف" و"الصرف"، وعند البحث عن نشأة المصطلحين، نجد أن مصطلح"تصريف" أبعد تاريخيا من مصطلح"صرف"، وأول الكتب استخدمت المصطلح الأول، فقد استخدمه أبو عثمان المازني(ت249هـ-863م) في كتابه"التصريف"، وقد ذكر السيوطي أن عليا بن مبارك الأحمر(ت194هـ-809م) ألف كتابا قبل كتاب المازني سمّاه:"التصريف"[4]، وفي القرن الخامس هجري بدأت مرحلة الانشطار، ففي هذه المرحلة برز مصطلح"صرف" موازيا لمصطلح تصريف، كعنوان لكتاب، وأول كتاب تحت اسم"الصرف، كان "المفتاح في الصرف": لعبد القاهر الجرجاني(ت471هـ-1079م)، وبعده كتاب:"نزهة الطرف في علم الصرف" لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني(ت518هـ-1124م)صاحب كتاب الأمثال[5]، كما اشتهر عند الباحثين أن واضع علم التصريف أو الصرف هو أبو مسلم معاذ الهرّاء أحد أعمدة نحاة الكوفة ومتقدّميهم[6]، وقد ذكرنا بأن نحاة الكوفة كانت لهم جهود خاصة بالصرف، كالتصغير للرؤاسي والمصادر للكسائي وفعل وأفعل للفراء.

لقد بدأ اهتمام النحويين العرب بهذا العلم حدّا وموضوعا في أوائل القرن الرابع الهجري، فقد عرّف ابن السرّاج(ت316هـ-928م) التصريف في كتابه"الأصول في النحو"، بقوله:"هذا الحد إنما سمي تصريفا لتصريف الكلمة بأبنية مختلفة، وخصّوا به ما عرض في أصول الكلام وذواتها من التغيير، وهو ينقسم خمسة أقسام، زيادة، وإبدال، وحذف، وتغيير بالحركة والسكون، وإدغام، وله حدّ يعرّف به"[7].

إن التصريف في عرف علماء اللغة القدماء بحث في أبنية المفردات وصوغ الأفعال والأسماء والصفات عليها سواء في حال التجريد أم الزيادة، وما يتعلّق بالقوانين العامة التي تفسّر مظاهر التغيّر الصوتي كالإبدال والإدغام، وما يساعد على تبيين أنواع التغييرات من التمارين والتدريبات العملية، على أن هذا العلم بقيت عناصره غير متمايزة إذ كان جمعا

---

[1] - مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، تحقيق: عبد اللطيف محمد الخطيب،مطابع السياسة، الكويت، ط1، 2000م، ج5، ص7-8.

[2] - ينظر: النظرية اللغوية في التراث العربي ، ص90-91.

[3] - الصيغ الصرفية في العربية في ضوء علم اللغة المعاصر، رمضان عبد الله، مكتبة بستان المعرفة، الإسكندرية، ط1، 2006م، ص6.

[4] - ينظر: الصرف العربي بين المقاربات اللغوية القديمة والمقاربات اللسانية الحديثة، محمد شندول، مركز النشر الجامعي، تونس، دط، 2015م، ص9-10.

[5] - المرجع نفسه، ص13.

[6] - ينظر: دروس التصريف، محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية صيدا بيروت، دط، 1995م، ص8.

[7] - الأصول في النحو، ابن السراج، تحقيق: عبد الحسين القتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1996م، ج3، ص231.

بين قضايا الاشتقاق والأصوات والزيادات النحوية التي تلحق بالمفردات[1]. وعلى العموم فإن علم الصرف في العربية متعدد الجوانب والأبعاد، ويمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من التغييرات الطارئة على الصيغ[2]:

أ- تغيير صرفي بحت يتمثل في الاشتقاق(تصرف الأفعال واشتقاق الأسماء).

ب- تغيير صرفي/صوتي،يتمثل بتأثير التغير الصوتي في بنية الصيغة صرفيا(يشدّ، بقُوا...).

ج- تغيير صوتي بحت، ويتعلق بتعامل الأصوات(ازدهر، اتصل)

والصنف الأول يتعلق بتغيير المعنى باختلاف الصيغ، أما الصنفان الآخران فأثرهما بنائي(لفظي) لا معنوي، والجانبان حظيا بنفس الاهتمام في كتب الصرف، بينما أهمل الجانب اللفظي البنائي في الكتب المدرسية وهو لا يقل أهمية عن الأول المعنوي، لأنه يدل على متانة الصلة بين نظام اللغة الصرفي ونظامها الصوتي.

لقد أدى اتساع هذا العلم فيما ذهب إليه ابن عصفور الإشبيلي(تت669هـ-1271م) في كتابه "الممتع في التصريف" إلى تشعب مسائل هذا العلم وتداخلها وإلى العزوف عن وضع تأليف فيه يكون مرتبا وجامعا، فقد جاء في كتابه ما نصّه:"وبعد، فإني لمّا رأيت النحويين قد هابوا لغموضه علم التصريف فتركوا التأليف فيه، إلا القليل منهم فإنهم وضعوا فيه ما لا يُبْرِدُ غليلا ولا يحصل لطالبه مأمولا لاختلاف ترتيبه وتداخل تبويبه، وضعت في ذلك كتابا رفعت فيه من علم التصريف شرائعه، وملّكته عاصيته وطائعه وذللته للفهم بحسن الترتيب، وكثرة التهذيب لألفاظه والتقريب، حتى صار معناه إلى القلب أسرع من لفظه إلى السمع....سمّيته بالممتع ليكون اسمه وفق معناه ومترجما عن فحواه..."[3]، غير أن هذا الجهد ورغم أهميته لم يغير في الأمر كثيرا، حيث بقي هذا الميدان على اتساعه وعلى ما عليه من التداخل والتعقيد، فلم تفصل مسائله بعضها عن بعض، ولم تجعل فروعا مستقلة بنفسها، فجمعت قضايا الاشتقاق والأصوات وأحوال الأبنية.

وقد لخص الطيب البكوش عيوب الصرف العربي في النقاط الآتية[4]:

أ- تتعد معاني المصطلح الواحد، فالحرف هو الصوت المنطوق والرمز المكتوب، وسواء كان صامتا أم صائتا (طويلا أم قصيرا)، وكذلك معنى الكلمة واللهجة واللغة...

ب- اعتبار الألف في نفس مستوى الواو والياء، واعتبار حروف العلة ثلاثة بينها الألف-إذا لم تكن عماد الهمزة- لا تقوم بدور الحرف أبدا، وإنما هي علامة طول الفتحة، أما الواو والياء، فتقومان فعلا بدور الحرف حينا فتتحركان مثلا، وبدور الحركة حينا آخر فتكونان مدا، ما يجعل حروف العلة الحقيقية اثنان(الواو والياء)، وهو ما يقابل المفهوم الغربي)نصف حركة أو نصف حرف).

ج- تعليل التغييرات الصوتية انطلاقا من الرسم المرئي لا من سلسلة الأصوات المسموعة، وهو عيب تشترك فيه جميع النظريات اللغوية القديمة، ذلك أن الاعتماد على الرسم دون النطق يقود حتما إلى التعسف والخطا في الحكم إلى جانب ما فيه من تناقض ضمني لأن الرموز الخطية لا يمكن أن تستوعب ما يوجد من غنى وتنوع صوتي في اللغات البشرية، فهم عندما يقولون أن ضمة الياء في (بَقِيُوا) انتقلت إلى القاف فالتقى ساكنان فحذف ما سبق وهو الياء،وأصبحت الصيغة(بَقُوا)، ويعتبرون أن كسرة القاف حذفت، بينما لا يمكن لحركة أن تضمحلّ بكامل هذه السهولة وبدون مبرر صوتي، والرسم العربي جعل النحوي يتصور بشيء من السذاجة أن تحت القاف كسرة أصلية وفوقه ضمة طارئة، فأطرد الطارئ الأصلي وأخذ مكانه.

---

[1] - الصرف العربي بين المقاربات اللغوية القديمة والمقاربات اللسانية الحديثة، ص10-11.

[2] - التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، الطيب البكوش، المطبعة العربية، تونس، ط3، 1992م، ص19-20.

[3] - الممتع الكبير في التصريف، ابن عصفور الإشبيلي، تحقيق: فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1996م، ص27-28.

[4] - ينظر: التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، ص20-23.

4- المستوى المعجمي الدلالي:

المعجم كما عرفه اللغويون هو كتاب يضم مفردات اللغة ومعانيها واستعمالاتها في التراكيب المختلفة، وكيفية نطقها، وكتابتها، مع ترتيب هذه المفردات بصورة من صور الترتيب كالهجائي مثلا، وقد ورد تعريفه في المعجم الوسيط:"ديوان لمفردات اللغة مرتب على حروف المعجم"، ولقد سبق علماء الحديث اللغويين في استعمال هذا المصطلح، الذي أطلقوه على الكتاب المرتب ترتيبا هجائيا ويجمع أسماء الصحابة ورواة الحديث، ويقال أن البخاري(ت256ه) كان أولهم في إطلاق لفظة معجم على أحد كتبه المرتبة على حروف المعجم، ووضع أبو يعلي أحمد بن علي بن المثنى(ت307ه)"معجم الصحابة"، ووضع البغوي(ت317ه)"معجم الحديث"، بينما استعمال اللغويين لهذا المصطلح كان مؤخرا، فكانوا يقولون، هذا كتاب "العين"، وهذا"الجمهرة"، وذاك" الصحاح"، وقد أطلق عليها لفظ معاجم في زمن متأخر[1]. كما نشير في هذا الصدد إلى دخول مصطلح آخر شبيه له وهو"القاموس" ويطلق على كل معجم عربي أو أجنبي أو مختلط، والقاموس لغة هو أعمق مكان في البحر، وقد أطلقه الفيروزبادي في القرن الثامن على معجمه:"القاموس المحيط" أي أنه بحر واسع وعميق في اللغة ونال بذلك شهرة ممتدة [2].

ويجمع الدارسون بأن العرب تفننوا في وضع المعاجم بشكل لا نظير له بين الأمم، معتمدين في ذلك جانبي الكلمة(اللفظ والمعنى)، فظهرت "معاجم الألفاظ ومعاجم المعاني"،

أ- معاجم الألفاظ:

وقسمت هذه المعاجم بطرق مختلفة[3]:

1-الترتيب الصوتي المخرجي(مخارج الأصوات)، ويمثل هذا النوع أول المعاجم العربية وهو"معجم العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي"، حيث بدأ بآخر مخرج، صوت العين الذي أطلقه على مؤلفه وصولا إلى أدني المخارج، وقد جمع ألفاظة بطريقة رياضية حسابية عجيبة سبق الحديث عنها تبين ذكاء الرجل وفطنته واتساع تفكيره، حيث استنفد كل احتمالات الكلام العربي، مذكرا بالمستعمل منه والمهمل، ولو أن بعض العلماء يشككون في نسبه إلى الخليل وأبرز حججهم أنه يختلف في الترتيب الصوتي ومخارج الحروف مع ما ورد في كتاب سيبويه، ولو كان العين للخليل لتطابق مع ما ورد في الكتاب لأن سيبويه حامل علم الخليل.

كما استعمل الأزهري هذا النوع من الترتيب في معجمه"تهذيب اللغة"، حيث تأثر فيه بمعجم العين تأثرا بالغا، وصل به إلى نقل مقدمة العين إلى مقدمته نقلا يكاد يكون حرفيا، أما من ناحية الحجم فهو أكبر من العين، اهتم فيه صاحبه بأسماء البلدان والأماكن، مستعملا شواهد من القرآن الكريم ومن الحديث النبوي الشريف إضافة إلى الشعر بطبيعة الحال، كما نجد هذا النوع من الترتيب عند القالي الأندلسي في معجمه "البارع"، وكذلك" مختصر العين للزبيدي"، ويظهر ذلك من اسمه، وكذلك"المحيط"للصاحب بن عباد، و:المحكم" لابن سيدة...

2-الترتيب الألفبائي الذي يراعي التشابه الكتابي للأحرف، فيضع الثلاثيات متجاورة والثنائيات متجاورة وينتهي بالأحرف المفردة، ومن المعاجم الذي اعتمدت هذا النوع من الترتيب:

أ- على أساس أسبق حروف الكلمة: مثل الجمهرة" لابن دريد، حيث سار على الترتيب الألف بائي العادي.

ب- وضع الكلمة تحت أول حروفها الأصلية: فنجد معجم"الجيم" لابي عمرو الشيباني، وكذلك"المقاييس" لابن فارس، و"مجمل اللغة" لابن فارس، و"أساس البلاغة للزمخشري"،و"المصباح المنير" للفيومي.

ج - وضع الكلمة تحت أول حروفها دون تجريد: فنجد "المقصور والممدود" لابن ولاد المصري(ت332ه)، و"غريب القرآن"لابي بكر محمود بن عزيز السجستاني(ت330ه).

---

[1] - ينظر: البحث اللغوي عند العرب، ص162،173.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص173.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص 178-225.

د- وضع الكلمة تحت حرفها الأخير دون تجريد: وذلك مثل"التقفية في اللغة" لأبي بشر بن أبي اليمان البندنيجي.
هـ- وضع الكلمة تحت حرفها الأخير الأصلي: ومن ذلك"تاج اللغة وصحاح العربية" المشهور بالصحاح" للجوهري، وكذلك المعجم الشهير"لسان العرب" لابن منظور...

كما نشير إلى تقسيم المعاجم حسب الأبنية كما هو الشأن في كتاب سيبويه، الذي يعد معجما للألفاظ العربية إضافة إلى كونه كتابا نحويا صرفيا، والمعاجم الكامل كمعاجم الأدب... بينما الترتيب الأبجدي، وهو أقدمها عند العرب وهو ذو أصل فينيقي، فلم يستعمله العرب في معاجمهم.

ب- معاجم المعاني:

إن فكرة معاجم العاني التي ترتب ألفاظها بحسب الموضوعات كانت أسبق في الوجود أو موازية لمعاجم الألفاظ، وإن كانت عبارة عن كتيبات صغير في البداية تتناول موضوعا واحدا، ومن أولها ما كتبه أبو مالك عمرو بن كركرة الذي ألف "خلق الإنسان"و"الخيل"، وأبو خيرة الأعرابي الذي ألف معجم"الحشرات"، وهما من القرن الثاني الهجري، ثم تواصل بعد ذلك إلى أت توج ب"المخصص" لابن سيدة وهو أوفي وأشمل معاجم المعاني في اللغة العربية، وقد خصصه صاحبه لدراسة موضوعات تتعلق باللغة، كالنشأة والترادف والتضاد والاشتراك والمجاز...، ومعجم" كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ " لابن الأجدابي....[1]

والشكل التالي يوضح شكل المعاجم العربية:

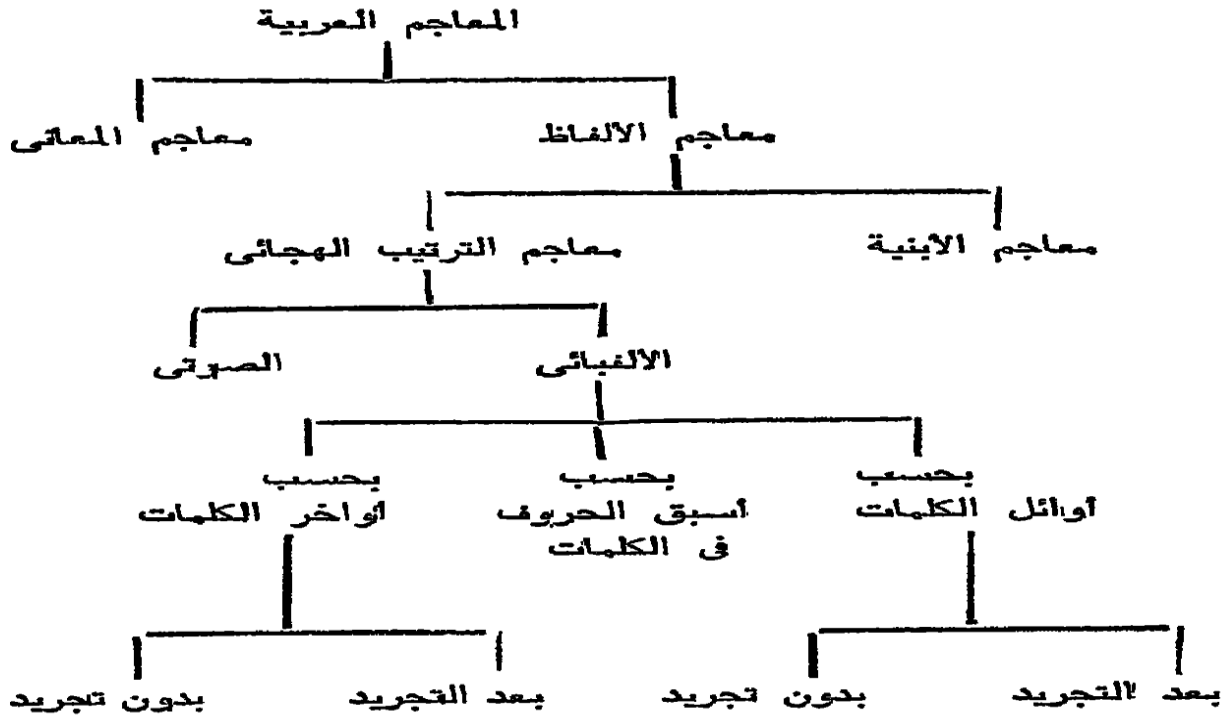

وعلى العموم فإن علماء المعاجم العرب قد رصدوا كلمات اللغة ومورفيماتها تسجيلا للجانب الدلالي للغة، وهو بذلك يتصل أول ما يتصل بالجانب الدلالي للغة، أي أن الظاهرة المعجمية دلالية بالدرجة الأولى، وهذا ما يفيده تصنيف علم الدلالة إلى علم دلالة معجمي وعلم دلالة تركيبي، كما يورثه هذا مشكلات الدلالة المختلفة، وأبرزها تجريدية ظاهرة الدلالة، وعدم اقتصار الظاهرة على مستوى لغوي معين، فالدلالة صوتية وصرفية ونحوية، مع غياب البناء الكلي العام للظاهرة[2].

---

[1] - ينظر: المرجع نفسه، ص288-294.

[2] - ينظر: النظرية اللغوية في التراث العربي، ص249.

المحاضرة الرابعة:(الفكر اللساني في التراث)

تمهيـــــد:

كان الوازع الديني هو المحرك الأساس والدافع الأول للدرس اللساني العربي في بداياته، فكان هدف بحثهم الحفاظ على لغة الذكر الحكيم من اللحن الذي أصبح ظاهرة لا يمكن للعرب الوقوف أمامها مكتوفي الأيدي، وذلك بسبب انتشار الإسلام ودخول غير العرب في رحاب هذا الدين الجديد الذي اختاره الله لعباده المؤمنين، لقد اعتمد النحاة العرب الأولون في بحوثهم الخاصة باللغة العربية على وسائل تحليلية تعتمد بالضرورة على العقل.[1]

ومن الطبيعي القول أنه لم يؤثر عن العرب درس منهجي منظم في القرن الأول لظهور الإسلام، وأغلب ما وصل إلينا هي تأملات نحوية ونقاشات لغوية لم يكن همّها اللغة لذاتها بقدر ما كان غرضها الأساسي خدمة النص القرآني، ومن ذلك محاولة ابن عباسﷺجمع الكلمات الغريبة في القرآن وشرحها، فضلا عن محاولة أبي الأسود الدؤلي في ضبط لغة المصحف[2].

غير أنه وبداية من سنة95 للهجرة حدث أمر حاسم كان له دور بارز في تطور النحو العربي، وهو الشروع في السماع المنتظم والتدوين الواسع لكلام العرب، وبدأ أبو عمرو بن العلاء بهذا الفعل أوّلا الذي تجوّل بين القبائل العربية ثم التحق به جمع من الباحثين الشباب المتعطشين أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي ويونس بن حبيب الضبي والأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري وغيرهم، فتوسع مجال البحث إذ ذاك وتنوعت موضوعاته وتعددت مجالاته وتجاوزت النحو للتناول وحدات المعجم وكل العبارات الجامدة(وهو جزء كبير من المسموع)، وطال مجال البحث كل لغات العرب ولهجاتها التي قد يخرج بعضها عن القياس أو ما سموه "حد الكلام"،وهذا الذي سموه بعلم أو علوم اللغة، واخترع هؤلاء الفطاحل من النحاة نوعا من التحليل لم يسبقهم أحد إليه، وطوروا الوسائل العقلية الساذجة التي ورثوها عن من واضعي النحو الأوائل، فصار القياس البسيط أكثر تجريدا وعمقا[3].

مجالات البحث اللساني عند العرب القدماء:

لقد نشطت الحركة اللغوية عند العرب في مجالات اللغة كافة خدمة للنص الديني، وانطلق كبار أئمة اللغة لجمع المادة اللغوية من البوادي يستمعون ما يتكلم به هؤلاء ويرصدون مخارجه ويصفون طريقة نطقه ويسجلونه ويدونونه في كتبهم، وإن كان بدء التأليف يسير على نحو عشوائي متداخل في غيره من فروع الدراسات اللغوية وغير اللغوية، على شكل مواد لغوية متداخلة الموضوعات والمسائل، وبمرور الزمن أخذ البحث اللغوي يتطور بالتدريج ليصل إلى أوج تقدمه المنهجي وتطوره بعد أن اتجه هؤلاء إلى تبويب المادة اللغوية وتصنيفها وتقسيمها، وكان من محصول ذلك وجود النحو العربي وقواعد اللسان والأساليب البيانية والصور البلاغية وأساليب فصاحة التراكيب والألفاظ وتنقية المفردات العربية مما دخلها من الأعجمي والغريب[4].

ولم يقتصر البحث اللساني عند العرب القدماء على بحث قوانين اللغة بوصفها علما تقنيا يقدم القواعد"الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية" التي تعصم اللسان والقلم من الزلل والخطأ، ولم يقتصر البحث كذلك على وصف اللغة على نحو شبيه بمنهج بانيني، بل إنهم-فضلا عن ذلك-شاركوا في الجدال الفلسفي الدائر حول مسألة نشأة اللغة بين نظريتي التوقيف والاصطلاح كما ورد عند ابن فارس في الصاحبي وابن جني في الخصائص على نحو شبيه بموقف فلاسفة الإغريق واليونان[5].

---

[1] - منطق العرب في علوم اللسان، عبد الرحمان الحاج صالح، موفم للنشر، الجزائر، دط، 2011م، ص7.

[2] - تأصيل النظريات اللسانية الحديثة في التراث اللغوي عند العرب، هدى صلاح رشيد، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2015م، ص22.

[3] - ينظر: منطق العرب في علوم اللسان، ص23.

[4] - ينظر: تأصيل النظريات اللسانية الحديثة في التراث اللغوي عند العرب، ص22-23.

[5] - المرجع نفسه، ص23.

ومن هذه المنطلقات يمكن القول أن التفكير اللساني العربي أفرز نظرية شمولية في الظاهرة اللغوية، لا من حيث هي تقنيات نحوية وصرفية وبلاغية ومعجمية وإنما من حيث هي تنظير للظاهرة اللسانية عموما، ارتكز على نسيجه تفكير العرب في لغتهم أولا وبالذات، ثم في الكلام باعتباره نظاما إبلاغيا مميزا للإنسان بشكل عام، وبحث في مثل هذا الموضوع تتجذر فيه بؤرة الحدث اللساني الذي يخرق أنسجة القواعد المختلفة في منظومة التراث العربي:لغة وأدبا ودينا وفلسفة وعلم اجتماع[1].

أولا: التراث اللغوي:

ويتنوّع هذا التّراث اللّغوي إلى جملة من الأركان[2]:

1- مصنّفات النّحــو: بمفهومه الشّامل لقواعد التّركيب وبنية الكلمات وخصائص الحروف، كما حدّده سيبويه في كتابه المعروف، فالنّحو من هذا المنطلق مصطلح أوسع وأعم مما علق بالأذهان، فهو يدلّ على مستويات اللّغة المعروفة الّتي تعرّض لها النّحاة في سياق واحد، ولهذا السبب فلا نستغرب أن ترد في كتب النّحاة الأوائل آراء في التّركيب والصّوت والصّرف والمعجم والدّلالة، فعلم التّراكيب هو جزء من نحو العربيّة، الّذي يشمل كذلك الصّوت والصّرف والمعجم والدّلالة ، فالجانب النّحوي يشمل تركيب الكلمات وفق قواعد اللّغة، وهذه الكلمات في حقيقتها أصوات مرتّبة بطريقة مخصوصة، وما الحركات الإعرابية إلّا عبارة عن أصوات، والكلمات هي عبارة عن مبان صرفيّة(الميزان الصّرفي)، وكثير من المشتقّات تعمل عمل الفعل، وما حاصل التّركيب غير معان يحسن السّكوت عليها، وهذه المعاني مركّبة من معان معجميّة للكلمات(دلالات مرجعيّة أصلية)، ونتاج عمليّة التّركيب والسّياق والمقام من معان تخصّ المواقف التّواصلية المختلفة الّتي تتحكّم فيها ثقافة الطّرفين والبيئة والعرف...إلخ، وقد يُصيب المعاني المرجعيّة تغيّرات وانزياحات مختلفة بحسب تركيبها والسياق الذي ترد فيه.

وبذلك فالنّحو بهذا المفهوم الواسع يدرس كلّ المستويات كما فعلت اللّسانيات الحديثة وتغنّت به والنّحو بهذا المعنى أصل، والجانب التّركيبي والصّوتي والصّرفي والمعجمي والدّلالي هي عبارة عن فروع عن هذا الأصل وهي-أي اللّسانيات- فاتته فقط بكونها فصلت بينها بشكل واضح، ولو أنّ النّحاة هم أيضًا أدركوا تلك المستويات، وفصلوا بينها فيما بعد، وما يرسّخ هذا المفهوم الواسع للنّحو أنّ اللّسانيات الغربيّة نفسها جنحت فيما بعد إلى هذا المفهوم، فكان مصطلح"النّحو التّوليدي التّحويلي"و"النّحو المعجمي الوظيفي"و"النّحو الوظيفي"...إلخ.

ولأهمية دور النحاة العرب في هذا الصدد أثنت الباحثة والناقدة الفرنسية المشهورة"جوليا كريستيفا" في مقال لها على دور النحاة واللغويين العرب في إثراء الحركة اللغوية وإسهامهم في بحوثها، مبدية استياءها وحسرتها وأسفها العميق على إغفال هذا الجهد الفذ وإهماله من قبل الباحثين في اللسانيات، وقد كتبت في هذا الموضوع فقرة لا يستهان بها، حول إسهام العرب القدامى في مجال الدراسات اللغوية تبين فيها قيمة هذه المساهمة، عنوانها:" La grammaire arabe(النحو العربي)، حيث تقول:«يتبوأ النحو العربي مكانة هامة في صلب مكتسبات التفكير حول اللغة في العصور الوسطى...يقول المثل العربي السائر: إن حكمة الرومان في ذهنهم، وحكمة الهنود في نزواتهم، وحكمة اليونان في روحهم، أما حكمة العرب ففي لسانهم...وتتميز النظرية اللسانية العربية بفكرها الثاقب حول أصوات اللغة لقد درج هذا الفكر على تقسيم الأصوات إلى شديدة ورخوة من جهة، وإلى صفيرية(وهي: ز، س، ص التي تشبه صوت صفير الطائر) وقلقلة(وهي: ق، ط، ب، ج، د، وتجمع في قولنا قطب جد) من جهة أخرى...، لما كان العرب علماء تشريح كبارا، مثل سيبويه، فقد كان لهم فضل السبق في وضع الأوصاف الدقيقة لجهاز النطق، التي أضافوا لها الأوصاف الفيزيائية لحركة الهواء، وقد كان تحليلهم للنظام اللغوي من الدقة ما مكنهم بعد-وربما كانوا الرواد- من التمييز بين بين العنصر الصوتي(الحرف) والعنصر الكتابي(العلامة) للغة، كما أمكنهم تمييزهم للصوامت والصوائت من الاهتداء

---

[1] - ينظر: التفكير اللساني في الحضارة العربية، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس، ط2، 1986م، ص33-34.

[2] - المرجع نفسه، ص34.

إلى حصر مفهومي المصوت والمقطع، هذا وقد عُدّت الصوامت جوهر اللغة، في حين عُدّت الصوائت عوارض...هذا وقد كان لسيبويه، تلميذ الخليل الفضل في بلوغ النحو العربي قيمته ويعدّ مصنّفه "الكتاب"أول تأليف(Systématisation) وتركيب له».[1]

2- أصول النّحـــو: وهو ميدان يتجاوز التّفكير في أنظمة اللّغة إلى البحث عن مؤسّساتها المبدئية، فكان في التّراث النّحوي بمثابة البحث الإبستيمولوجي في علم اللغة، وقد كان روّاده واعين بدرجة التّنظير المجرّد الّذي عليه علمهم ويمكن اختصار أهمية وفائدة هذا العلم في أربع نقاط أساسية[2]:

- استنباط واستخراج قواعد النحو.
- إثبات صحة القواعد.
- تعليل وتفسير الأحكام النحوية.
- الترجيح بين القواعد والمفاضلة بين الآراء النحوية.

فالأصول كما يراها أصحابها هي القواعد العامة أو الأسس المبدئية التي يتخذها النحوي طريقه في التفكير ،وهي كما يرى عبد السلام المسدي ميدان يتجاوز التفكير في أنظمة اللغة إلى البحث عن مؤسساتها المبدئية،وهذا ينطبق على مجموعة من الكتب كالخصائص لابن جني ولمع الأدلة في أصول النحو لابن الأنباري، والاقتراح في علم أصول النحو للسيوطي، وارتقاء السيادة في أصول النحو ليحي الشاوي[3].

عرّف محمّد عيد أصول النحو بقوله:«يقصد بها الأسس التي بني عليها هذا النحو في مسائله وتطبيقاته، ووجّهت عقول النحاة في آرائهم وخلافهم وجدلهم، وكانت لمؤلفاتهم كالشرايين التي تمدّ الجسم بالدم والحيوية»[4]، وقد اعتمد النحاة العرب في تقعيد العربية ووصف بنيتها النحوية ثلاثة أصول شكلت مكونات منهجهم ، وهي السماع، و القياس والتعليل ، و إذا كانت أي نظرية بشكل عام تقوم على بناء عقلي يتوق إلى ربط أكبر عدد من الظواهر الملاحظة بقوانين خاصة تكوّن مجموعة متسقة يحكمها مبدأ عام هو مبدأ التفسير، فإنّ السماع في النظرية النحوية كوّن المادة المدروسة التي لا تشتمل على تجريد ، لأنها لا تتجاوز النقل و الاستقراء. **والسماع اصطلاحا:** وهو أول أصول الاستدلال النحوية والأساس الذي بنيت عليه جل قواعد النحو[5].

وقد عرفه ابن الأنباري، بقوله: « هو الكلام العربي الفصيح المنقول بالنقل الصحيح، الخارج عن حد القلة إلى حد الكثرة، فخرج عنه-إذا-ما جاء في كلام غير العرب من المولدين، وما شذ من كلامهم، كالجزم بلن، والنصب بلم...إلخ[6]»

وعرفه السيوطي تعريفا أكثر شمولا، حيث يقول:« وأعني به، أي (السماع ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته فشمل كلام الله تعالى، وهو القرآن وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، وكلام العرب قبل بعثته، وفي زمنه وبعده، إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين نظما ونثرا عن مسلم أو كافر، فهذه ثلاثة أنواع لا بد في كل منها من الثبوت [7]).

وبالتالي فالسماع هو ما نقله العلماء من نصوص لغوية مرتبة كالتالي: القرآن الكريم بقراءاته المتواترة، ثم الحديث الشريف، ثم كلام العرب شعرا ونثرا[8]، ولكن في حقيقة الأمر فمواقف العلماء من هذه النصوص لم تكن واحدة فقد ذكرنا ذلك سابقا، حيث إن البصريين قد سنوا قلة الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف، لأنه كما قلنا روي بالمعنى لا

---

[1] - من إسهامات العرب القدامى في مجال الدراسات اللسانية، عبد الله أحمد جاد الكريم حسن، شبكة الألوكة:https://www.alukah.net/literature_language/0/95484 ، يوم:2022/10/23 على الساعة:21:30.

[2] - مطبوعة الدروس:مادة أصول النحو، فاطمة عويمر، كلية الآداب واللغات ، جامعة يحي فارس المدية، الجزائر، 2021/2020م، ص5-6.

[3] - ، ينظر: أصول الفكر اللغوي في دراسات القدماء والمحدثين، دراسة في البنية والمنهج، حامد ناصر الظالمي، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط2011م، ص77.

[4] - أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء القرطبي وضوء علم اللغة الحديث، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 1989م، ص5.

[5] - ينظر: مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، د: جعفر نايف عبابنة، دار الفكرللنشر والتوزيع، عمان، ط1،1984م، ص43.

[6] - لمع الأدلة في أصول النحو،ص81 .

[7] - الاقتراح، السيوطي، ص14 .

[8] - مدحل إلى أصول النحو، محمد خان، ص6.

باللفظ، ودخل في روايته كثيرون من الأعاجم الذين لا يؤمنون على اللحن[1] ، غير أن هذا الرأي لقي حظه من النقد والرد، لأن رواية الحديث اعتمد فيها أهلها معايير صارمة، كما أن الأحاديث كما هو معروف ليست على درجة واحدة.

ولقد كان هدف هؤلاء:

1- المحافظة على قدرة المسلم في قراءة القرآن الكريم، وفهمه واستنباط الأحكام منه.

2- حماية اللغة العربية من اللحن وتحصين الناطقين بها نظرا لخطورة تفشي اللحن على الأمة.

3- حماية العربية من لغات الأمم الأخرى، والتي دخل أهلها في الإسلام.[2]

أما القياس فقد نهض بترتيب المادة المدروسة و تصنيفها وفقا لضوابط توصل إلى الحكم، وذلك بإخراج المادة المشتتة في صورة منظمة تساعد على وضع قواعد تصفها، وتفسرها. والقياس **اصطلاحا**:يقصد به في علم اللغة والنحو أن نجعل كلامنا على مثال ما تكلم به العرب ونطقوا، وأن نحمل كل ما تدعو إليه الحاجة من استعمال جديد أو صيغة جديدة على ما سمع منها، وروي عنهم، وعرفناه من طرائقهم في فنون القول[3].

وقد عرفه النحاة تعريفا قريبا من الفقه، فقالوا: «هو عبارة عن تقدير الفرع بحكم الأصل ، أو هو حمل فرع على أصل بعلة، وإجراء حكم الأصل على الفرع، أو هو إلحاق الفرع بالأصل بجامع ، أو هو اعتبار الشيء بالشيء بجامع[4]».

وعرفه ابن الأنباري في كتابه جدل الإعراب، بقوله: « هو حمل غير المنقول على المنقول، إذا كان في معناه »، ويقول: «أن إنكار القياس لا يتحقق، لأن النحو كله قياس...فمن أنكر القياس، فقد أنكر النحو ، ولا نعلم أحدا من العلماء أنكره لثبوته بالدلائل القاطعة[5] ».

ويستشف من كلام النحاة القدامى أنهم شغفوا بالقياس، وفتنوا به حتى طغى على منهجهم، وأصبح سمة لكبارهم[6]، لدرجة قول ابن جني: « مسألة واحدة من القياس أنبل من كتاب لغة عند عيون الناس[7]».

وقد جعله الكسائي النحو نفسه، فقال:

إنما النحو قياس يتبع وبه في كل علم ينتفع[8].

فهذه العبارات تترجم مقدار عناية العلماء به، بل قرر بعضهم أنه مما انعقد الاجماع عليه، وإن العودة إلى كتب المطولات تظهر مدى تحكم الأقيسة في الأمثلة، وفي المناقشات[9].

وهكذا انطلق جمهور العلماء مقتنعين بضرورة إجراء القياس على الكلام العربي ، ومذهبهم في ذلك، « ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب[10]»، فلا أحد يدعي أنه سمع كل فاعل ومفعول، وإنما سمع بعض الكلام فقاس عليه غيره، فإذا سمعت قام زيد، أجزت ظرف بشر، وكرم خالد[11].

وقال ابن جني: « فإن الأعرابي، إذا قويت فصاحته، وسمت طبيعته، تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله به فقد حُكي عن رؤبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظا لم يسمعاها، ولا سُبقا إليها [12]».

---

[1] - المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص80.

[2] - ينظر: مدخل إلى أصول النحو، محمد خان، ص6.

[3] - مكانة الخليل بن أحمد الفراهيدي في النحو، جعفر نايف عبابنة، ص59.

[4] - لمع الأدلة، ص93.

[5] - لمع الأدلة، ص95

[6] - ظاهرة قياس الحمل في اللغة العربية، عبد الفتاح علي البجة، ص579.

[7] - الخصائص، ابن جني، د2، ص88.

[8] - لمع الأدلة، ص93.

[9] - ينظر: أصول النحو في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء غلم اللغة الحديث، محمد عيد، 69.

[10] - الخصائص، ابن جني، ج1، ص 357، وج2، ص25.

[11] - مدخل إلى أصول النحو، محمد خان، ص40.

[12] - الخصائص، ابن جني، ج2، ص25.

وأما التعليل فقد جاء قسيما للقياس، هذا الأخير الذي يتجاوز تقرير الظواهر النحوية إلى التماس حكمة العرب في الإتيان بها على هذا الوجه المخصوص. والعلة النحوية **اصطلاحا:** هي وصف يكون مظنة وجه الحكمة في اتخاذ الحكم[1]، وهي الركن الرابع من أركان القياس، وهي التي تبرر الحكم وتوجهه، فهي بذلك عنصر أساس في عملية المقايسة، وهي سبب الظاهرة المدروسة، وقد كان النحاة يعللون لإعرابهم بالعلة الظاهرة، كعلة الإسناد بين الفاعل ونائب الفاعل، لذلك يقاس الثاني على الأول، ومادام حكم الفاعل الرفع قيس عليه نائب الفاعل ، فكان حكمه الرفع كذلك[2].

- التعليل اللغوي يهتم أساسا بالحالات الإعرابية لأواخر الكلمات إلى جانب كثير من الظواهر اللغوية، كحذف بعض حروف الكلمة، أو استبدالها، تغيير صيغة الكلمة، وغير ذلك من الظواهر اللغوية.[3]

ولقد كان عبد الله بن أبي إسحاق أول من نهج العلل، وقد تبعه في الاهتمام بالعلة تلاميذه ومعاصروه، حتى صارت المطالبة بها أمرا مألوفا، وأصبحت أمرا خلافيا بين النحاة والشعراء[4]، ومن أمثلة ذلك أن أبا عمرو بن العلاء لما سمع قول الشاعر:

حتى تحاجزن عن الذواد تحاجز الري ولم تكادي

سئل أبو عمرو بن العلاء لم قال: تكادي، ولم يقل: تكد ، والفعل مجزوم بلم؟، فقال: لأنه يقصد لم تكادي أيها الإبل[5]، أي أن الياء للمخاطبة فلا تحذف للجزم بلم[6].

لقد كانت العلل قبل الخليل بسيطة تساعد على فهم كلام العرب، ويدور معظمها حول العامل، كما يدور بعضها حول المعنى الذي توخاه الشاعر أو القائل بذهابه إلى وجه معين من الإعراب، أو استعماله استعمالا خاصا، غير أن الذي روي لنا من تعليلات تلك الفترة قليل جدا، وهو يشير على الرغم من ذلك إلى أن العلة حتى عصر الخليل كانت عربية محضة نابعة من طبيعة اللغة، وليس فيها أثر للمنطق، أو جموح للخيال بعيدا عن الواقع اللغوي المستعمل[7].

وقد ظهر هذا الأمر جليا في كتاب سيبويه ، إلا أنه توسع بعد ذلك وتشعب، فكان لابن جني اليد الطولى في توسيع الجدال والحجاج، ويظهر ذلك جليا في كتابه الخصائص الذي يعتبر علامة واضحة في طريق الجدل والحجاج والتعليلات الفلسفية نتيجة ظروف العصر[8].

ويمكن أن نذكر مثالا لابن جني يثبت ذلك، حيث يقول:« قال أبو إسحاق في رفع الفاعل ونصب المفعول إنما فعل ذلك للفرق بينهما، ثم سأل نفسه، فقال: فإن قيل: فهلا عكست الحال فكانت فرقا أيضا؟ قيل الذي فعلوه أحزم، وذلك أن الفعل لا يكون له أكثر من فاعل واحد، وقد يكون له مفعولات كثيرة ، فرفع الفاعل لقلته، ونصب المفعول لكثرته، وذلك ليقل في كلامهم ما يستثقلون، ويكثر في كلامهم ما يستخفون[9].»

لقد متن النحاة صلة العلة بالمنطق والفقه، ورتبوا قضاياها ومسائلها على غرارهما، وأكثروا من تقسيماتها وتفريعاتها، وكان من آثار صلتها القوية بالمنطق أن فلسفوا بها النحو حتى صارت له فلسفة خاصة، عدت فرعا من

---

[1] - ينظر: طبقات النحويين واللغويين، ص25.

[2] - ينظر: مدخل إلى أصول النحو، محمد خان، ص55.

[3] - ينظر: التعليل اللغوي عند الكوفيين مع مقارنته بنظيره عند البصريين، دراسة إبستمولوجية، د:جلال شمس الدين، توزيع مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية،دط،1994م، ص11.

[4] - ينظر: مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، جعفر نايف عبابنة، ص86.

[5] - ينظر: طبقات النحويين واللغويين، ص32.

[6] - مكانة الخليل بن أحمد في النحو، جعفر نايف عبابنة، ص87.

[7] - المرجع نفسه، ص87.

[8] - ينظر: محاضرات في أصول النحو ،د:التواتي بن التواتي، مطبعة رويغي، الأغواط، ط 1،2006م، ص279-280.

[9] - الخصائص، ابن جني، ج1، ص49..

فروع الفلسفة الإسلامية، وقد اختلفوا اختلافات واسعة ما عاد على النحو بالضرر، ولم يعد الهدف فهم كلام العرب وقول أئمة النحو[1].

ويشكل العامل بتظافره مع الأصول الثلاثة السابقة ، البنية العامة لنظرية النحو العربي، و يكاد ينعقد إجماع النحاة القدامى على أن ظواهر النحو في حركات الإعراب، بمدلوليه المعنوي و اللفظي، و متغيرات التراكيب، إنما هي أثار لعوامل[2]. **–والعامل اصطلاحا:** يمكن أن نذكر ما يلي:

-"ما أوجب كون آخر الكلمة على وجه مخصوص من الإعراب "[3].

-"العامل النّحوي هو الذي يعمل في غيره؛ فيؤثر في حركة آخره، إن كان معربا، و في محله إن كان مبنيّا"[4]

- "العامل هو الكلمة الملفوظة، أو المقدّرة التي تملك القدرة على التّأثير في الكلمات التي تقع بعدها من الناحية الشّكلية و الإعرابية"[5].

ومن هنا، فالعامل النّحوي هو الفكرة الجوهرية التي تأسّس عليها عمل النحاة العرب، و يعني القدماء بالعامل، العنصر اللّغوي الّذي يؤثر لفظا و معنى على غيره، كالأفعال مثلا، فهو معقول من منقول[6]، وقد أجمع النحاة على اعتماد العامل النّحويّ، مع وجود بعض الاختلافات في تحديد العوامل، و نوع إعمالها ومعمولاتها، فقسّم العامل إلى لفظيٍّ و معنوي، و اللفظي إلى قياسي و سماعي.

يقول ابن جني :"و إنما قال النحويون : عامل لفظي وعامل معنوي ليروك أن بعض العمل يأتي مسببا عن لفظ يصاحبه، كمررت بزيد، وليت عمرا قائم، وبعضه يأتي عاريا من مصاحبة لفظ يتعلق به، كرفع المبتدأ بالابتداء و رفع الفعل ...، إنما قالوا لفظي و معنوي، لما ظهر آثار فعل المتكلم بمضامَّة اللفظ للفظ، أو باشتمال المعنى على اللفظ، وهذا واضح "[7].

فالعامل اللفظي، كما قال ابن جني أن بعض العمل يأتي مسببا عن لفظ يصحبه"[8].أما المعنوي، فهو ما ليس لفظا سماعيا ولا قياسيا؛ أي:"هو ما لا يكون للسان حظ فيه، وإنما هو معنى يعرف بالقلب "[9]

3- الموروث البلاغي: وهو من أغزر المواريث في الحضارة العربيّة، سواء منه الجانب الفنّي كبديع ابن المعتز وبديع ابن منقذ وبرهان ابن وهب وبرهان الزملكاوي، ومفتاح السكاكي، أو الجانب النّقدي الأدبي كعمدة ابن رشيق ومنهاج القرطاجنّي وشعراء ابن قتيبة ونقد قدامة، أو الجانب الكلامي كقضيّة الإعجاز على مذهب المعتزلة أو الأشاعرة، وقد برز في هذا المجال الجرجاني والخطّابي والرّمّاني.

وسنسلط الضوء عن مدرستين بارزتين في هذا المجال:

***- مدرسة النظم للجرجاني:**

النظم عند الجرجاني هو تعليق الكلم بعضها بسبب ببعض، وصور هذا التعلّق ثلاثة: اسم مع اسم، كالمبتدأ والخبر، فعل مع اسم، كالفعل وفاعله، وتعلّق الحرف بالاسم أو الفعل، وتوخي معاني النحو في ذلك، يقول الجرجاني: «اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها»[10].

---

[1] - ينظر: مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، جعفر نايف عبابنة، ص104-105.

[2] - ينظر: نظرية العامل في النحو العربي و دراسة التركيب ، د : عبد الحميد مصطفى السيد ، مجلة جامعة دمشق ، المجلد 18 ، العدد (3 + 4) ، 2002 م ، ص 46.

[3] - التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، ط ج، 1985م، ص150.

[4] -العوامل النحوية للجرجاني، تحقيق وشرح محسن محمد معالي، مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع الأسكندرية، دط، 2009م، ص9.

[5] - معجم المصطلحات النحوية والصرفية، محمد سمير اللبدي، دار الثقافة، الجزائر،دط، دت، ص160.

[6] - الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق الدكتور أحمد قاسم، مطبعة السعادة، القاهرة، ط1، 1976، ص03.

[7] - الخصائص، ابن جني، ج1، ص 109-110.

[8] - المصدر نفسه، ص110.

[9] - التعريفات، الجرجاني، ص150.

[10] - دلائل الإعجاز، ص81.

لقد عكس كتاب دلائل الإعجاز لصاحبه عبد القاهر الجرجاني نظرية أطلق عليها صاحبها " نظرية النظم" كأساس لتركيب الكلام انطلاقا من الجملة البسيطة وصولا إلى النظم القرآني في تراكيبه الإعجازية"الصوتية والنحوية والبلاغية والدلالية، وهو تّأليف الحروف والكلمات والجمل تأليفا يسمح للمتكلم والسامع معا أن يرتقيا إلى مدارك الإعجاز في المعاني، وهذه المعاني غير محدودة واختيار تركيب معين كاختيار مسلك من المسالك برا أو بحرا، وقد يؤدي هذا بالمتكلم إما إلى الوصول(المعاني المقصودة) أو إلى الضلال(معان غير مقصودة)، فالنظم أشبه بالبناء والنسيج الذي يعضد بعضه بعضا، فإذا نسجت خيوط الطول في خيوط العرض حصل النظم[1].

وعلى العموم يمكن تلخيص أسس هذه النظرية فيما يلي[2]:

أ- النظم هو توخي معاني النحو: يقول الجرجاني« فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظمه أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل، إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتّصل بباب من أبوابه»[3].

ب- لا فصاحة للكلمة المفردة: فلا تفاضل بين الألفاظ مفردة بل عند ملاءمة معناها لمعنى اللفظة التي تليها في الكلام في علاقة تأثير وتأثر، يقول الجرجاني: «واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك ، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلّق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس»[4].

ج- التفريق بين اللفظ والمعنى وتبيين حد كل واحد منهما، فالألفاظ عنده رموز للمعاني وما اللفظ إلا وعاء للمعنى مفندا المبالغات التي تفضل أحدهما عن الآخر، مؤكدا أن البلاغة لا يمكن أن تكون في المعنى دون اللفظ أو اللفظة المفردة دون التأليف، يقول الجرجاني: « واعلم أني على طول ما أَعدتُ وأَبدأتُ وقُلتُ وشَرحتُ في هذا الذي قام في أوهام الناس من حديث اللفظ...وإطلاق اللفظ من غير معرفة بالمعنى...والذي له صاروا كذلك، أنهم حين رأوهم يفردون "اللفظ" عن "المعنى"، ويجعلون له حسنا على حدة، ورأوهم قد قسّموا الشعر فقالوا: "أن منه ما حسن لفظه ومعناه، ومنه ما حسن لفظه دون معناه، ومنه ما حسن معناه دون لفظه"ورأوهم يصفون اللفظ بأوصاف لا يصفون بها المعنى، ظنوا أن للفظ من حيث هو لفظ حُسنًا ومزية وشرفا، وأن الأوصاف التي نحلوه إياها هي أوصافه على الصحة...وهو أن يفصلوا بين المعنى الذي هو الغرض، وبين الصورة التي يخرج فيها، فنسبوا ما كان من الحسن والمزية في صورة المعنى إلى اللفظ... »[5].

د- مرعاة الجانب النفسي والعقلي في الكلام: حيث يرى بأن ترتيب الألفاظ حين نطقها مطابق لترتيب معانيها في النفس وهي عملية فكرية ذهنية عقلية واضحة.

هـ- تفريقه بين المعنى ومعنى المعنى: يقول الجرجاني: « الكلام ضربان: أحدهما تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ والآخر لا تصل إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ بمعناه في اللغة، ثم تجد لهذا المعنى دلالة أخرى تصل بها إلى الغرض وعلى هذا مدار الكناية والاستعارة والتمثل ، فهذا هو المعنى ومعنى المعنى »[6]، وقوله«ومن الصفات التي تجدهم يجرونها على اللفظ، ثم لا تعترضك شبهة ولا يكون منك توقّف في أنّها ليست له ولكن لمعناه، قولهم:"لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه، ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك"، وقولهم:"يدخل في الأذن بلا إذن"فهذا مما لا يشك العاقل في أنه يرجع إلى دلالة المعنى على المعنى، وأنّه لا

---

[1] - ينظر: اللسانيات العربية نشأتها تطورها آفاقها المستقبلية، فريد خلفاوي، منشورات مخبر بحوث في الأدب الجزائري ونقدة بجامعة الوادي، مطبعة الأمل المشرق،، الوادي الجزائر، ط1، 2022م، ص66-67.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص67.

[3] - دلائل الإعجاز، ص83.

[4] - المصدر نفسه، ص55.

[5] - المصدر نفسه، ص365-366.

[6] - المصدر نفسه، ص676(في الفهرس).

يتصوّر أن يراد به دلالة اللفظ على معناه الذي وضع له في اللغة...وأنهم أرادوا أن من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلا على المعنى الثاني ووسيطا بينك وبينه متمكّنا في دلالته...ويشير لك أبين إشارة، فكان من الكناية... والاستعارة...والتمثيل».[1]

***- المدرسة الشمولية للسكاكي:**

جمع السكاكي(ت626ه) فروع اللغة المختلفة في كتاب واحد سماه"مفتاح العلوم، وقد أطلق الباحث الجزائري محمد الصغير بناني على السكاكي بأنه "صاحب مدرسة اللسانيات الشمولية"، يقول بناني:"ويطمح السكاكي في مفتاحه إلى النفاذ إلى جميع العلوم اللسانية والغيبية، فإن كان من اللسانيين القدماء من يستحق اسم مدرسة فهو السكاكي، نظرا لكثرة أتباعه وإقبال المنظرين على ما تناوله كتابه بالشرح والتطبيق"[2] ، وقد شبه السكاكي علوم اللغة بالشجرة أصلها قواعد اللغة الثابتة وفروعها ممتدة لكل أصناف الكلام الذي أعلى مراتبه الإعجاز، يقول بناني:«والتطور يشمل أولا فرعين: النحو والصرف، ثم يرتقي النحو والصرف إلى درجة البلاغة، فيخلف علم المعاني النحو وعلم البيان الصرف، ويخلف مقتضى الحال في البلاغة مقتضى الوضع في النحو بإدراج المنطق والاستدلال في العملية عملية التحويل كما يدرج مع مقتضى الحال مقتضى المقام ومقتضى المقال ويرتقي من البلاغة إلى علم الأسلوب في مستوى علم البديع، فيخلف البيان المحسنات اللفظية والمعاني المحسنات المعنوية، ولا يعرف العلماء عندنا حتى الآن أن انتقال السكاكي من البيان إلى المعاني ليس شيئا آخر سوى انتقال من علم البلاغة إلى علم الأسلوب الذي أصبح علما قائما بذاته اليوم وجعل الكثير من الأدباء واللسانيين لا يميزون بين اللطائف الدقيقة في البلاغة والأسلوب، وجعلهم يعدون الوجوه البديعية زبدا رابيا يذهب جفاء ولا ينفع الناس، وقد أسهم بعض أصحاب البديع بتصنعهم وتكلّفهم في تأكيد هذا الانطباع، وبعد البديع يرتقي الكلام إلى مرتبة الشعر مع العروض والقافية، فالعروض يخلف التراكيب النحوية والمعنوية والقافية تخلف البيان، وعند اكتمال هذه الطبقات كلها، ينتقل الكلام إلى الأدبية...وليس فوق الأدب إلا الإعجاز»[3].

ويذكر السكاكي هذه العلوم بهذا الترتيب قائلا: « وإنما أغنت هذه لأن مثارات الخطأ إذا تصفحتها ثلاثة: المفرد، والتأليف، وكون المركب مطابقا لما يجب أن نتكلم له. وهذه الأنواع بعد علم اللغة هي المرجوع إليها في كفاية ذلك ما لم يتخط إلى النظم، فعلما الصرف والنحو يرجع إليهما في المفرد والتأليف، ويرجع إلى علمي والبيان في الأخير، ولما كان علم الصرف هو المرجوع إليه في المفرد أو فيما هو في حكم المفرد، والنحو بالعكس من ذلك »[4].

إن المبدأ الذي يقوم عليه فكر السكاكي هو التكامل بين المستويات والعلوم اللغوية، ذلك أن فصلها تماما هو نسج من الخيال، فكل فرع يعتمد على الآخر ويبني على نتائج بحثه وخلاصته للاستفادة منها في معالجة قضايا الفروع الأخرى وتوضيحها، فالصرف لا يمكن عزله تماما عن النحو، ذلك أن الثاني(النحو) في أمس الحاجة للأول(الصرف)، وكلاهما يلتمس المعونة من الصوت[5] وكلها تشترك في خدمة المعنى والدلالة، وهكذا تتدرج المستويات والعلوم اللغوية من القاعدة(قواعد اللغة الثابتة من صرف ونحو) مرورا بعلوم البلاغة وصولا إلى الأسلوب فالأدب بصنوفه وخصائصه وصولا إلى قمة ذلك وهو الإعجاز .

د- جملة المعاجـــم: وهي المعاجم الّتي دوّنت في اللّغة وكان أصحابها يتطرّقون في مقدّمات مصنّفاتهم أحيانًا وفي صلب موادّهم اللّغويّة أحيانًا أخرى إلى قضايا جوهريّة في تقدير الظّاهرة اللّغوية، وقد سبق التفصيل في موضوع المعجم.

---

[1] - المصدر السابق، ص267-268.

[2] - المدارس اللسانية في في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، دار الحكمة ، الجزائر، 2001م، ص44.

[3] - المرجع نفسه، ص42-43.

[4] - مفتاح العلوم، السكاكي، ضبط وتهميش وتعليق: علي زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987م، ص8.

[5] - ينظر: اللسانيات في "مفتاح العلوم للسكاكي"بين التنظير والتأصيل(مقال)، كلثوم حسروف، مجلة اللغة العربية، المجلد:23، العدد:4، جامعة البليدة، الجزائر، الثلاثي الثالث2021، ص67.

ثانيا: التراث الأدبي:

هو التراث الأدبي بمفهومه الواسع سواء ما كان أدبا خالصا للوجدان، أو أدبا تأمّليّا، ومن ذلك ما دونه الجاحظ من البيان والتبيين والحيوان ورسائل الجاحظ، ومنظومة التوحيدي إمتاعا ومقابسات وهوامل، ومصنفات ابن حزم والقاضي الجرجاني وغيرهم كثير، وسنسلط الضوء على عمل الجاحظ:

***- المدرسة البيانية للجاحظ:**

انفرد الجاحظ في مدونته الأدبية بكثير من الأفكار والمرتكزات الفكرية الرائدة في عصره والتي لا زالت تحتفظ بقيمتها العلمية في يومنا الحاضر، فقد تميز بوعي عميق ونظرة علمية ثاقبة للقضايا الفكرية والأدبية عامة واللسانية بشكل أخص[1]، ويظهر ذلك في كتابه"البيان والتبيين"، فإذا كان البيان يعبّر عن ظاهرة لسانية إنسانية تمثل رسالة حملها الإنسان من الله تعالى، فهي ظاهرة غيبية، إلاّ أنّ التبيين عند الجاحظ وصف للعلاقات اللسانية التي تجمع طرفي الخطاب(المتكلم والمخاطب) وهي تنقل البيان إلى بلاغة والكلام إلى رسالة مع ما تشتمله الرسالة من إلقاء وتلق ورموز وحال ومقال ومقام كما ترى اللسانيات اليوم[2].ولقد ضمّن الجاحظ كتابيه "البيان والتبيين" و"الحيوان" حقيقة الكلام وكيف نشأ وتطور وعلاقته بالإنسان منذ بداية الخلق إلى كونه بلاغة في سياسة الكون ، معتمدا في ذلك على ما ورد في الذكر الحكيم[3].

تكلّم الجاحظ عن أنواع الدلالات وحصرها في خمسة عناصر ذكرها في قوله: « وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد، أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال الّتي تسمى نِصبة، والنِّصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصِّر عن تلك الدلالات، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبها، وحيلة مخالفة لحيلة أختها»[4] إن هذه العناصر منبثقة بعضها من بعض في تطور مستمر وصولا إلى الصيغة النهائية أو ما يعرف بالعالم الصغير أو النهائي، فاللفظ ينحدر من الإشارة والإشارة من العقد والعقد من الخط والخط من النصبة[5].

أ- اللفظ: معتبرا الصوت آلته والجوهر الذي يقوم به التقطيع ويوجد به التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف، وهو هنا يقر بأن الألفاظ هي أصوات مخصوصة وتحمل دلالة عند تأليفها وجمعها بطريقة مخصوصة وهو يشبه رأي ابن جني في تعريفة للغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم[6].

ب- الإشارة: وقد اعتبرها شريكة اللفظ وأحسن سند له فهي توضح معاني الألفاظ وتبرزها، كالإشارة باليد أو الطرف أو الحاجب وغير ذلك من الجوارح، وتظهر أهمية الإشارة أكثر في كونها قد تنوب اللفظ وتعوضه[7].

ج- الخط: وهو الكتابة والتدوين والقلم أحد اللسانين وهو أبقى أثرا من الكلام المنطوق واللسان أكثر هذرا، ويعتبر الجاحظ أن اللسان مقصور على القريب الحاضر والقلم والكتابة مطلق في الشاهد الحاضر القريب والغائب البعيد، والكتاب يُقرأ بكل مكان ويُدرس في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوزه إلى غيره[8].

---

[1] - ينظر: مباحث في اللسانيات، أحمد حساني، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، دط، 1999م، ص146.

[2] - ينظر: اللسانيات العربية نشأتها تطورها آفاقها المستقبلية، ص64-65.

[3] - ينظر: المدارس اللسانية في التراث اللغوي العربي وفي الدراسات الحديثة، ص17.

[4] - البيان والتبيين، ج1، ص76.

[5] - ينظر: اللسانيات العربية نشأتها تطورها آفاقها المستقبلية، ص65-66.

[6] - ينظر: المصدر نفسه، ص79.

[7] - ينظر: المصدر نفسه، ص78-79.

[8] - ينظر: المصدر نفسه، ص79-80.

د- العقد(الحساب): يقول الجاحظ: «والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة، ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل معنى الحساب في الآخرة، وفي عدم اللفظ وفساد الخط والجهل بالعقد فساد جل النعم، وفقدان جمهور المنافع، واختلال كل ما جعله الله عز وجلّ لنا قواما ومصلحة ونظاما»[1].

هـ- الحال(النِّصبة): يقول الجاحظ: «وأمّا النِّصبة فهي الحال النّاطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد وذلك ظاهر في خلق السماوات والأرض، وفي كل صامت وناطق وجامد ونام، ومقيم وظاعن، وزائد وناقص، فالدلالة التي في الموات الجامد، كالدلالة التي في الحيوان الناطق، فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان...وما دلّ الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتا، وأشار إليه وإن كان ساكتا وهذا القول شائع في جميع اللغات»[2].

ثالثا: التراث الديني:

وتتنوع مصادره التي تناولت القضية اللغوية إلى أصناف ثلاثة[3]:

1- كتب أصول الفقه:وقد عالج أصحابها المشكل اللغوي في سنهم لقواعد التشريع واستنباط الأحكام، وأبرزهم على طريقة الظاهر بن حزم الأندلسي لا سيما في مجموعته"الإحكام في أصول الأحكام"، وعلى الطريقة الأشعرية لأبي حامد الغزالي في "المستصفى" الذي اكتمل معه علم الأصول.

2- التفاسير: حيث يستطرد المفسرون عادة في تقديرات لغوية عامة وفي تحاليل نظرية عندما يواجهون تفسير بعض الآيات المتصلة بنشأة الكلام أو بخلق الإنسان، وقد تميزت حركة التفسير في تاريخها بالجدل المواكب لحركة المذاهب الدينية والكلامية. هذا ويعد تفسير الطبري قمّة التفكير بالمأثور وبداية أدب التفكير القرآني، وكان على المذهب السني الصّريح في مقابل أهل الرأي المعتزلة خاصّة عند القول بالمجاز في القرآن الكريم، كما يعدّ تفسير الكشّاف للزمخشري- نموذج التفسير الانعزالي- الذي زخر بمقارعة خصومه الأشاعرة داعيا إياهم بالمجبرة والحشويّة والمشبّهة والمبطلة، في مقابل نعت أصحابه بالعدل والتوحيد وبالفئة الناجية العدلية.

3- علم الكلام: وهو يعدّ نقطة تقاطع الثقافة الإسلامية عقيدة وتشريعا ومنطقا، حيث ازدهرت فيه مناهج الجدل والمناظرات، كان أساسها قضايا عقائدية محورها الظاهرة اللغوية أولا وبالذات في نشأتها ومنشئها واتصاف الخالق والمخلوق بها، ولم يتصارع الفكر الإسلامي في شيء تصارعه في علم الكلام، وانقسم إلى سنة ومعتزلة، وانقسم بعدها كل فريق إلى فرق وطوائف، ويمثل التفكير الاعتزالي نموذجه الأوفى بلا منازع القاضي عبد الجبار في موسوعته العجيبة"المُغني في أبواب التوحيد والعدل"، بينما يمثل المذهب الظاهري ابن حزم الأندلسي في مدوّنته"الإحكام في أصول الأحكام"، وكذلك أبو الفتح الشهرستاني في مدونته"نهاية الإقدام في علم الكلام"، أما التفكير الأشعري الداحض لنظريات الاعتزال فيمثله سيف الدين الآمدي في منظومته"غاية المرام في علم الكلام".

رابعا: التراث الفلسفي:

التراث الفلسفي بأقسامه المختلفة من طبيعيات وإلاهيات ومنطق ومناظرات بين الفلاسفة ورجال الدين، ومن البديهي أن تكون القضية اللغوية قد مثلت ركنا ركينا قارّا في تفكير هؤلاء، لا سيما في أبواب المنطق من "المداخل والمقولات" إلى "القياس" و"البرهان" حتى "الخطابة" و"الشعر"، على أنهم قد عرّجوا عليها أيضا في تصدّيهم لمعضلة النفس ومراتبها بحثا عن أصول نظرية المعرفة. ويمثل هذا الصنف موسوعة ابن سينا ومدونة الفارابي وتصانيف ابن رشد دون إهمال الفلاسفة المتديّنين كأبي حامد الغزالي في "معيار العلم"[4].

---

[1] - المصدر نفسه، ص80.

[2] - المصدر نفسه، ص81-82.

[3] - ينظر: التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص35-36.

[4] - ينظر: المرجع نفسه، 36.

خامسا: علم الاجتماع:

وتنفرد مقدّمة ابن خلدون بتمثيل هذا الصنف، حيث يمثل صاحبها نمطا فريدا من نوعا في التفكير، فمقدّمته المعروفة إلى جانب تولّدها عن علم مبتكر هو علم العمران أو الاجتماع الإنساني، وهي تعدّ نموذجا لفلسفة المعارف في التراث العربي إنها منظومتهم الإبستيمولوجية الأصولية التّي ختمت من أعلى قمّة الاكتمال في الغوص والتجريد حلقة حضارية في تاريخ الإنسانية، فلقد حاول ابن خلدون تقديم نظرة شمولية في القضية اللغوية تتسم بالجدّة والطرافة، والذين جاؤوا من بعده إنما اقتصروا على تناقل الموروث على غرار السيوطي الذي امتلك ثقافة واسعة وفكرا ثاقبا لكنه اكتفى بنقل التراث وجمعه[1]، ولذا سنسلط الضوء على نظريته في هذا السياق المسماة" المدرسة الارتقائية".

***- المدرسة الارتقائية لابن خلدون:**

في نطاق الاهتمام بالعمران البشري وما يقوم عليه من تعامل وتفاعل بين البشر لا يمكن لصاحب المقدمة أن يغفل عن ركن من أركان الاجتماع البشري وعامل من العوامل التي لا يتم بدونها نعني اللغة واللسان[2]. أمّا تسمية الارتقائية فهي نظرية تدّعي الثقافة الغربية أن داروين اكتشفها منتصف القرن التاسع عشر، غير أن الباحث عند تحليله لفكر ابن خلدون يكتشف جليا أنه إليها أسبق، وهذه النظرية مبنية عند ابن خلدون على خمس طبقات متراصفة يعبّر عنها بالطور، وهو عنده كالحال عند البلاغيين الذين أخذوه من المتصوفين، وقد استعمله ابن خلدون لبناء نظرية التحصيل التي تنصّ على أن المعنى ينشأ أول ما ينشأ عن الفعل وإذا تكرر صار صفة راسخة وإن تكررت الصفة صارت حالا[3].

إن الكلام عند ابن خلدون يرتقي بالتدريج على النحو التالي: في الأسفل تكون الدلالات التي لا تحدد أبعادها إلا في الشبكة النحوية، وهذه الأخيرة(الشبكة النحوية) تظهر قيمتها الكلامية إلا إذا أدرجت في الطبقة التي تعلوها وهي الطبقة البلاغية(مراعاة الكلام لمقتضى الحال عند البلاغيين)، والطبقة البلاغية ترتقي إلى طبقة الأسلوب والتي هي عبارة بلاغية وبديع(إبداعات المتكلم)، والأسلوب من العلامات الدالة على شخصية المتكلم[4].

وهذا النظام الخماسي يجري في تسلسل مطرد من أسفل إلى أعلى صعودا-كما سبق ذكره-ومن أعلى إلى أسفل نزولا في صورة هرمية أو على شكل شجرة أصلها ضيق وهو واسع، وفرعها واسع وهو ضيق دقيق، هذه الشجرة هي المنوال الذي رصدت فيه جميع المعاني التي تعمر الكون كلمات كانت أم أشخاصا وأشياء[5] والمنوال عند ابن خلدون هو صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة تتسم بالاتساع(كلية تعطي عدة خيارات)، وهذه الصورة الذهنية هي الوجه الخفي للنص(الكلام)، وهي المرآة العاكسة لشبكاته التي انتزعها الذهن من أعيان التراكيب، وأعاد صياغتها وتركيبها من جديد بما يعكس قصده ومراده، وهي تظهر وتتجلى في النص الذي نوظفه على النحو الذي يراعي مقتضى حال الكلام[6].

لقد استخدم ابن خلدون هذا المنوال ليعبّر عن التركيب الواسع الذي يشمل جميع التراكيب الممكنة، وترص فيه جميع ما ينسج من كلام فصيح وبليغ، ويقابل هذا المنوال المضمار الذي هو عبارة عن صورة مصغرة ودقيقة للمنوال منشؤها الذوق ومسكنها القلب، وهو بعيد المدارك وصعب المنال تتجلى في الإعجاز في النص القرآني[7].

وقد مثل الباحث الجزائري محمد الصغير بناني لشجرة البلاغة والعمران عند ابن خلدون بالشكل الهرمي التالي[8]:

---

[1] - ينظر: المرجع السابق، ص36-37.

[2] - أعلام وآثار من التراث اللغوي، عبد القادر المهيري، دار الجنوب للنشر، تونس، دط، دت، ص145.

[3] - ينظر: المدارس اللسانية في التراث اللغوي العربي وفي الدراسات الحديثة، ص53.

[4] - ينظر: المرجع نفسه، ص53.

[5] - اللسانيات العربية نشأتها تطورها آفاقها المستقبلية، ص70-71.

[6] - ينظر: المدارس اللسانية في التراث اللغوي العربي وفي الدراسات الحديثة، ص83.

[7] - ينظر: المرجع نفسه، ص57.

[8] - ينظر: المرجع نفسه، ص57.

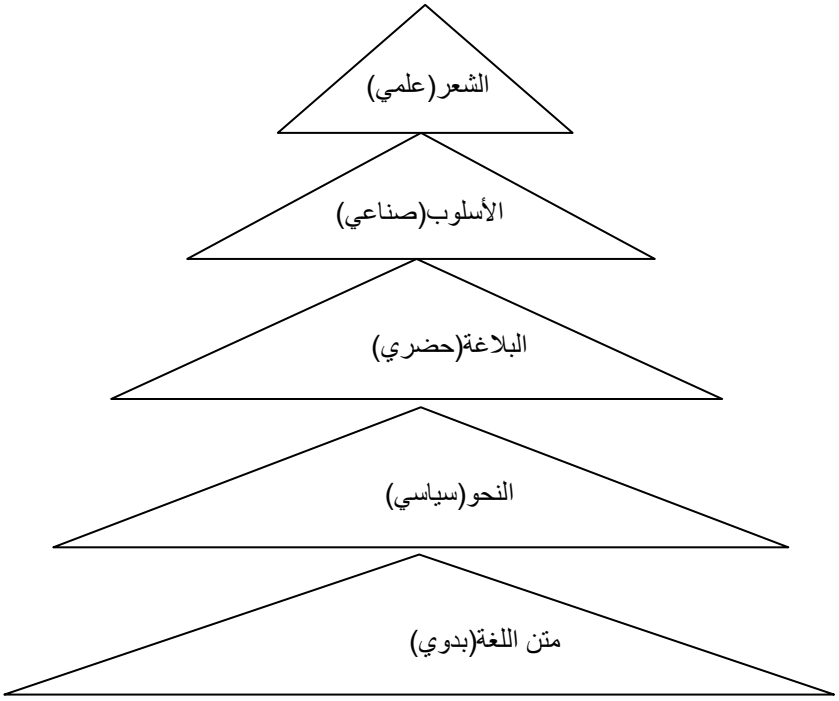
الشعر(علمي)
الأسلوب(صناعي)
البلاغة(حضري)
النحو(سياسي)
متن اللغة(بدوي)

المحاضرة الخامسة:(المفاهيم الأساسية للنظرية الخليلية)

تمهيـــد:

يعتبر عبد الرحمان الحاج صالح رائدًا متميّزًا من روّاد اللّسانيات العربيّة الحديثة، تميّز باطّلاعه الواسع وبحثه المستمر وعمله الدّؤوب من أجل تسليط الضّوء على تراث الخليل بن أحمد الفراهيدي ولم يبدّل تبديلاً، لقد آمن الحاج صالح بأنّ أفكار الرّعيل الأوّل من النّحاة كالخليل وسيبويه وابن جنّي والرضي الإستراباذي والسّهيلي وغيرهم، لا تقلّ في عمقها عمّا أبدعته أرقى النظريّات اللّسانية الغربيّة الحديثة، ونظرًا لما تميّز به النّحو الخليلي من تحليل عميق وتفكير رياضي علمي عجيب، حقيق مثل هذا التّراث أن يُعاد تركيز البحث فيه من جديد بغية البحث عن أسراره وإعادة استثماره في البحث اللغوي، ونظرًا لتغيّر الظروف والزّمان والمكان ودخول متغيّرات جديدة لا مناص من عرض تلك الأفكار والتّحليلات والآراء المتميّزة والعميقة وأن وتُصاغ بشكل جديد منسجم مع المتغيّرات، ومستفيدًا من بعض أفكارها بما يساهم في بعث ذلك الإرث العظيم، من هنا جاءت فكرة تأسيسه لما يُطلق عليه:"النظريّة الخليليّة الحديثة" نسبة إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي لأنّه كان مؤثّرًا في مسيرة النّحو العربي وبناء عماده مؤكّدًا بأنّه من عظماء التّاريخ.

لم يكن ميل الحاج صالح إلى التّراث تعصّبًا أو معاداة للّسانيات الغربيّة بل كان من منطلق علمي صارم قوامه الفهم الدّقيق والمتمكّن ليس فقط من التّراث اللّغوي والنّحوي العربي بل من اللّسانيات الغربيّة كذلك، فهو ممّن درسوا هذا العلم في مهده ومن أحد روّاده ونعني بذلك "أندري مارتيني"، إنّ هذا التّمكّن من الرّافدين تحوّل بشكل طبيعي إلى حامل لواء التّراث والمدافع عنه لأنّه أهل لأن يُدافع عنه، فهو لا يقلّ شأنًا عن اللّسانيات، بل ويفوقها في كثير من تحليلاته.

لقد استطاع الحاج صالح أن يقدّم مفهومًا آخر للتّراث مبرزًا قيمته العالية وتحليلاته العميقة وأفكاره الرّياضيّة الّتي صعب على كثير من الباحثين فهمها وتحليلها، فنُعت لعمقه ودقّته بأنّه معقّد ومتخلّف ولا حاجة إليه في هذا الزّمان، لقد استطاع الحاج صالح أن يغيّر تلك النّظرة النّمطيّة للتّراث اللّغوي العربي ولا نبالغ إذا قلنا إنّ أفكار الحاج صالح أصبحت ملهمة لكثير من الباحثين العرب وغيرهم، من أجل إعادة قراءة التّراث والتّصالح معه من جديد، بل وجعله أساس كلّ بحث لغوي جديد، فلا يعقل أنّ تراثًا بمثل تراث العرب اللّغوي أن يطوى طيّ النسيان وكأنّه لم يكن.

ولا نبالغ إن قلنا بأنّ الحاج صالح بفكره الثّاقب وهو قد درس الرّياضيات فعلاً كما سبق التّذكير هو فراهيدي اللّسانيات العربيّة الجديد في هذا الزّمان بعمق تحليلاته وثقافته العالية ولقد أنصفت مآلات اللّسانيات الحديثة كلّ مواقف الحاج صالح الّتي نادى بها منذ ستينيات القرن العشرين ودافع عنها، ولم يعد يُنظر للنّحو بمثل تلك النّظرة الّتي كانت في بداية ظهور اللسانيات حيث كانت شعاراتها وعناوينها البرّاقة تخفي عدم كفاءة وكفاية في تحليل الظّاهرة اللّغويّة العجيبة الّتي تأبى أن تصل إلى تفسير وتحليل نهائي، وما أجمل أن تتّحد الجهود اللغويّة عربيّها وأعجميّها أملاً في تحقيق الهدف المنشود.

لذا سنتناول في هذا المبحث جهود النّظريّة الخليلية ودورها في ترقية التّراث اللغوي العربي والحفاظ عليه.

أوّلاً - مفهوم النظريّة الخليليّة الحديثة: النّظريّة الخليليّة الحديثة(New Khalikine Theory) ورمزها الدّولي المختصر(NKT)[1] هي نظريّة لسانية عربية حديثة أسّسها عبد الرحمان الحاج صالح سنة1979 م، نسبة إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي تستمد هذه النّظريّة مبادئها وأفكارها من فكر الخليل بن أحمد الفراهيدي ومن شيوخه ومن تلاميذه خاصّة سيبويه، وسُميت بهذا الاسم تغليبًا، ولتأثيره الواضح في توجيه الدّراسة النحويّة واللّغوية العربية نحو وجهة علميّة رياضيّة، غير أنّ التّفكير فيما قاله الخليل وشيوخه وتلاميذه وخاصّة سيبويه كان منذ أن كان الحاج صالح

[1] - ينظر:نظريّة العامل وتعليميّة النحو العربي مفهومه في النّظريّة الخليليّة وتطبيقاته في تعليميّة النّحو، ص9(في الهامش).

تلميذًا في الأزهر الشّريف[1]، ويذكر أنّه بعد دراسته المتأنّية والممحّصة والفاحصة لما أبدعه واخترعه الخليل بأنّه(أعظم وأكبر لغوي في التّاريخ)[2]، وهذه النّظريّة هي فرع من اللسانيات العربيّة الحديثة، وبما أنّها نظريّة علميّة فهي تنفرد بمجموعة خاصّة من المصطلحات والفرضيات، وهي تقترح رؤية مستقلّة لقراءة التّراث العربي وللدّراسة العلميّة المستنبطة من هذا التّراث[3].

لقد أعاد **الحاج صالح** تأسيس أفكار الرّعيل الأوّل من النّحاة وخاصّة الخليل بن أحمد الفراهيدي، وتلميذه سيبويه تأسيسًا جديدًا ينحو بها نحو الصّياغة الشكلانية التّجريديّة الرياضيّة،لأنها هي في الأصل ذات فكر رياضي صرف، كما تقتضيه المعاجة الآلية الإلكترونية للّسان البشري، ما سيسمح للتّراث بأن ينتعش ويرتدي ثوبًا جديدًا، دون أن يفقد هويّته الأصلية، ويتأكّد دوره وتقاطعه مع اللّسانيات الحديثة[4]، وهذه النّظريّة كانت ثمرة جهود طويلة من البحث والتّمحيص والتحليل النّقدي الموضوعي لأقوال وأفكار وتحليلات ما تركة الخليل وأتباعه، يقول الحاج صالح:«...هذا وقد حاولنا منذ ما يقرب من ثلاثين سنة أن نحلّل ما وصل إلينا من تراث فيما يخصّ ميدان اللغة، وبخاصّة ما تركه لنا سيبويه وأتباعه ممّن ينتمي إلى المدرسة الخليلية، وكل ذلك بالنظر في الوقت نفسه فيما توصّلت إليه اللسانيات الغربيّة....فالغاية من هذا البحث قبل كّل شيء التعريف بهذه النّزعة الّتي تصف نفسها بأنها امتداد منتقى للآراء والنظريات الّتي أثبتها النّحاة العرب الأوّلون وخاصّة الخليل بن أحمد، وفي الوقت نفسه مشاركة ومساهمة للبحث اللّساني في أحدث صوره، خاصّة البحث المتعلّق بتكنولوجيا اللّغة[5]» ،كما أنّ«هذه النّظريّة اللّغويّة العربيّة – حسب مؤسّسها الحاج صالح- ستلعب دورًا كبيرًا في الدّراسة العلميّة للّغات بما فيها اللّغة العربيّة لأنّها وإن كانت نتيجة للنّظر في العربية، فإنّ عمقها العجيب يجعلها في مستوى النّظريات اللّسانية الحديثة»[6]، وقد تنبّأ لها بأن تحقّق نجاحًا باهرًا، «أمّا اللّسانيات العربيّة الّتي تنزع هذه النّزعة فقد وصل البحث فيها الآن-وبعد التّحليل والتّحديد لكلّ مفاهيم القدامى-إلى مرحلة الصّياغة المنطقيّة الرّياضيّة من جهة، وإلى حصر كل الاحتمالات الدّلالية الّتي يحتملها المثال الواحد في جميع مستويات اللّغة العربيّة(من الكلم إلى اللّفظة إلى التّركيب) وسيكون لهذا العمل فيما أعتقد مستقبل زاهر»[7]،أمّا تسميتها بالحديثة فلأنها ستلعب دور الوسيط بين التّراث اللّغوي العربي من جهة واللّسانيات الحديثة من جهة ثانية[8].

لقد اشتهر الخليل بن أحمد الفراهيدي في علم العروض خاصّة، ولكنّ جهوده في الدّراسات اللغويّة الأخرى كانت بنفس القيمة، خاصّة في مجال الصّوتيات العربيّة وتأسيسه لمعجم العين، بتفكير رياضي صرف سابق لأوانه كما يُعبّر عنه، كما تشهد له تحليلاته الدّقيقة لكثير من الظّواهر اللّغويّة ظهرت في كتاب سيبويه، كما تميّز باختراعه للشّكل(الحركات الفتحة عبارة عن ألف صغيرة مائلة فوق الحرف والضمّة واو صغيرة فوق الحرف والكسرة ياء صغيرة تحت الحرف)المعتمد في الكتابة العربية لحد اليوم، وطور بعد ذلك للحركات البسيطة المعروفة.

إنّ هذا الرّجل العبقري متعدّد الاختصاصات والبراءات-إن صحّ التّعبير-حقيق بأن يُدرس ما تركه من إرث حافل بروح علميّة موضوعيّة، تُظهر ما لهذا الإرث وما عليه، ومن الغريب أن يُفرَّط في هذا الجهد المعتبر، لهذا كانت دعوة الحاج صالح للدّارسين العرب أن يتوجّهوا نحو هذا المسعى واستثمار ما خلّفته المدرسة الخليليّة من أفكار وتحليلات بديعة للّغة يكون لها الأثر الإيجابي ليس على البحث اللّساني العربي فحسب، بل يمكن استثمارها في البحث اللّساني

---

[1] - ينظر: المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، ص84.

[2] - ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربيّة، ج1، ص149.

[3] - ينظر: نظرية العامل وتعليميّة النحو العربي مفهومه في النّظريّة الحليليّة الحديثة وتطبيقاته في تعليميّة النّحو، ص9.

[4] - ينظر: العامل بين النظريّة الخليليّة الحديثة والربط العاملي لتشومسكي، ص3.

[5] - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص208

[6] - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ، ج2، ص53.

[7] - المرجع نفسه، ص54.

[8] - ينظر: مفهوم تحليل الخطاب في النّظريّة الخليلية الحديثة، عتابي بن شرقي، مجلة الصوتيات، مخبر اللغة العربية وآدابها، جامعة البليدة2، الجزائر، العدد19، ص197.

بمفهومه الأوسع، بل إنّ الحاج صالح اعتبر أنّ الدّراسة اللّغويّة لن يكون لها أي شأن إن لم يتوجّه الدّارسون صوب تحليلات هذا الرّجل العبقري والفريد من نوعه، قائلا:«وقد أيقنّا أنّ الدّراسات لن يكون لها أيّ شأن إذا لم يرجع أصحابها إلى الخليل بن أحمد ويحاولوا أن يفهموا ما قصده هذا الرّجل العبقري بتحليلاته لظاهرة اللغة، وذلك بالرّجوع أوّلاً لكتاب سيبويه وشروحه»[1].

لقد آمن الحاج صالح بوجود نظريّة دقيقة ثاوية في الأصول والمفاهيم في طيّات التّراث النّحوي العربي الأصيل، وأنّ ذلك سيتّضح بعد إعادة قراءة التّراث دراسة إبستمولوجيّة(معرفيّة) نقديّة تقويميّة دقيقة لتلك المفاهيم والتّحليلات الّتي يزخر بها ذلك التّراث، دون إسقاط أي تصوّر آخر كتصوّر النّحاة العرب المتأخّرين أو تصوّر الغربيين عليها[2].وقد برهن الحاج صالح على إيمانه بدقّة النظريّة النحويّة عند النّحاة المتقدّمين بطريقتين:

الأولى: التتبّع التاريخي الدّقيق للدّراسة اللّغويّة من أقدم ما وصل إلينا إلى العصر الحديث، راصدًا التّطوّر النّظري والمنهجي في كلّ عصر، ذاهبًا إلى أنّ علم اللّسان بدأ باختراع المصريّين القدامى للكتابة، ثم تطوّرت عند الأكاديين والفنيقيين، وقد انتهج علم اللّسان المنهج الوصفي عند الهنود، ومنهج التّحليل الصّوتي والنّحوي عند اليونانيّين، أمّا بالنّسبة للأوروبيين في القرون الوسطى(من القرن السّادس إلى القرن السّادس عشر)، فبدأوا بالبحث عن علل النّحو في تفسير القواعد متأثّرين بالفلسفة والمنطق، وذهبوا إلى مبدأ التّقدير في النّحو لتفسير الأبنية والتّراكيب، مثل ظواهر الحذف والتّقديم والتّأخير، وهنا حدّد بأنّ العرب كانوا أوّل من لجأ إلى التّقدير[3]، ثمّ انتهج علم اللّسان الحديث المنهج المقارن والتّاريخي، وذلك في القرن التّاسع عشر ميلادي، ثمّ ظهرت بعد ذلك المدارس المعروفة بداية بالبنيويّة ثمّ التّوليدية التّحويليّة، ثمّ درس فرضيّة تأثّر النّحو العربي بالمنطق الأرسطي، نافيًا ذلك بعد الدّراسة بشكل مطلق إلاّ في القرن الرّابع الهجري[4]، وفي هذه النّقطة نكتشف خلفية تقسيمه للتّراث النّحوي إلى أصيل وغير أصيل، وحصر الأوّل في القرون الأربعة الأولى للهجرة وسبق الحديث في المسألة

لقد حقّق الحاج صالح من هذه الدّراسة التّاريخيّة الموجزة لعلم اللّسان البشري هدفين:

أ- التأريخ لتطوّر علم اللّسان البشري بتتبّع الجهود اللّغويّة للحضارات المختلفة، وإثبات أصالة النّحو العربي فنظرية النّحاة العرب أصيلة في أصولها وجذورها.

ب- نفي مقولة تأثّر النّحو العربي بالمنطق الأرسطي وإن تسرّب إليه ذلك المنطق فهو بعد القرن الرّابع الهجري.

أمّا الثانية:فقد قام الحاج صالح بتحديد الأنظار العلميّة والأصول الّتي بَنى عيها النّحاة نظريّتهم، تلك الأنظار الّتي تَوصّل إليها علم اللّسان الحديث، خاصّة عند التّوليديين (كمفهوم الباب، وهو مجموعة من العناصر الّتي تنتمي إلى فئة أو صنف وتجمعها بنية واحدة)، كالبنية الصّرفية(مفْعل)..."مكتب"،"ملعب"،"مجمع"،"محلّ"، وكذا البنية النّحوية إلى مسند ومسند إليه، وهي نواة الجملة العربية، وكذا تحديد العامل والأصل والفرع...إلخ[5].

وقد توصّل الحاج صالح بعد هذا التّتبّع الّتاريخي لعلم اللّسان البشري، وبعد تمحيص أفكار النّحاة العرب إلى الطّابع العلمي الرّياضي التّجريدي لتلك التّحليلات والأفكار، وهي أفكار تتجاوز كلّ النّظريات اللّسانية الوصفيّة الحديثة، وتلتقي بالنّظريّة التّوليديّة[6].وهذا ما يفسّر إعجاب الحاج صالح بما يقدّمه تشومسكي من أفكار كثير منها يشبه إلى حدّ بعيد ما قاله النّحاة العرب، وقد ذكرنا هذه المسألة كذلك في التّقاطعات بين النّحو العربي والتّوليديّة في

---

[1] - بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص10.

[2] - ينظر: نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، حسين خميس الملخ، دار الشروق للنشر والتّوزيع، عمان، ط1، 2015م، ص247.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص248.

[4] - ينظر: المرجع نفسه، ص248-249.

[5] - ينظر: المرجع نفسه، ص249-250.

[6] - ينظر: نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، ص250.

المبحث الأول والثّاني من هذا الفصل، وهذا الأمر يخفي وراءه سؤلاً كبيرًا هل هذه أفكار تشومسكيّة أصيلة أم أنّ جذورها عربيّة؟!

يعتبر الحاج صالح أنّ النظريّة الخليليّة الحديثة تتبوّأ موقعًا وسطًا بين اتّجاهين، الأوّل يتجاهل تمامًا أو إلى حدّ بعيد اللّسانيات الحديثة، ويعتمد أساسًا على نحو المتأخرين دون تمييز بين ما هو أصيل وما هو دون ذلك، واتّجاه عكس الأوّل تماماً، حيث يتجاهل التّراث جملة وتفصيلاً، الّذي قد تجاوزه الزّمن ولا يمكن مقارنته بما جاء به الغرب[1].لذا فإنّ هذه النّظرية هي نظريّة توفيقيّة تجسيريّة تبحث عن تحقيق مصاهرة أو شبه اندماج**(تفاعل إيجابي)** –إن صحّ التّعبير- بين التّراث النّحوي من جهة واللّسانيات الغربيّة الحديثة من جهة ثانية، اعتمد فيها رائدها مسلكًا واتّجاهًا معرفيًّا إبستميًّا تأصيليًّا، من خلال السّعي لتأصيل بين جوانب من النّظريّة اللغويّة العربية وجوانب من مناهج النّظر اللّغوي الحديث، وقد تأثرّ بهذه النظريّة مجموعة من الباحثين أغلبهم مغاربة آمنوا بفكرة التّوفيق الّتي انتهجتها هذه النظريّة، شكّلوا ما يشبه المدرسة الواحدة، ومن هؤلاء إضافة إلى الحاج صالح، الأخضر غزال، بالإضافة إلى مازن الوعر من سوريا....

تنطلق هذه النظريّة من مبدأين أساسيين، هما:

أ- لا يفسّر التّراث إلاّ التراث، فكتاب سيبويه لا يفسّره إلاّ كتاب سيبويه، ومن الخطأ انّ نسقط على التّراث مفاهيم وتصوّرات دخيلة تتجاهل خصوصياته النّوعيّة، وهذا يتطلّب طريقة خاصّة في استخلاص معاني النّص أطلق عيها الحاج صالح مصطلح"المقايسة الدلاليّة"[2].

ب- أنّ التّراث العربي في العلوم الإنسانية عامّة واللغويّة خاصّة ليس طبقة واحدة من حيث الأصالة والإبداع فهناك تراث وتراث.

كما يجب أن تتّصف النّظريّة المتوخاة بمواصفات عرفت بها اللّسانيات الحديثة، وهي[3]:

أ- الموضوعيّة العلميّة: فهي تعتمد على المشاهدة، وهي بذلك علم محض، وليست مجموعة اختيارات تعسفيّة تفرض معيارًا لغويًّا معيّنًا وتهدر المعايير الأخرى.

ب- التمييز بين ما هو راجع إلى التّغيير الزّماني، أي التاريخ والتّطوّر عبر الزّمان، وبين ما هو آنيSynchronic خاص بالنّظام الباطني للّغة(ومن ثمّ نشأت النّزعات البنوية الحديثة).

ج- اللّجوء إلى الصّياغة المنطقيّة الرّياضيّة: وهذا من أهم ما تمتاز به العلوم الإنسانية عن غيرها كالآداب والفلسفة(وكلّما كانت النّظريات في هذه العلوم أكثر نجاعة أو أكثر طواعية للصّياغة الرياضية كانت أعظم دقّة وأقرب إلى نظريّات العلوم الدّقيقة)، وغير ذلك من المزايا.

إنّ قناعات الحاج صالح الّتي دافع عنها طيلة مسيرته العلميّة الحافلة بالإنجازات لم تكن بدافع الحنين أو العاطفة أو التّعصّب للتّراث اللّغوي الضّخم، بل كان بعد دراسة علميّة منهجيّة متأنّية وعميقة، جمعت بين التّعمّق في دراسة وفهم التّراث اللّغوي العربي خاصّة النّحوي منه، وكتاب سيبويه بالخصوص الّذي يعبّر عن فكر الخليل بن أحمد الفراهيدي الأب الروّحي للنّحو العربي إن صحّ التّعبير، بالإضافة إلى شيوخه ومعاصريه وتلاميذه وسيبويه خاصّة، وبعض من تأخّر من النحاة كابن جنّي وأبي على الفرسي والإستراباذي والسّهيلي، وغيرهم ممّن كان لهم فكر ثاقب وروح علميّة واضحة المعالم ومن جهة مقابلة درس اللّسانيات الغربيّة في مهدها فاحتكّ بأهم أعلامها،كأندري مارتيني وتشومسكي، فهو لم يتأثّر باللّسانيات عن طريق بعض العرب المتأثرين بها أو بعد الاطّلاع على كتب مترجمة فهو يتقن اللّغات الأجنبية بشكل متمكّن خاصّة الفرنسية والإنجليزية، يضاف إلى ذلك كلّة التّتبع التّاريخي للدّراسة اللّغوية

---

[1] - ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص227-228، وينظر: الاتّجاه التّوافقي، ص110.

[2] - العامل عند الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح نموذج لربط التراث النحوي باللسانيات الحديثة، ص89.

[3] - بحوث ودراسات في اللسانيات العربيّة، ج1، ص103.

البشريّة بداية من أقدم الحضارات وصولاً إلى أحدثها، آخذًا قناعةً في الأخير لا تقبل الشّك أنّ التّراث اللّغوي العربي بني على أسس علميّة دقيقة وذكاء خارق في التّحليل والطّرح جمع بين الأصالة والعمق في التّفكير، يمكن استثماره لتطوير البحث اللّساني في العصر الحديث بمفهومه الواسع، وأنّ اللسانيات الحديثة ستكون الخاسر الأكبر إن لم تُطعّم بما قدّمه الرّعيل الأوّل من النّحاة العرب من تفسير وتحليل للظّاهرة اللغويّة وإن كانت خاصّة بالعربية،لكن ذلك لن يكون مانعًا بتاتًا ما دام تحليل هؤلاء مبنيًّا على أسس علميّة رياضية تجريدية إجرائية، فاللّغات وإن اختلفت ألسنتها لكن أواصر القربى بينها متجذّرة تجذّر العقل البشري الواحد.

ثانيا - المفاهيم الأساسية للنظريّة الخليليّة الحديثة:

اعتمد العلماء العرب-وزعيمهم في ذلك الخليل- على عدد من المفاهيم والمبادئ لتحليل اللغة مثل: مفهوم العامل، الأصل والفرع، الاستقامة من الكلام والإحالة، الانفراد وحد اللفظة، مفهوم الباب[1]...

1- مفهوم العامل:من المعلوم أنّ النّظريّة اللّغويّة عند العرب أسّست على فكرة جوهريّة، وهي العمل النّحوي أو العامل، إذ بُني النّحو عند الخليل وسيبويه على نظرية العامل[2]، والعامل كما سبق التّذكير هو العنصر الدينامي الّذي يتحكّم في التّركيب العربي وهو المحور الّذي يُبنى عليه وهو كيان اعتباري كما يقول الحاج صالح، وهو متموضع داخل البنية وليس في تسلسل الكلام، وقد يكون مساويًا للصّفر(فارغًا)، وذلك في حالة العامل المعنوي(الابتداء) عند النّحاة وقد يكون كلمة مفردة(كان وأخواتها، إنّ وأخواتها، مثلاً)، وقد يكون لفظة(اسم وفعل ولوازمهما)، وقد يكون تركيبًا بكامله (أعلمت عمرًا/زيدًا قائمًا)[3].والعامل في النّظريّة الخليليّة ما أثّر بغضّ النّظر على الرّتبة الّتي يحتلّها[4]، حيث إنّه قد يكون أوّل التركيب(كان زيدٌ منطلقًا) ، أو داخل التركيب(منطلقًا كان زيد)، (زيد كان منطلقًا)، ويمكن أن نلاحظ ذلك من خلال الشكل التالي[5]:

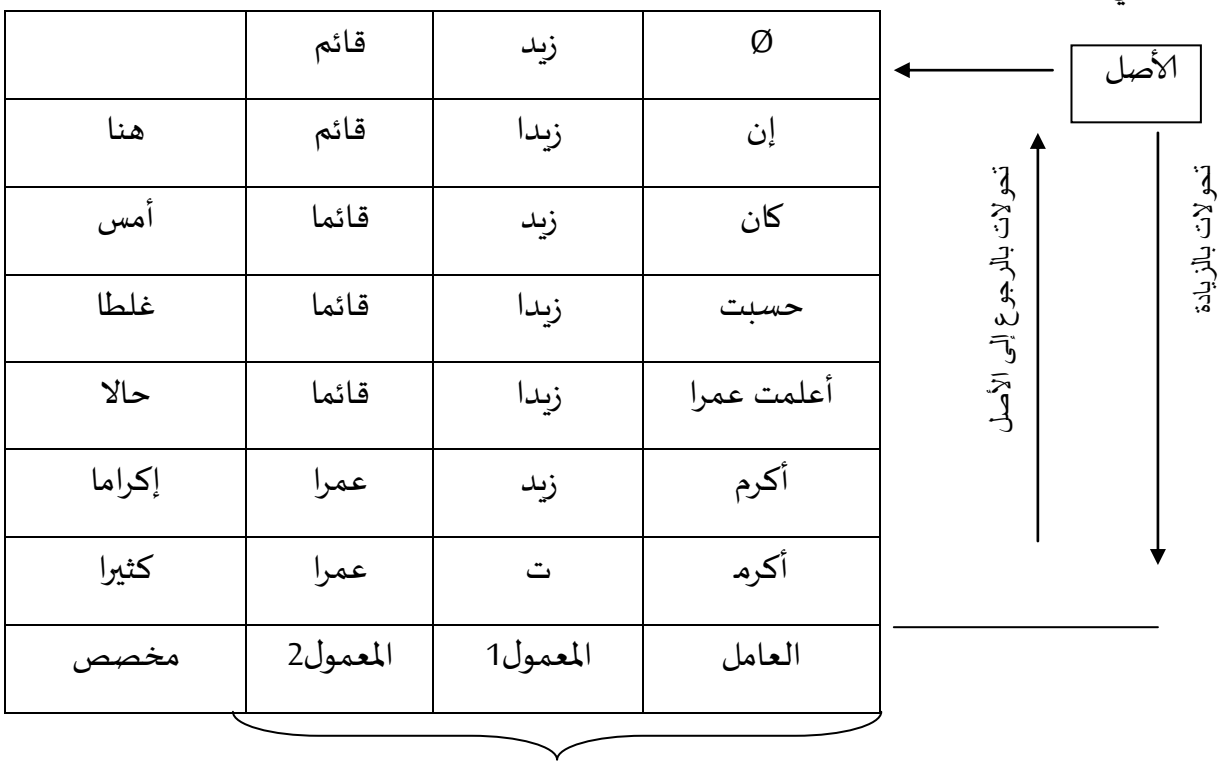

Ø	زيد	قائم	
إن	زيدا	قائم	هنا
كان	زيد	قائما	أمس
حسبت	زيدا	قائما	غلطا
أعلمت عمرا	زيدا	قائما	حالا
أكرم	زيد	عمرا	إكراما
أكرم	ت	عمرا	كثيرا
العامل	المعمول1	المعمول2	مخصص

نواة التركيب الزوائد على النواة

[1] - ينظر: المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في الوطن العربي، ص378.

[2] - ينظر: الحذف النحوي عند سيبويه في ضوء النظرية الخليلية، عائشة جمعي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2016م، ص7.

[3] - ينظر: العامل عند الدكتور الحاج صالح نموذج لربط التراث النّحوي باللسانيات الحديثة، ص147، وينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربي، ج2، ص89.

[4] - ينظر: نظريّة تشومسكي في العامل والأثر، ص118.

[5] - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج2، ص88، وينظر: العامل عند الدكتورعبد الرحمان الحاج نموذج لربط التراث النحوي باللسانيات الحديثة، ص146.

كل التراكيب المذكورة في الجدل متكافئة من حيث إنّها تتضمّن نواة تركيبية واحدة أصليّة(زيد قائم)، زيدت على أصولها وحدات أثّرت في النّواة لفظًا ومعنى، ولذلك سُمّيت هذه الزيادة المؤثّرة عاملاً، وما تأثّر بهذه الزيادة معمولاً.

أ- أحكام العامل في النظريّة الخليلية:

***- العامل(ع):** يتحكّم في التّركيب وهو محوره الذّي يُبنى عليه قد يكون ظاهرًا مثل: الأفعال تامة وناقصة إن وأخواتها، ويُسمّى بالمفهوم التّقليدي(عامل لفظي)، وقد يكون مخفيًّا غير ظاهر يمثّل له بالعلامة الصّفريّة(المجموعة الخالية) وهو الابتداء، ويُسمى بالمفهوم القديم(عامل معنوي) يعمل العامل في معموليه لفظًا ومعنى، وهو سبب إعرابهما وسبب تغيير المعنى وأهم من ذلك كلّة أنّه أي العامل هو سبب بناء الكلام، فلا كلام مفيد بدون بنية يحكما ويتحكّم فيها وأساسها العامل.

- فالعامل هو كيان اعتباري(موضع في البنية)، وليس في تسلسل الكلام وقد يكون كلمة، مثل(إنّ) أو لفظة مثل (حسبت) وقد يكون تركيبًا كاملاً، مثل(أعلمت عمرًا)، وقد يكون لا شيء بالمعنى الرياضي(الصّفر)، وهو الابتداء يرمز له(Ø)= خلو الموضع.

- والعامل قد يتصدّر التّركيب، مثل (كان زيد مشغولاً)،فهو أوّل في الذّكر في مثل هذه الحالة، وقد يدخل داخل التّركيب ولا يفقد العامل وظيفته في النّظرية الخليلية، بغض النّظر عن الرتبة الّتي يحتلها مثل:(زيد كان مشغولاً) أو(مشغولاً كان زيد).

- العامل محور التّركيب ويهيمن عليه، فهو نواة الكلام.

- العامل سبب الآثار الصوتية(حركات الإعراب)، (كل عامل=حالة إعرابية)، (كل حالة إعرابية=علامة إعرابية) (إذا العامل ⟵⟶ علامة إعرابية (الأثر الصوتي)[1].

فالعامل في النظرية الخليلية من هذا المنطلق ينقسم إلى نوعين[2]:

أ- نوع يؤثّر نحويًّا ، كالنواسخ والأفعال.

ب- نوع يؤثّر دلاليًّا وهو ما يسميه النّحاة بمستوى التّصدير ما فوق العامل.

***- المعمول الأوّل(م1):** يشكل رفقة عامله زوجا مرتّبا (Couple ordonné). في اصطلاح الرياضيات، فلا يمكن أن يتقدّم على العامل، وإذا حدث ذلك ينهد البناء(الفاعل لا يتقدّم على فعله)، وإذا حدث ذلك تتغيّر الجملة من فعليّة إلى اسميّة (ويصبح الفعل مع فاعله الضّمير المستتر في محل الخبر)، وموضع المعمول الأول قد يدخل فيه المبتدأ أو الفاعل أو ما يقوم مقامهما[3].

***– المعمول الثّاني(م2):** هذا العنصر يتمتّع غالبًا بحرّية الحركة، حيث قد يتقدّم عاملة والمعمول الأوّل إلّا في حالة جمود العامل مثل: (إن)، إلا إذا كان ظرفا مثل:(إن في الدار زيدا)، وموضع المعمول الثّاني يدخل فيه الخبر والمفعول أو ما يقوم مقامهما[4].

علمًا أنّ الفعل قد يدخل في موضع المعمول، وذلك في ستة مواضع ذكرها سيبويه في الكتاب.

ومجموعة العامل ومعموليه تكوّن النواة الأساسية لكل جملة من حيث البناء النّحوي الإعرابي، أما من حيث الإفادة فتتكوّن من مسند ومسند إليه (الكلام المستغني)، وفي هذا المستوى التّركيبي توجد أيضا زوائد، مثل الزوائد في وزن الكلمة، وهي جميع المفاعيل إلّا المفعول به، فهو فضله في الإفادة لكنه عنصر نووي في البنية اللّفظية، لأنه بمنزلة الخبر من حيث الموضع، وكذلك التّمييز والحال والمستثنى المنصوب بالاستثناء[5].

---

[1] - ينظر: العامل عند الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح نموذج لربط التراث النّحوي باللسانيات الحديثة، ص147-148.

[2] - ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربيّة، ج2، ص89، وينظر: العامل عند الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح نموذج لربط التراث النّحوي باللسانيات الحديثة، ص147-148.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص16، وينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص223.

[4] - المرجع نفسه، ص16 ، وينظر:ج1، ص223، وينظر: العامل عند الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح نموذج لربط التراث النّحوي باللسانيات الحديثة، ص148.

[5] - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج2، ص75. العامل عند الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح نموذج لربط التراث النّحوي باللسانيات الحديثة، ص149.

* – **المخصص(خ):** هو زيادة على المجموعة النّووية: العامل ومعموليه، وليس زيادة على الأصل الّذي هو:(زيد قائم)[1]، فهذا العنصر يمكن أن يزاد إلّا أنّه موصول وليس مبنيًّا مع العناصر الثّلاثة، ويدخل فيه المفعول فيه والمفعول لأجله والحال...إلخ(الفضلات)[2].

ويمكن تمثيل هذه الأصول إضافة للمخصص غير النووي بهذه الصيغة:

[(ع ⟵ م1) ± م2] ± خ.

وقد أوجز أستاذنا-الحاج صالح- أبنية الكلام في العربية (في كلّ اللغات؟) في رسم بياني ، حيث قال: إنّ أصغر ما يُبنى من الكلام يتكوّن دائما من عامل(ع) ومعمول أول(م1)، ومعمول ثان(م2)، يكون العامل والمعمول الأول اللّفظة المبني عليها الّتي يبتدئ بها الكلام، أمّا المعمول الثّاني فيشغل اللّفظة المبنية.[3]

2- الأصل والفرع:

تعتبر فكرة الأصل والفرع فكرة رياضية بحتة تقوم على فكرة بسيطة، أنّ كلّ مجموعة من المتجانسات ترجع إلى أصل واحد[4]، فأصل الشّيء هو الثّابت المستمر وليس فيه زيادة، وإذا ما زدنا فيه أصبح ذلك الأصل بعد الزّيادة فرعًا، والزّيادة لا تأخذ فقط ما يقع في الذّهن زيادة إيجابية(س+أصل، أو أصل+س)، وإنّما قد تكون سلبية أحيانًا والزيادة عمومًا هي عمليّة تحويليّة[5].والأصل يرتبط مع فروعه بعلاقة الاحتياج أو الافتقار، فالفرع مفتقر إلى الأصل افتقار غصن الشّجرة إلى جذرها، والأصل بهذا المعنى يدلّ على الثّبوت والرّسوخ والبقاء، في حين تفتقر فروعة لمثل هذه الخصائص في الغالب فتتجدّد وتتعدّد وتتغيّر[6]، ويربط النّحاة بين الأصل الواحد وفروعه، بقياس شكلي يسوّغون به إلحاق الفروع بالأصل الواحد، ويخصّون الأصل بمزيّة لا يمكن أن تدركها كل فروعه المتفرّعة عليه فتنحلّ الظّاهرة الواحدة إلى درجات ومراتب ، ويذكر الدّكتور **حسن خميس الملخ** أن هذا المفهوم (الأصل والفرع) مرّ بمرحلتين، فكان **في الأولى** مصطلحًا بارزًا من مصطلحات النّحو، وأضحى **في الثّانية** مفهومًا أساسيًّا في علم أصول النّحو دون أن يتغيّر لفظه بل بقي ثابتًا، استوعب ما طرأ عليه من دلالات في النّحو وأصوله[7].

ومفهوم الأصل والفرع كما **يقول الحاج** صالح فكرة لم ينتبه إليها الدّارسون المحدثون، وهو مفهوم تفريعي على الأصول، وهو فكرة فقهيّة في الأساس ولكنّه عند النّحاة أعمق، وهو مبني على مفاهيم رياضيّة أخرى في غاية الدّقة والضّبط والتناسق كمفهومي (الأنماط والمثل)، وهي مفاهيم يُبنى عليها النّحو العربي، وكل علوم اللّغة المرتبطة بالحدود الإجرائيّة ذات الطّبيعة الرّياضية التّجريديّة، تتفرّع هذه المُثُل والأنماط إلى فروع، ويعتبر أهم هذه المُثل وأعرقها (الموازين الصّرفيّة)، ولم ينتبه الدّارسون كذلك إلى وجود هذا النّظام(نظام المُثُل) في المستويات العليا(حد الاسم وحد الفعل، ثمّ الحدود الأخرى).[8]

إنّ فكرة الأصل تمتدّ لتشمل كلّ أنواع النّحو ومستوياته فكلّ ظاهرة نحويّة متجانسة ترجع إلى أصل واحد فالعمل النّحوي له أصل واحد، والإعراب له أصل واحد، وللبناء أصل واحد، ولكل باب نحوي قاعدة عامّة واحدة تسمى أصل القاعدة، وللكلمة (اسم وفعل وحرف) أصل مجرّد لوضعها صيغة ودلالة، وللجملة أصل واحد يربط أجزاءها،

---

[1]- المرجع السابق، ص89.

[2] - المرجع نفسه، ص16، 41.

[3] - مبادئ في اللسانيات، ص113، وينظر: العامل عند الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح نموذج لربط التراث النحوي باللسانيات الحديثة، ص152-153.

[4] - ينظر: نظرية الأصل والفرع في النحو العربي ، ص131.

[5] - الحذف النحوي عند سيبويه في ضوء النظرية الخليلية الحديثة، ص11.

[6] - ينظر: نظرية الأصل والفرع في النحو العربي، ص75.

[7] - نظرية الأصل والفرع في النحو العربي ، ص71.

[8] - ينظر: العامل عند الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح نموذج لربط التراث النحوي باللسانيات الحديثة، ص75، وللاطّلاع أكثر على المسألة، ينظر: نظرية الأصل والفرع في النحو العربي، ص71-130.

وللأدوات النحويّة المتجانسة أصل واحد يسمّى أصل الباب، وأصل دلالة الكلمة على مدلولها التّجرّد من العلامة الخطّيّة واللّفظيّة...إلخ[1].

فعلى سبيل المثال يعتبر النّحاة(الفعل هو الأصل في العمل وكلّ ما سواه محمول عليه ومشبّه به)، فهو يرفع الفاعل بحقّ الأصل، أما إذا عمل الاسم أو الحرف فلعلة لحقتهما وهي مشابهة الفعل بوجه من الوجوه[2]، لذلك يقوا **ابن يعيش** في شرح المفصّل:«أصل العمل إنّما هو الأفعال وإذا عُلِم ذلك، فليُعلم أنّ الفروع أبدًا تنحط على درجات الأصول ولمّا كانت أسماء الفاعلين فروعًا على الأفعال، كانت أضعف منها في العمل، والّذي يؤيّد ذلك أنّك تقول:"زيدٌ ضاربٌ عمرًا" و"زيدٌ ضاربٌ لعمرو"، فتكون مخبرًا بين أن تعدّيه بنفسه، وبيّن أن تعدّيه بحرف الجر لضعفه، ولا يجوز مثل ذلك في الفعل، فلا تقول:" ضربتُ لزيدٍ"»[3].

وكذلك أصل الإعراب للاسم كما يذهب البصريون، فالمعرب هو الاسم والفعل فرع عليه، وقال الكوفيون أنّ المضارع أصل في الإعراب أيضًا[4]، وهذا ربّما يفسّر تسميّة المضارع لمشابهته الاسم في عدّة أوجه، منها الشكّل والإعراب أيضًا .

وبعد أنّ أجمع جمهور النّحاة على أهليّة الاسم لأصل الإعراب، قبلوا بأن يكون الفعل المضارع فرعًا عليه، وذلك لتشاركه مع الأسماء في ثلاث خصال[5]:

- فيها شياع وعموم ثمّ تختص للحال والاستقبال.
- تدخل عليها لام الابتداء، نحو" إنّ زيدًا ليخرج كلّ صباح".
- قد تشغل موقع الاسم، نحو:"مررت برجل يخطب أو خاطبٍ".

وفي المقابل يعلل النّحاة وجود بعض الأسماء المبنيّة لمشابهتها بعض المبنيات، وما شابه شيئًا أُعطِي حكمه،كما أعطوا الأفعال أصل البناء، وقد ذهب بعض من الكوفيين إلى أنّ الأصل فيها الإعراب وكذلك البناء[6].

كما أنّ الزمن الحاضر أصل والماضي فرع عليه والمفرد أصل والجمع فرع عليه[7]، حيث يذكر **سيبويه** في الكتاب:«وإنما كان المؤنث بهذه المنزلة ولم يكن كالمذكّر، لأنّ الأشياء كلّها أصلها التّذكير ثم تختص بعد ذلك(علامات التأنيث)، فكل مؤنّث شيء والشيء يذكّر، فالتّذكير أوّل وهو أشدّ تمكّنا، كما أنّ النّكرة أشد تمكّنا من المعرفة، لأنّ الأشياء إنّما تكون نكرة ثم تعرّف، فالتّنكير قبل وهو أشد تمكنا عندهم، فالأوّل أشد تمكّنا عندهم، فالنّكرة تعرفه بالألف واللّام والإضافة، وبأن يكون عَلَمًا والشّيء يختص بالتّأنيث، فيخرج من التّذكير كما يخرج المنكور إلى المعرفة»[8].

والجملة الّتي تتألف من عنصرين هي الأصل، فيحملون عليها جملاً أخرى تكون فيها الزّيادة بالنسبة للجملة البسيطة بحيث تظهر بذلك كيفية تحوّل النّواة بالزّوائد، فالمفرد أصل المثنى والجمع فرع عليه(علامات التّثنية وعلامات الجمع) والمكبّر أصل والمصغّر فرع عليه والجملة المبنيّة للفاعل أصل للجملة المبنيّة للمفعول، وقد اعتبر تشومسكي الجملة المبنية للفاعل نواة ومنطلقاتها للتّفريع، **فالأصل عند النّحاة هو ما يُبنى عليه ولا يُبنى على غيره، ولا يحتاج إلى علامة تميّزه على غيره فله العلامة العدميّة(marque zero)**[9].

---

[1] - ينظر: نظرية الأصل والفرع في النحو العربي، ص130-131.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص80-81.

[3] - شرح المفصّل ، ج6، ص78.

[4] - ينظر: نظرية الأصل والفرع في النحو العربي، ص83.

[5] - ينظر: نظرية الأصل والفرع في النحو العربي ، ص83-84.

[6] - ينظر: المرجع نفسه، ص38-84.

[7] - النحو العربي والدرس الحديث، ص 144.

[8] - الكتاب، ج3، ص241-242.

[9] - ينظر: العامل عند الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح نموذج لربط التراث النحوي باللسانيات الحديثة، ص76، وينظر: مجلة اللسانيات، العدد:6، ص71-72.

هذا وتعتبر قضّية العلامة من المسائل اللافتة في قضايا الأصل والفرع، فيكاد النّحاة يجمعون على أنّ الفروع هي الّتي تحتاج إلى علامات تميّزها، والأصول لا تحتاج لهذه العلامات لأنّ العلامة زيادة والأصل عدم الزّيادة والعلامة تخصيص والعام أصل للخاص، وهي طارئة والعام أصل للطارئ، والعلامة تجعل اللّفظ مركّبًا والبسيط المجرّد أصل للمركّب...[1]

3- مفهوم الاستقامة والإحالة:

يقول سيبويه في باب الاستقامة من الكلام والإحالة:«فمنه مستقيم حسن ومحال ومستقيم كذب ومستقيم قبيح وما هو محال كذب:

فأمّا المستقيم الحسن، قولك: أتيتك أمس وسآتيك غدًا.

وأمّا المحال فأن تنقض أوّل كلامك بآخره فتقول: أتيتك غدًا وسآتيك أمس.

وأمّا المستقيم الكذب، فقولك: حملت الجبل وشربت ماء البحر ونحوه.

وأمّا المستقيم القبيح، فأن تضع اللّفظ في غير موضعه، نحو قولك:قد زيد رأيت وكي زيدًا يأتيك، وأشباه هذا.

وأمّا المحال الكذب فأن تقول:سوف أشرب ماء البحر أمس».[2]

يقول الحاج صالح:«فسيبويه على إثر الخليل هو أوّل من ميّز بين السّلامة الرّاجعة للّفظ والسّلامة الراجعة للمعنى (المستقيم المحال)، ثمّ ميّز أيضًا بين السّلامة الّتي يقتضيها القياس(أي النّظام العام الّذي يميّز لغة عن لغة) والسّلامة الّتي يفرضها الاستعمال الحقيقي للنّاطقين(وهذا معنى الاستحسان وهو استحسان النّاطقين أنفسهم) مستقيم حسن، فعلى هذا يكون التّمييز بهذه الكيفية:

مستقيم حسن(Grammatical et Acceptable) ⟵ سليم في الاستعمال والقياس.

مستقيم قبيح(Grammatical mais non Acceptable) ⟵ سليم في القياس قبيح في الاستعمال.

مستقيم محال(Grammatical et Asémaantique) ⟵ سليم في القياس والاستعمال غير سليم من حيث المعنى».[3]

فاللّفظ إذا حُدِّد وفُسِّر باللّجوء للمعنى فهو تفسير معنوي، وإذا كان التّفسير بالاعتماد على اللّفظ دون المعنى فهو تحليل نحوي، والخلط بينهما يعتبر خطأً بل وتقصيرًا[4]، وذلك كالاقتصار على تحديد الفعل بأنّه ما دلّ على حدث وزمان فهذا تحديد على المعنى، أمّا التّحديد على اللّفظ، فهو ما تدخل عليه زوائد معيّنة مثل(قد، السين، ويصل به الضّمير في بعض صيغه)[5]، يقول **الحاج صالح**:« وقد بنى على ذلك النّحاة أنّ اللّفظ هو الأوّل لأنّه هو المتبادر للذّهن أوّلاً ثمّ يُفهم منه المعنى، ويترتّب على ذلك أنّ الانطلاق في التّحليل يجب أن يكون من اللّفظ في أبسط أحواله وهو الأصل».[6]

4- مفهوم الانفراد وحد اللّفظة:

ينطلق النّحاة من الاسم المفرد في تحليل اللّغة العربيّة، لأنّه النّواة والأصل وأطلق عليه الخليل الاسم المظهر، ولا يمكن لما في داخله أن ينفرد فهو بمنزلته، وأطلق عليه ابن يعيش والإستراباذي مصطاح اللّفظة، وترجمها **عبد الرحمان الحاج** صالحLexie[7]، وينقل الحاج صالح كلامًا للخليل على لسان تلميذه سيبويه يقول فيه:"**وأنّه لا يكون اسم مظهر على حرف أبدًا لأنّ المظهر يسكت عنده وليس شيء قبله، ولا يلحق به شيء**"، الذي يسكت عنده وليس شيء قبله هو الاسم الّذي(ينفصل ويبتدئ)، وبالفعل كان المنطلق عندهم كل ما ينفصل ويبتدئ وهي صفة الانفراد، ويمكن أن

---

[1] - ينظر: نظرية الأصل والفرع في النحو العربي، ص85-86.

[2] - الكتاب، ج1، ص49، وينظر:العامل عند الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح نموذج لربط التراث النحوي باللسانيات الحديث، ص71، وينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص218.

[3] المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في الوطن العربي، 378-379، وينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص218.

[4] - ينظر: العامل عند الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح نموذج لربط التراث النحوي باللسانيات الحديث، ص71.

[5] - ينظر: المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات الحالية في العالم العربي، ص379.

[6] - ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص219، وينظر: العامل عند الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح نموذج لربط التراث النّحوي باللسانيات الحديثة، ص71 وينظر: المفاهيم الأساسية للنظرية الخليلية الحديثة، ص4.

[7] - ينظر: العامل عند الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح نموذج لرط التراث النحوي باللسانيات الحديثة، ص72، وينظر: بحوث ودراست في اللسانيات العربية، ج1، ص219.

يكون بذلك الأصل لأشياء أخرى تتفرّع عليه، ولذا وجب أن ينطلق من أقلّ ما ينطق به ممّا ينفصل ويبتدئ(=ينفرد) وهو الاسم المظهر بالعربية[1].

إنّ مستوى اللّفظة لم تعرفه البنيويّة الأوروبية خاصّة، فهي ترى في الوحدة الدّالّة أو المورفيم هو ما يشكّل جزءًا أو قطعة من الكلام ولها حدود يمينًا وشمالاً، وإذا زِيدَ على ذلك أصبحت مورفيمًا، أمّا في العربية فالوحدة الدّالّة كالاسم والفعل قد يكونان يشكّلان مفردة،مثل كلمة"كتاب" أو على شكل هذه المفردة مع ما يدخل عليها لزيادة تحديد معناها كتخصيصه مثلاً بـ:(أل التعريف) ،"الكتاب"، أو الإضافة،"كتاب علي" أو الصّفة،"كتاب مفيد" أو الجر"بالكتاب" فهذه الوحدات عند العرب وحدات دالّة متكافئة، وهم ينطلقون من أنّ هذه الزّوائد لا تُغيّر الحكم، فالاسم يبقى اسمًا والفعل يبقى فعلاً وهما يكوّنان وحدة رغم هذه الزّيادة، وهذه الوحدات مع الزّوائد تكوّن الجمل، وهذا يعني أنّ الجملة العربيّة لا تتكوّن من مورفيمات فقط بل مجموعات مورفيميّة[2]، وهذا يعني أنّ المفردة قد تكون مورفيمًا واحدًا(عنصر واحد)، وقد تكون أكثر من مورفيم واحد(مجموعة)، كالمضاف والمضاف إلية، الصّفة والموصوف، وقد يذكر للاسم أكثر من صفة في الكلام، فهذا الاسم مع صفاته إن كانت في خطّ واحد فإنّه يمثّل وحدة عند العرب، وقد تفطّن البنيويّون الأمريكيّون لذلك مثبتين ذلك في تحليلهم إلى المكوّنات القريبةImmediat Constuents Analysis ، وتبعهم تشومسكي بعد ذلك، فحاول أن يصوغ ذلك على شكل شجرة، وأقرب نظريّة في هذا الجانب نظريّة الفرنسي جان كانيوبين الفرنسي المسمّاة بنظريّة الوساطة[3].

والانفصال والابتداء حسب **الحاج صالح** يمكنّ الباحث من استكشاف الحدود الحقيقيّة الّتي تحصل في الكلام وبهذا ينطلق البحث من اللّفظ أوّلاً ولا يحتاج أن يفترض أيّ افتراض، كما يفعل ذلك التّوليديون وغيرهم عندما ينطلقون من الجملة قبل تحديدها كما هو معلوم[4]، فهذا المنطلق هو عبارة عن وحدة لفظيّة(Unnité communicationnelle) ، لأنها يمكن أن تكون جملة مفيدة، وعلى هذا فهي تحتلّ مكانًا يتقاطع فيه اللّفظ مع المعنى أو البنية بالإفادة[5]، فهي تحتل موقعًا وسطًا فتحليل النّظريّة الخليليّة(يتوسّط بين الكلم المفردة ومستوى التّركيب)، وهو تحليل انفرد به الخليل وصحبه، وطوّرته النّظريّة الخليليّة بواسطة مفهوم(اللّفظة) الّتي تحدّد وفق مفهوم الاستقامة والإحالة وحدها وهو قابليّة الانفراد وفق مبدأ الانفصال والابتداء وهي في الوقت نفسه(وحدة إفاديّة)، لأنّها قد تكون جملة مفيدة في الكلام الحقيقي(المستعمل المتداول)، ولذا فهي كما ذكرنا تحتلّ موقعًا متوسّطًا بين اللّفظ والمعنى في النّظريّة الخليليّة الحديثة[6].

إنّ اللّفظة من هذا المنطلق في النظرية الخليلية الحديثة، عمادها الأساس الوقف والابتداء، فهي أقل ما ينطق به وينفصل، ويسكت عنه ولا يلحق به شيء، أو يبتدِيء فلا يسبقه شيء، فما ينفرد وينطلق أو ما ينفصل ويبتدئ هو صفة الانفراد، ومن الألفاظ ما ينفصل ويبتدىء مثل:"الرّئيس"نحو: جاء الرئيس، ومنها ما لا ينفصل ولا يبتدئ، مثل ضمير(تاء الفاعل) و(نا) "المضاف إليه"، كقولنا: "خرجت، كتابنا"، ومنها ما لايبتدئ ولا ينفصل كحرف الجر في قولنا:"في التّأنّي السّلامة"[7]، ويحمل النّحاة اللّفظة على غيرها من المثل والنّماذج، فتتفرّع إلى لفظات هي نظائر للنّواة، ولكنّها أوسع منها من خلال تعاقب زيادات قبليّة وبعديّة عليها، دون أن تفقد وحدتها أو تنفرد فيها أجزاؤها، فلا تخرج عن كونها لفظة(أي قطعة واحدة)، ويسمّى النّحويّون هذه القابلية للزّيادة يمينًا وشمالاً التّمكّن، وله درجات[8]:

---

[1] - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص219.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص72-73.

[3] - ينظر: بحوث ودراسات في اللّسانيات العربية، ج2، ص73.

[4] - ينظر: المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات الحالية في العالم العربي، ص379-380، وينظر:بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص 219.

[5] - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص219.

[6] - ينظر: العامل النحوي وتعليميّة النّحو العربي مفهومه في النّظريّة الخليليّة وتطبيقاته في تعليميّة النّحو، ص34.

[7] - العامل عند الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح نموذج لبرط التراث النحوي باللسانيات الحديثة، ص72، وينظر: المفاهيم الأساسية للنظريّة الخليلية الحديثة، ص5.

[8] - المرجع السابق، ص73.

- **التّمكّن الأمكن**، وهو الّذي يحمل معناه بداخله وليس في حاجة إلى غيره، ويتمثّل في اسم الجنس المتصرّف كرجل وفرس وشجرة.

- **التّمكّن غير الأمكن** ، ويتمثّل تحديدًا في الممنوع من الصّرف.

- **غير المتكّن ولا أمكن**، ويتمثّل في الاسم المبني.

وانطلاقًا من هذا التّصوّر للفظة حددها الحاج صالح إجرائيّا في الشّكل التالي[1]:

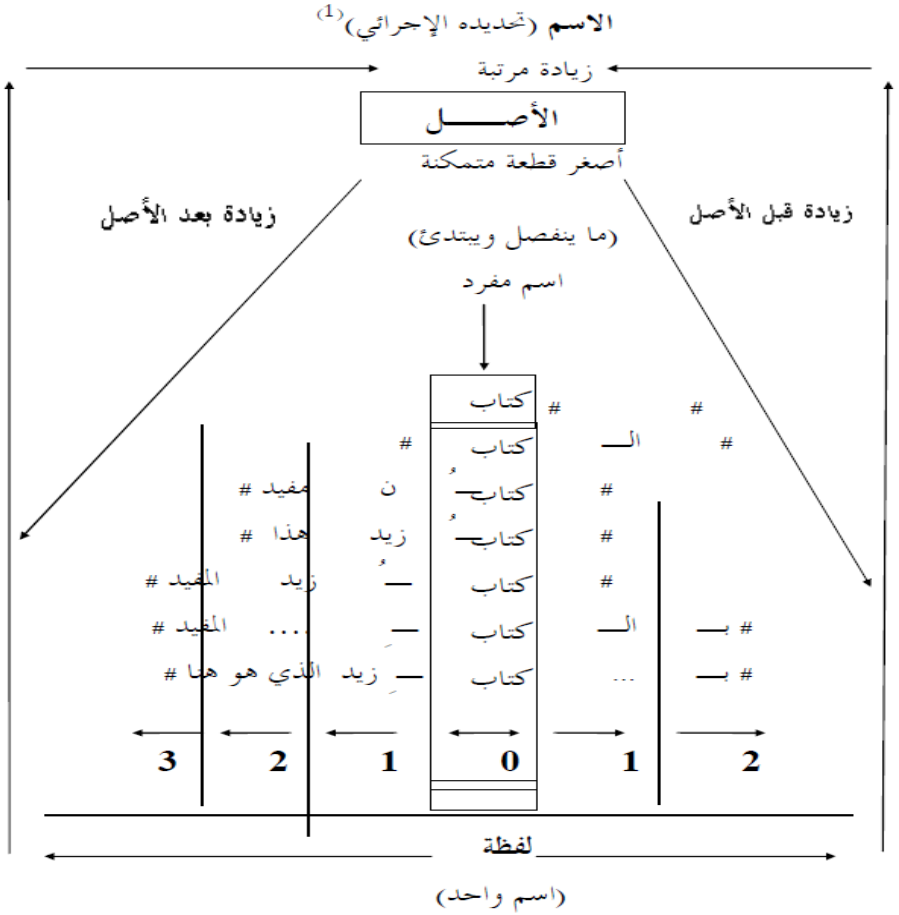

ومن التّحديد الإجرائي للاسم يتبين ما يلي:

- التّحويل بالزّيادة يحدّد الوحدات في النّظرية الخليلية.

-كل العمليات المحمولة بعضها على بعض بعمليات التّحويل هي نظائر للنّواة، من حيث إنها وحدات تنفرد أولاً ومفرّعة عنها بالزّيادة ثانيًا.

- الوحدات المحمولة بعضها على بعض مجموعة ذات بنية تسمّى في الاصطلاح الرّياضي بالزّمرة Structure de groupe،والعلاج الآلي للنصوص يستلزم مثل هذه الصّياغات الرياضيّة الّتي على شكل خوارزميات agorithmes[2].

5 - مفهوم الباب:

يطلق الباب أوّلاً على المجموعات المرتبة من الحروف الأصليّة للكلمة الثلاثية، مثل"(ض.ر.ب) و(ر.ب.ض)، وغيرهما، وكذلك على أبنية الكلمة، أي أوزانها مثل:(باب فَعَلَ)، و(باب فَعُلَ) وغيرهما، وهذان البابان يخصّان الكلمة أي المفردات[3]. ويتجاوز سيبويه هذا المستوى، فسمّى أنواع التّراكيب أبوابًا، وذلك مثل قوله:(باب حسبك)، و(باب لقيًا

---

[1] - العامل عند الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح نموذج لبرط التراث النحوي باللسانيات الحديثة، ص74، وينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص220.

[2] - المرجع نفسه، ص75، وينظر: مجلة اللسانيات، العدد6، الجزائر، 1982م، ص79.

[3] - ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص318.

وحمدًا)، وقد يقصد من الفصول الّتي قسّم بها كتابه أبوابًا، كقوله:(هذا باب ما جرى من الأمر والنّهي فيه أسماء مضافة)، و(هذا باب ما يضمر فيه الفعل)، وهذا في الجزء الأول من كتابه[1].

لذلك فإن مفهوم الباب لا يخصّ مستوى واحد من مستويات اللّغة بعينه، بل إنّه يشمل اللّفظ والمعنى إفرادًا وتركيبًا وما هو أعلى من هذه المراتب، ونسطيع القول بأنّ الباب«هو مجموعة من العناصر الّتي تنتمي إلى فئة، أو صنف وتجمعها بنية واحدة، وبصفة عامّة يجمعها مجرى واحد من المجاري الخاصّة بعناصر اللّغة»[2]، ومنه جاء مصطلح "**نحو الأبواب**"، وهو اتّجاه لساني يراعي تشكيل المادّة النّحويّة في العرض أن تكون على أبواب متعدّدة، كلّ باب يشكّل وحدة داخليّة علميّة تنسلك فيه مسائله بمنهج علمي في ترتيبها، وتجربة التّأليف في هذا الاتّجاه تظهر في تقسيم المادة النّحوية في كتب النّحاة على شكل أبواب، مثل :ما فعل سيبويه والمبرّد وابن السرّاج[3]، ومنه كذلك ما يعرف بنحو الأحكام، ونحو الظواهر، نحو المسائل.

فسيبويه على سبيل المثال جمع مسائل الاستثناء بشكل متسلسل، فبدأ أبواب مسائل الاستثناء بقوله:(هذا باب الاستثناء، فحرف الاستثناء إلاّ، وما جاء من الأسماء فيه معنى إلاّ فغير وسوى وما جاء من الأفعال فيه معنى إلاّ فلا يكون وليس وعدا وخلا، وما فيه ذلك المعنى من حروف الإضافة وليس باسم، فحاشى(حاشا) وخلا في بعض اللّغات سأبيّن لك أحوال هذه الحروف إن شاء الله عز وجل الأوّل فالأوّل)[4].

وقد استعرض سيبويه أدوات الاستثناء وقسّمها إلى أصل كلّي وهي (إلاّ)، وفروع فيها معنى إلّا تأتي أسماءً وأفعالاً وحروف جر، ووعد بتبيينها على التّرتيب فتحدّث عن النّصب بإلاّ وجوبًا ثمّ جواز الإتباع والنّصب في الاستثناء التام المنفي، ثمّ الاستثناء المنفي، ثمّ الاستثناء المفرّغ، ثمّ المتّصل ثمّ المنقطع، كما تحدّث عن علامة إلاّ مع غير في الاستثناء والاستدرك،وأوضح أحكام تقدّم المستثنى وتكراره، وجواز إيلاء إلاّ الجملة الاسميّة، وشرح أحكام غير، وربط بينها وبين إلاّ في حذف المستثنى استخفافًا، كقول العرب:"ليس غير، وليس إلاّ"، ثمّ بيّن أحكام سائر الأدوات[5].

ومن هذا نستنتج بأنّ الباب معنى منطقي لا مجرّد جنس بالمعنى الأرسطي، وأفراد الباب تجمعها صيغة أو مجرى لا صفة فقط كما هو في الجنس[6]، وبهذا المعنى هو عمليّة رياضية، أطلق عليها ابن جنّى "حمل الشيء على الشيء أو إجرائه عليه"[7]، والباب بمفهوم الحاج صالح"اعتبار شيء بشيء"، وبالمفهوم العلمي الحديث هو"تطبيق مجموعة على مجموعة أخرى تؤدّي إلى إظهار بنية تشترك فيها جميع عناصرها، وهذه البنية يستنبطها المحلل بهذا العمل، وهذا الإجراء بالذّات"[8]، ويمكن أن نمثّل للباب بهذا الشّكل البسيط المتمثّل في باب(مفعل) ومثاله مفعل: مَـ كْـ تَـ بْ

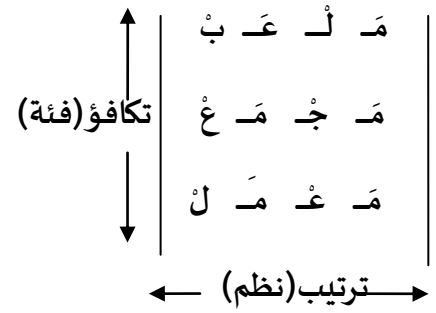

فهذه فئة اسم المكان الثّلاثي أي باب مَفْعَلْ(مثاله مَفْعَل):

---

[1] - ينظر: المرجع السابق، ص318.

[2] - المرجع نفسه، ص 318.

[3] - ينظر: التفكير العلمي في النحو العربي، الاستقراء، التحليل، التفسير: حسين خميس الملخ، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط1،2015م، ص152.

[4] - المرجع نفسه، ص152.

[5] - ينظر: التفكير العلمي في النحو العربي، الاستقراء، التحليل، التفسير ، ص152.

[6] - الاتّجاه التّوافقي، ص141.

[7] - الخصائص، ج1، ص213.

[8] - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1 ، ص،318.

تكافؤ ⟵ فئة+ ترتيب(أو نظم)= فئة اسم المكان- باب مَفْعَل ومثاله مَفْعَل.

ويعتبر الحاج صالح مفهوم وزن الكلمة ليس معروفًا عند اللّسانيين الغربيين، وإن تعرّف عليه بعضهم فعن طريق المستشرقين عن بنية العربيّة، وقد أخذ هؤلاء ذلك عن النّحاة العرب، أمّا من درس النّحو العربي التّقليدي فهو غالبًا يجهل أمرين اثنين هامّين:

أ- أنّ مفهوم المثال مفهوم منطقي رياضي محض، وهذا مخالف تمامًا للمنطق غير الرّياضي(غير اللّوجسطيقي).

ب- المثال غير منحصر في مستوى المفردات(الأوزان الصّرفية)، بل يتجاوزها إلى التّركيب الّذي له مُثله وليست التّرتيبات المختلفة(فعل فاعل مفعول)،(مبتدأ خبر) كما يعتقد الحسوبيون، بل هي مُثل أكثر تجريدًا، فللجمل المفيدة بُنى لا تتمثّل في ترتيب عناصرها، بل في مثال اعتباري يحصل في مستوى أعلى من التّجريد الإنشائي[1].

[1] - ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1 ص320-321.

المحاضرة السادسة:(اللسانيات العربية والغربية –التأثير)

تمهيـــد:

معلوم أنّ "التّراث الإنساني ليس ملكًا لأحد كما ذكر أبو سعيد السّيرافي في مناظرته الشّهيرة مع أبي بشر متّي بن يونس بقوله:"فإنّ علم العالم مبثوث في العلم بين جميع من في العالم"، وأنّ التقاء الحضارات وتبادل الثّقافات معروف مشهور والتّأثير والتّأثّر بين الشّعوب حتمٌ لازمٌ[1]، وأن لا شيء يُخلق من لا شيء، ولكن أردنا الخوض في مسألة إمكانيّة تأثّر علماء اللّسانيات الغرب بالتّراث اللّغوي العربي لأنّ هذه المسألة بالذّات ممّا يجعل الإنسان يطرح بعض التّساؤلات، هل اللّسانيات علم غربي خالص؟ وهل اللسانيات كما يقول أصحابها لها استقلاليّة وبداية جديدة تجعلها في حلٍّ، ولا تُدين بشيء، وفي غنى عمّا سبقها من علوم لغويّة؟! كيف يعترف الغرب أو يذهب جلّ الدّارسين أنّ سبب تطوّر الحضارة العلميّة الغربيّة ما نهله الغرب من العرب في شتّى الميادين العلميّة، غير أنّ شيئًا لا يكاد يذكر بخصوص نهضتهم اللّغوية؟ وهل هذا التّغييب هو تغييب وجود أم تغييب إقصاء مفتعل، وعدم إشهار له وعدم إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه؟ وليس ذلك غريبًا نظرًا لحساسيّة اللّغة وارتباطها بالمعتقد(جانب أيديولوجي).

1-هل للّسانيات الغربية الحديثة جذور عربيّة؟!:

في بداية النّهضة في العالم الغربي بداية القرن الخامس عشر يقف المؤرّخون على ظهور النّحو الفلسفي أو العقلاني ثمّ ازدهار النّحو المقارن في القرن التّاسع عشر بعد اكتشاف اللّغة السّانسكريتية(الهنديّة القديمة)، وهكذا ينعدم ذكر العرب عند التّأريخ للتّفكير اللّساني البشري بما يُحدث القطيعة في تسلسل التّاريخ الإنساني[2]، وليس التّاريخ اللّغوي العربي وحده المنسي، بل إنّ اللّغة العربيّة ذاتها باعتبارها نمطًا لغويًّا لا تجد حظّها عادة عند استعراض اللّسانيين لنماذج اللّغات في العصر الحديث![3].

ليس هذا فحسب، فلقد سبق العلماء العرب إلى كثير من النّظريّات العلميّة الّتي تنسب في الوقت الحاضر إلى علماء النّهضة الأوروبيّة، دون إشارة إلى هؤلاء الرّوّاد الّذين تكلّموا في التّطوّر قبل تشارلز داروين وفي الجاذبية قبل نيوتن، وفي انكسار الضّوء قبل ديكارت، وأعمال ابن الهيثم وابن مسكويه وابن النّفيس والرّازي وغيرهم كثير[4].

إنّ هذه الثّغرة كما يقول **المسدّي** ليست عفويّة، ولا يمكن أن تخلو من مؤشّرات تفسّرها، وإن لم تستطع تبريرها ذلك أنّ النّهضة الغربيّة قامت أساسًا على مستخلصات الحضارة العربية بعد أن ترجمت أمّهات كتبها، ونقلوا الرّياضيات والفلك والفيزياء والكيمياء والطبّ وحتّى الفلسفة، حتّى كان ابن رشد مفتاح النّهضة الأوروبيّة، فكانت وقود حضارتهم الّتي ملكوا بها العالم، فالغرب استفاد من كلّ جهود الحضارة العربيّة، مستثنين من ذلك تراث العرب اللّغوي إنّه لأمر عجاب؟![5].

ففي الوقت الّذي كانت فيه الحضارة العربية الإسلاميّة قد بلغت أوجّ تقدّمها وازدهارها، كان المجتمع الأوروبي يحيا حياة تتّسم بالتّخلّف والجمود والانحطاط في جميع مجالات الحياة، أطلق على هذه الفترة من حياة أوروبا اسم القرون الوسطى الّتي امتدّت من نهاية القرن الرّابع ميلادي، وظلّت معظم معالمها وأغلب ظواهرها باقية ما لا يقلّ عن عشرة قرون[6]، ولإثبات إمكانية تأثر اللسانيات الغربية بالتراث اللغوي العربي يمكن أن نستدلّ بما يلي:

---

[1] - ينظر: مدخل إلى تاريخ نشر التّراث العربي مع محاضرة عن التصحيف والتحريف، محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط1، 1984م، ص15.

[2] - مباحث تأسيسيّة في اللسانيات، ص34-35.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص35.

[4] - تحقيق التراث العربي منهجه وتطوّره، عبد المجيد دياب، دار المعارف بالقاهرة، ط1، 1983م ، ص13.

[5] - ينظر:التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص22-23، وينظر: مباحث تأسيسية في اللسانيات، ص35.

[6] - ينظر: التّراث العلمي والحضارة الإسلاميّة ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، أحمد فؤاد باشا، دار المعارف بالقاهرة، ط1، 1983م، ص24.

أ-إسهامات العلماء العرب في ازدهار الحضارة الغربية وسبقهم في شتى العلوم:

كانت عناية المسلمين في صدر الإسلام-خاصّة أيّام الأمويين- تقتصر على علوم الدّين واللّغة الّتي عرفت بالعلوم النّقليّة تمييزًا لها عن العلوم العقليّة الّتي وجّه إليها المسلمون نشاطاتهم الفكريّة في العصر العبّاسي، بعد أن استقرّت أمور الحكم وقلّت الحروب والفتوحات وكثرت الأموال والثّروات وراجت التّجارة ونشطت الرّحلات وبدأت الاتّصالات الثّقافية مع أمم ذات حضارات قديمة وكان طبيعيًّا أن تبدأ الحركة العلميّة في العصر الإسلامي بنقل معارف السّابقين، فانكبّ العلماء على ترجمة المؤلّفات اليونانيّة والسّريانيّة والقبطيّة والفارسيّة والهنديّة، وغيرها[1].

يقول المستشرق **جارودي** المعاصر:«**إنّه قبل نهاية القرن التّاسع الميلادي، ترجمت إلى العربيّة مؤلّفات أرسطو وجالينوس وأفلاطون وبطليموس وأرشميدس، كذلك ميكانيكا هيرون...وهي فترة لم تكن أوروبا قد تعلّمت القراءة! أنشأ المأمون في بغداد أكاديميّة ضخمة(بيت الحكمة)* وأصبح بفضلها معرفة الثّقافة اليونانية ميسورًا لجميع القرّاء، وهكذا فإنّ الثقافة العربية تعبّر عن الوجه الأساسي لعصر النّهضة الأوروبية، وهو الوجه الإنساني:أي بعث الماضي**»[2]، وفي هذا الشأن بالذّات يقول **برنال**:«**إنّ الفضل أعظم الفضل للعلماء العرب في الحفاظ على هذا التّراث وتدوينه ونقله والتّأليف فيه، وإنّ العلماء العرب قد بلغوا في ذلك شأوًا، وأنّهم تفوّقوا على الإغريق؛ إذ جعلوا العلم سهلًا مستساغًا فأقبل النّاس على النّهل منه، وكانت ميزة تفرّد بها العلم العربي**»[3].

لكن وبمجرّد اتّصال الأوروبيين بمراكز الحضارة العربيّة الإسلاميّة سواء أثناء الحروب الصّليبيّة الّتي تعتبر جسرًا عبرت عليه علوم الشّرق إلى الغرب، وبها تعرّف أبناء أوروبا على ذخائر العرب الرياضيّة والفلكيّة والطّبيّة والفلسفية[4] واستمرّ الاتّصال الحضاريّ بالشّرق مدّة قرنين من الزّمن، ولقد أتلف الغزو الصّليبي المراكز العصبيّة للحضارة الإسلاميّة في منطقة الشّام، وقضى على ألوف الكتب والمخطوطات وعلى رأسها مكتبة بني عمّار الّتي تذكر بعض الرّوايات أنّ كتبها بلغت ثلاثة ملايين مجلّد، وهو رقم وإن قيل بأنّه مبالغ فيه إلاّ أنّه مؤشّر على ضخامة هذه المكتبة وتراثها بكلّ المقاييس[5]، أو أيّام الأندلس حيث ساد ما يقرب عن ثمانية قرون أو عن طريق جزيرة صقليّة الّتي خضعت لحكم العرب ما بين منتصف القرن التّاسع وأواخر القرن الحادي عشر، وقد تأثّر الأوروبيون بالحضارة العربيّة الإسلاميّة المزدهرة في مصادرها المختلفة، فلجأوا إلى دراسة الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، واقتبسوا منها الشّيء الكثير، ولاسيما في مجال الفنون والعلوم الطّبيعيّة[6]. يقول **شوقي ضيف**:«**فلقد كان أسلافنا أساتذة للغرب في الأندلس وصقليّة وثغور الشّام ونهل منهم أبناء الغرب ممّا أتاح لهم نهضتهم الحديثة، حيث درس هؤلاء تراث العرب العلميّ في مؤلّفاته ومصنّفاته**»[7]، ولقد آمن الأوروبيون بأنّهم لايستطيعون أن يقفوا على تاريخ علومهم الطّبيعيّة وحضارتهم، إلاّ إذا وقفوا على تراث العرب العلميّ، لذا عنوا بجمع المخطوطات أيّام محنة المسلمين في الأندلس و صقليّة وفي أيام الحروب الصّليبيّة وعندما دخلوا بلادنا، حتّى تجمّع في مكتبات الغرب كمكتبة برلين ومكتبة باريس وليدن في هولندا والاسكوريال في إسبانيا وروما وصقلّيّة في إيطاليا ولينجراد وموسكو بروسيا وبرستون بأمريكا ما يزيد

---

[1] - المرجع السابق، ص32.

* - لقد أنشأ المأمون في بغداد عام 830 بيت الحكمة، وهو مجمّع علمي ومرصد فلكي يضمّ إليه مكتبة ضخمة، تقول الرّوايات أنّه أنفق حوالي مئتي ألف دينار(حوالي مليون دولار أمريكي)، وهو مبلغ لا يستهان به بالنسبة لذلك الوقت، ويذكر ابن خلدون أنّ الإسلام مدين إلى هذا المعهد العلمي باليقظة العلميّة الكبرى الّتي اهتزّت لها أرجاؤه، كما يرى ولديورانت أنّ النتائج الّتي ترتّبت على إنشاء هذا الصّرح العلمي كانت أشبه بنتائج النهضة الأوروبية الّتي أعقبت القرون الوسطى، لمزيد من الاطّلاع ينظر مثلاً: التراث، بقلم رئاسة التحرير، مجلة علم الفكر، الكويت، المجلد:8، العدد:1، أفريل، ماي، جوان1977م، ص9-10.

[2] - تحقيق التراث العربي منهجه وتطوّره، ص178.

[3] - المرجع نفسه، ص179.

[4] - ينظر: المرجع السابق، ص179.

[5] - تحقيق التراث العربي منهجه وتطوّره، ص13.

[6] - التّراث العلمي والحضارة الإسلاميّة ومكانته في تاريخ العلم والحضارة ، ص24-25.

[7] - في التراث والشّعر واللغة، د: شوقي ضيف، دار المعارف بالقاهرة، دط،1987م، ص68.

على ربع مليون كتاب![1] كما نشطت حركة التّرجمة من اللّغة العربيّة واللّغات القديمة إلى اللّغات اللاّتينية الّتي كانت وحدها لغة الأدب والعلم والدّين، ولكن عندما زاد اهتمام الأوروبّيين بلغاتهم القوميّة كالإيطالية والإنجليزيّة والفرنسيّة والألمانيّة والإسبانيّة، بدأوا بكتابة أبحاثهم ومؤلّفاتهم بهذه اللّغات ومن ثمّ انتقلت المعارف المتنوّعة إلى الشّعوب الأوروبّية في سهولة ويسر، وكان لاطّلاعهم على الكتب العربيّة المترجمة عن الإغريقيّة أكبر الأثر في تنبيههم إلى أهميّة تراث الإغريق والرّجوع إليه، ومحاولة الاستفادة من تراث حضارات العصور القديمة بالإضافة إلى تراث الحضارة الإسلاميّة في القرون الوسطى[2].

لقد واكبت الفصحى حركة النّهضة العلميّة وانتشرت مع انتشار الإسلام، ولم يمض وقت طويل حتّى تخلّت الدّول الّتي فتحها العرب عن لغاتها المحليّة وأخذت تتكلّم باللّغة الجديدة، الّتي أصبحت لغة عالميّة بفضل القرآن الكريم الّذي ضمن سلامتها وسهّل التّفاهم بها، وكان من نتائج ذلك أن فتحت اللّغة العربيّة صدرها لتراث الإنسانية وحفظت ما تركه الأقدمون، وكان العلماء المسلمون من الموالي يفضّلون كتابة مؤلّفاتهم بها حتّى أنّ أبا **الرّيحان البيروني** الّذي أتقن لغات عديدة، كتب كلّ مؤلّفاته الّتي تزيد عن المئة باللّغة العربيّة، وقال جملة لافتة" **إنّ الهجو بالعربيّة أحبّ إليه من المدح بالفارسيّة**"[3].

ويكاد يُجمع المؤرّخون لتاريخ العلم بأنّه لولا علماء الحضارة الإسلاميّة لتوقّف سير المدنيّة عدّة قرون، ولاضطرّ علماء النّهضة الأوروبيّة أن يبدأوا من حيث بدأ علماء العرب الّذين حفظوا التّراث العلمي، وعملوا على إنمائه وتطويره فابتكروا علومًا، واستحدثوا فنونًا، ونهجوا أسلوبًا علميًّا سليمًا، ونقل عنهم علماء أوروبا لكنّ معظم آرائهم وابتكاراتهم العلميّة الأصليّة نسبت ظلمًا إلى غيرهم، والْتَفَتَ التّاريخ إليهم حديثًا لإنصافهم في بعض حقوقهم الشّرعيّة ،كما حدث لابن النّفيس في اكتشافات الدّورة الدّمويّة، ولابن الهيثم في وضع أساسيات علم البصريّات والخوارزمي، وعمر الخيام في صياغة بعض القوانين والمعادلات الرّياضيّة، والبيروني وابن سينا والهمداني في إدراك أصول قوانين الميكانيكا الكلاسيكيّة[4].

لذا يمكن القول بأنّ إسهام علماء العصر الإسلامي يعتبر أجلّ أثرًا وأكثر خطرًا، لأنّه ضمن استمرار تقدّم العلوم في عصر النّهضة الحديثة ودفعه مسيرة تطوّرها لحدّ اليوم، فبعد أن نقل علماء أوروبا علوم العرب واستوعبوها، اكتشفوا أنّ سرّ تطوّر هذه العلوم وازدهارها، يكمن في اتّباع أسلوب علمي سليم واستخدام آلات وأجهزة في الكشف عن ظواهر الطّبيعة، ولذلك فإنّهم استطاعوا تفسير الكثير من المسائل الّتي عجز عن حلّها القدماء، وتمكّنوا من فتح آفاق جديدة في مختلف فروع المعرفة، تميّز علماء الحضارة الإسلاميّة بكل ما هو حميد وضربوا المثل الأعلى في حب العلم والمثابرة على البحث العلمي والابتعاد عن الغرور والتّمسّك بالأمانة والزّهد، ولعلّ ذلك ما يفسّر غزارة إنتاجهم وأصالة بحوثهم وابتكاراتهم وتعدّد تخصّصاتهم واتّساع ثقافاتهم ومعارفهم، فكانت لهم شخصيّتهم الّتي تفرّدوا بها بين علماء العالم على مرّ العصور.

وبذلك فقد كان لعلماء الحضارة الإسلاميّة فضل السّبق إلى اتّباع الأسلوب العلمي في أبحاثهم ودراساتهم وكانوا يقدّسون العقل والتّفكير، وإذا رأوا أمرًا يختلف عن آراء من سبقوهم انطلقوا إلى إثبات أرئهم الشّخصيّة في ثقة وشجاعة واستخدموا المنهج العلميّ التّجريبي أساسًا للبحث العلميّ السّليم، فكان هذا أهم الأسس الّتي قامت عليها النّهضة العلميّة في العصر الإسلامي، بل وقامت عليها حضارة العالم المعاصر بأكملها[5].

---

[1] - ينظر: تحقيق التراث العربي منهجه وتطوّره، ص186-187.

[2] - التّراث العلمي والحضارة الإسلاميّة ومكانته في تاريخ العلم والحضارة ، ص24-25.

[3] - ينظر: مدخل إلى تاريخ نشر التّراث العربي مع محاضرة عن التصحيف والتحريف، ص31-32.

[4] - التّراث العلمي والحضارة الإسلاميّة ومكانته في تاريخ العلم والحضارة ، ص40-41.

[5] - المرجع نفسه، -41-42.

وقد صار من مكرور القول ومعاد الكلام أنّ الحضارة العربيّة- فوق أنّها أبدعت وأنتجت في شتّى ضروب العلم والمعرفة- **كانت** حلقة وصل واتّصال بين ما قدّمته الحضارة اليونانيّة العريقة وبين اللاّتينية الحديثة، مما جعل الأوروبيين يعتلون ريادة العالم وصدارته، غافلين أو متناسين عن روافده ومصادره، والدّلائل على ذلك كثيرة أباح بها بعض المنصفين منهم وشهدوا بها[1]، ولعلّ من المناسب في هذا الصّدد أن نسرد مجموعة من الاعترافات لبعض العلماء والمستشرقين الغربيين الّتي أنصفت علماء الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وبيّنت دورهم فيما وصلت إليه الحضارة الغربيّة من تطوّر:

ب- بعض الشهادات الغربية عن دور العلماء العرب في بناء صرح الحضارة الغربية:

يمكن أن نورد في هذا السياق- إضافة إلى ما سبق ذكره- جملة من الاعترافات الشجاعة والمنصفة لبعض المستشرقين والباحثين الغربيين:

تقول **المستشرقة الألمانية "سيجريد هونكة"** في كتابها"فضل العرب على أوروبا"،و"شمس الله على الغرب":«**إنّ أوروبا تدين للعرب وللحضارة العربيّة وأَنَّ الدَّيْنَ في عنق أوروبا وسائر القارّات الأخرى للعرب كبير جدًّا، وكان يجب على أوروبا أن تعترف بهذا الصّنيع منذ زمن بعيد، لكنّ التّعصّب واختلاف العقائد أعمى عيوننا! وترك عليها غشاوة، حتّى إنّنا نقرأ ثمانية وتسعين كتابًا من مئة، فلا نجد فيها إشارة إلى فضل العرب، وما أسدوه إلينا من علم ومعرفة!**[2] **...إنّها سبّة أن يعلم أهل العلم من الأوروبّيين أنّ العرب أصحاب نهضة لم تعرفها الإنسانية من قبل، وأنّ هذه النّهضة فاقت كثيرًا ما تركه اليونان أو الرّومان...إنّ هذه النّظرة الأوروبية دليل على ضيق أفق الغربيّين، وخشيتهم قول الحق، والاعتراف بفضل العرب في تغيير وجه العالم الّذي نعيش فيه، حين ظلّوا ثمانية قرون طوال يشعّون على العالم علمًا وفنًّا وأدبًا وحضارة**»[3].

كما نذكر شهادة أخرى تحسب لصاحبها المستشرق البلجيكي المؤرّخ الفيلسوف"**جورج سارتون**" المتوفّي سنة1956م، والّذي يعتبر من أكبر المتخصّصين في تاريخ العلوم وبخاصّة علوم العرب، حيث يذهب هذا المؤرّخ **إلى أنّ المسلمين الّذين يعتبرهم عباقرة الشرق في القرون الوسطى لهم فضل على الإنسانية، يتمثّل في كونهم تولّوا كتابة أعظم المؤلّفات والدّراسات قيمة وأكثرها أصالة وعمقًا، مستخدمين في ذلك لغتهم العربيّة الّتي كانت بلا مراء-كما يقول- لغة العلم للجنس البشري في الفترة من منتصف القرن الثّامن حتّى نهاية القرن الحادي عشر لدرجة أنّه كان يتحتّم على الشّخص الّذي يريد الإلمام بثقافة عصره وبأحدث ما يجري فيه من علوم أن يتعلّم اللغة العربيّة**[4]، ويقول كذلك:«**إنّ بعض المؤرّخين يحاول أن يبخس قدر ما قدّمه العرب للعالم ويصرّحون بأنّ العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة، ولم يضيفوا إليها شيئًا وهذا الرأي خطأ، وإنّه لعمل عظيم أن ينقل إلينا العرب كنوز الحكمة اليونانيّة ويحافظوا عليها، ولولا ذلك لتأخّر سير المدينّة قرونًا عديدة**»[5].

ويقول **نيكسون** من كلام طويل:«**وما المكتشفات لتحسب شيئًا مذكورًا إزاء ما نحن مدينون به للروّاد العرب الّذين كانوا مشعلاً وضّاءً في القرون الوسطى المظلمة في أوروبا**»[6].

ممّا سبق ذكره من هذه اللّفتة التّاريخيّة لجهود الحضارة العربيّة الإسلاميّة ودورها في إغناء بل وإسناد وبناء الحضارة الغربيّة اليوم، هذه اللّفتة المسنودة ببعض الأحداث التّاريخية الثّابتة، والّتي لا زالت آثارها راسخة في أوروبا نفسها في إسبانيا والبرتغال وإيطاليا، وفي رفوف مكتباتها العريقة، يضاف إليها بعض الشّهادات المنصفة لبعض

---

[1] - ينظر: مدخل إلى تاريخ نشر التّراث العربي مع محاضرة عن التصحيف والتحريف، ص16.

[2] - تحقيق التراث العربي منهجه وتطوّره، ص179.

[3] - التّراث العلمي والحضارة الإسلاميّة ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، ص41.

[4] - التراث، بقلم رئاسة التحرير، ص3.

[5] - مدخل إلى تاريخ نشر التّراث العربي مع محاضرة عن التصحيف والتحريف، ص19.

[6] - المرجع نفسه، ص16.

الباحثين الغربيّين خاصّة المستشرقين منهم، يجعلنا نعتبر تأثّر اللّسانيات الغربيّة بالتّراث اللّغوي العربي أمرًا ممكنًا وواردًا، بما أنّ البحث اللّغوي العربي جزء أصيل من الحضارة العربيّة الإسلاميّة الّتي استضاء بها الغرب، وعبروا بها إلى ما وصلوا إليه من تطوّر وتقدّم ما يجعلنا نقول إن أغلب ما وصل إليه هؤلاء من تقدّم ورقيّ روحه عربيّة إسلاميّة، وحتّى لو فرضنا بعدم استفادة الغرب من جهود العرب اللّغويّة! فإنّ ذلك كان خسارة للّسانيات وللحضارة الإنسانيّة جمعاء.

2- تجاهل الغربيين للتراث اللغوي العربي ونفي أي تأثر به؟!

يرجع عبد السّلام المسدّي الأسباب الّتي دعت إلى الغفلة عن خط العرب في إثراء التّفكير اللّغوي الإنساني ورود النظريّة اللغويّة العربيّة مبثوثة بمختلف أصناف وأضرب تراثهم الحضاري، وكانت نتيجة هذا النّسيان أو التّناسي قطعًا في تسلسل التّفكير اللّساني عبر الحضارة الإنسانيّة، فنهضت الحضارة الغربيّة على أساس التّراث اليوناني ولكن بمعزل عن مستخلصات ثمانية قرون من مخاض التّفكير اللّغوي عند العرب![1] وهو أمر لم يكن في صالح اللّسانيات الغربيّة نفسها، ذلك أنّ الغرب لو انتبهوا إلى نظريّة العرب في اللّغويّات العامّة عند نقلهم لعلومهم في فجر النّهضة لكانت اللّسانيات المعاصرة على غير ما هي عليه اليوم، بل لعلّها كانت تكون قد أدركت ما قد لا تدركه إلاّ بعد أمد[2] ذلك أنّ اهتمام العرب بلغتهم كان اهتمامًا لا نظير له، ولا يمكن حتّى مقارنته بالعلوم التّجريبيّة الّتي ازدهرت عند العرب وأخذها الغرب، كالطب والكيمياء والفيزياء والرياضيات والهندسة، ذلك أنّ الحضارة العربيّة كانت اللّغة عمادها الأساس فاتّسمت قبل كلّ شيء بالمقوّم اللّفظي، ولقد عبّر عن ذلك **المسدّي** بقوله:«**ولعلّ ذلك ما كان إلاّ محصولاً طبيعيًّا لعوامل تاريخيّة تنصبّ جميعًا في ميزة الحضارة العربيّة الّتي اتّسمت قبل كل شيء بالمقوّم اللّفظي، حتّى كاد تاريخ العربي يتطابق وتاريخ سلطان اللّفظ في أمّته، ولم تكن معجزة الرّسول صلى الله عليه وسلم إلاّ من جنس حضارتهم في خصوصيّتها النّوعيّة**»[3]. ومن هذا المنطلق الحضاري، فإنّ التّراث العربي هو جزء لا يتجزّأ من التّراث الإنساني، وهو ملك مشاع بين روّاد المعرفة البشريّة، وحرام أن يظلّ مغلقًا أمام بصائرهم، وبقراءة التّراث العربي إغداق للفكر الإنساني بوابل الإسهام، فتتحوّل علاقتنا بعلم اللّسان الحديث تحوّلاً طبيعيًّا من مركز الخصيم إلى موقع النّصير[4].

كما لا يُستبعد أن يكون علماء اللّسانيات المتأخرين خاصّة قد تعرّفوا على بعض الجهود العربيّة في هذا المجال على غرار **تشومسكي خاصّة**، حيث يذهب **عبد الرحمان بودرع** إلى أن العلماء والباحثين الغربيّين اللّسانيين درسوا اللّغات الطّبيعيّة في بعدها الإنساني الشّامل، متجاوزين الدّارسات اللّغويّة الكلاسيكيّة الّتي تختص بوصف لغات خاصّة، ولا يتمّ ذلك إلاّ بتمحيص واستعراض جهود العلماء القدماء، فتشومسكي قد بنى قواعده المعروفة من خلال إحياء القواعد الأكثر قدمًا.

إنّ **تشومسكي** بنى نحوه التّوليدي على مادّة علميّة غزيرة استقاها من مصادر كثيرة اعتمادًا أو نقدًا، منها أنحاء القرنين(17و18م) ذات الأسس الفلسفيّة والمنطقيّة، كما استقاها من النحو البانيني القديم(الهندي)، ومن الفيلسوف الفرنسي **ديكارت** ومن مفكّرين ولغويّين غربيّين كبلومفيلد وهمبولدت وهاريس، لكنّ الدّراسات لا تذكر أثرًا لاطّلاعه على النّحو العربي أو على علم من أعلامه، وليس بعيدًا كما يقول عبد الرحمان بودرع أن يكون تشومسكي قد سعى إلى الاطّلاع على كتاب سيبويه، وخاصّة نظريّة العامل وما يدور في فلكها كالحذف والتّقدير، ولعلّ ذلك ما يظهر من خلال نظريته المعروفة"العامليّة والرّبط"، وإن لم يصرّح بذلك كما يقول بعض الباحثين[5].

---

[1] - ينظر: التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص23.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص23، ينظر: مباحث تأسيسيّة في اللسانيات، ص36.

[3] - مباحث تأسيسية في اللسانيات، ص31، وينظر: التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص24-25.

[4] - ينظر: المرجع نفسه، ص34.

[5] - ينظر: في اللسانيات واللغة العربية، عبد الرحمان بودرع، كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط1،2016م، ص28.

إنّ التّطوّر الباهر الّذي عرفته قواعد تـ**شومسكي** التّوليديّة التّحويلية يرجعه عبد الرّحمان الحاج صالح إلى تعرّفه على النّحو العبري الّذي وضعه أحبار اليهود في القرون الوسطى(ونحن نعلم أنّ النّحو العبري تطوّر إبّان العهد الأندلسي من قبل نحاة اليهود الإسبان وهم قد تأثّروا بقواعد النّحو العربي)، وعلى الأجروميّة من خلال أستاذه روزنتال، حيث تفطّن إلى مفهوم القاعدة النّحويّة ودورها كنمط يكتسبه الطفل تأثّرًا بمحيطه، ولقد أرجع للتّحويل قيمته الّذي أهملته الدّرسات السّابقة بما فيها البنيويّة [1]، كما لا نستغرب أن يقف **تشومسكي** وقفة دهشة وعجب من التّراث العربي اللّغوي (النّحوي والدّلالي) عندما علّق على **رسالة الدّكتوراه لمازن الوعر** في رسالة بعث بها لمازن الوعر كتبها يوم26 نيسان(أفريل)1982م يقول فيها:«...**لقد دهشت بشكل خاصّ من تلك التّعليقات اللّغويّة الّتي وردت في ثنايا هذه الدّراسة والّتي كان قد قالها العرب القدامى، إنّ هذا وحده يجعل هذه الدّراسة إسهامًا قيّمًا جدًّا لتطوير الدّراسات اللّسانية الغربيّة...**[2]»، كما علّق اللّساني الأمريكي الأخر "**ولتركوك**" على تلك الرّسالة بقوله:«**إنّنا لا نعرف بأنّ العرب النّحويين القدامى قد توصّلوا إلى ما ذكرته في رسالتك، لذلك ينبغي أن نترجم أكثر أعمالهم من العربيّة إلى الإنجليزيّة!**»[3]، كما علّق تشومسكي أيضًا على رسالة الدكتوراه لأحمد المتوكّل، ذاكرًا بأنّ ما قاله العرب القدماء في حقل الدّلاليات يعدّ فكرًا فلسفيًّا عميقًا، لا بدّ من الأخذ به في الفكر الدّلالي المعاصر، وقد وعد تشومسكي المتوكّل بأنّه سيعتمد على هذه النّظريّة في الأعمال الّتي سيقوم بها في المستقبل![4].

وفي هذا السّياق نختم بشهادة أكثر وضوحًا من الباحث **مايكل بريم**، حيث يقول(في رسالة الدّكتوراه-الصّوتيات العربيّة-معهد ماستشوستس للتكنولوجيا، ص6-1970م):"**أعتقد أنّ النّحو العربي قد وصل إلى أدنى انحطاطه على أيدي الباحثين الغربيّين، فقد تجاهل الغرب المعاصر الفكر العربي الخارق الّذي تمتّع به النّحاة العرب في تحليلهم لبنية اللّغة العربيّة، أحبّ أن أقول إنّ عملي هذا في الصّوتيات العربيّة إنّما استمدّ إلهامه من الرّوح العلميّة لذلك الفكر العربي الخارق الّذي أراد تحديد الأصل أو التّمثيل الدّقيق للغة العربيّة**[5]".

في الأخير يمكن قول كلمة فصل في هذه المسألة، إنّ هناك صمتاً مطبقًا في مسألة تأثّر الغربيّين بجهود العرب اللّغويّة، وهو أمر بالغ الغرابة، ويكاد لا يصدّقه عقل، فكيف يستفيد هؤلاء من كلّ جهود العرب الأخرى، مستثنين جهودهم اللّغويّة بالذّات، خاصّة وأنّ إبداع العرب في هذا المجال لا يقل عمّا ابتدعوه في المجالات الأخرى، إن لم يكن أفضلها على الإطلاق؟!أمّ أنّ ما ليدهم في هذا المجال يغنيهم عمّا عند العرب، وهذا أمر واضح، إنّ تخلّف الأوروبيين في القرون الوسطى كان يشمل كلّ المجالات دون استثناء، بما فيها الدّراسة اللغويّة فحتّى لغاتهم كانت بدائيّة لنتحدّث عن دراسات متخصّصة تصف وتشرح وتحلّل تلك اللّغات؟! والسّؤال الّذي نعيد طرحه، هل هذا التّغييب تغييب وجود بمعنى أنّهم لم يلتفتوا، ولم يهتمّوا مطلقًا بجهود العرب اللّغويّة، وهذا أمر مستبعد تمامًا في اعتقادي للأسباب سالفة الذّكر؟! أمّ أنّ هذا التّغييب تغييب إقصاء وإنكار، بدافع الحقد الدّفين للغرب تجاه العرب والمسلمين، خاصّة لحساسيّة اللّغة وارتباطها بالدّين الحنيف، وبالقرآن الكريم(الجانب الإيديولوجي)، فأمّا هذا الأمر فعكس الأوّل، فهو غير مستبعد تمامًا؟!

وإذ كنّا لا نملك الدّليل القطعي، لا على هذا ولا على ذاك، وإن تمّت الإشارة إلى التقارب الّذي حدث في الآونة الأخيرة بين الاتّجاه التّوليدي التّحويلي، وكذلك الوظيفي التّداولي من جهة والتراث العربي من جهة ثانية، لكن حتّى ولو افترضنا عدم اطّلاعهم على تراث العرب اللّغوي، فإنّ ذلك لايُنْقِصُ من قيمته شيئًا، ذلك أنّ كتب المتقدّمين من

---

[1] - ينظر: العامل عند الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح نموذج لربط التراث النحوي باللسانيات الحديثة، علي بلول، رسالة ماجستير، إشراف:عبد المجيد عيساني، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، 2012/2011م، ص57-58.، وينظر: المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث،ص 75، وينظر: المدخل في علم اللغة، كارل دیتر بونتينج، ترجمة وتعليق:السعيد حسن البحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2006م، ص203-211.

[2] - قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، ، ص360، وينظر: العربية والإعراب، عبد السلام المسدي، مركز النشر الجامعي، تونس، دط، 2003م، ص228.

[3] - المرجع نفسه، ص360، وينظر: العربية والإعراب، ص228.

[4] - ينظر: المرجع نفسه، ص360-361، وينظر: العربية والإعراب، ص229.

[5] - دراسات نحويّة ودلاليّة وفلسفيّة في ضوء اللسانيات المعاصرة، ص115.

النّحاة كالخليل وسيبويه وابن جني وابن السرّاج والجرجاني وغيرهم، تدلّ على عمق تفكير في النّظر والتّقعيد، حتّى وُصفت جهودهم بالسّابقة لأوانها أو أنّهم لم يتركوا للمتأخرين شيئًا، وقد تمت الإشارة إلى بعض تلك الأفكار خاصّة في المحاضرة السابقة.

وإذا كان التّأثير والتّأثر بين الحضارات يكاد يكون قدرًا محتومًا لابدّ منه، فقد لا يكون نهجًا يُتّبع ولا على سبق إصرار وترصّد، خاصّة إذا كان التّأثير يتعلّق بظاهرة ذات طابع عالمي كاللّغة ولو اختلفت الألسن، لكنّ تفسير هذه الظّاهرة وتحليلها يتشابه إلى حدّ التّماثل والتّطابق في كثير من الحالات، فكما يقول **محمد عابد الجابري" إنّ الثّقافة العربيّة الإسلاميّة كانت تمثّل خلال أوجّ ازدهارها ثقافة عصرها على مستوى عالمي فلم تكن محدودة ولا منغلقة كثقاة الهند أو الصين أو الفرس، بل على العكس كانت ثقافة متفتّحة قابلة لاستيعاب كلّ أنواع الثّقافات الّتي احتكّت بها ومن هنا عالميّتها، فهل هناك من يستطيع أن يفصل -بطريقة علميّة- في التراث العربي الإسلامي الّذي بين أيدينا اليوم بين ما هو عربي خالص، وما هو يوناني خالص، وما هو هندي خالص، وما هو فارسي خالص**[1]؟"

وما ينطبق على التّراث العربيّ الإسلاميّ، ينطبق عن الحضارة الغربيّة المعاصرة، فهي ليست انعكاسًا إيديولوجيًّا للأوضاع الاجتماعيّة الّتي يعيشها الغرب، بل هي نتاج فكر عالميّ تمتزج فيه الإيديولوجيات والمفاهيم والتّصوّرات الدّينيّة والفلسفيّة والأخلاقيّة، إلى جانب العلم الّذي يحتل فيه مكانة أساسية ورئيسيّة، وعلى الرّغم من هيمنة المظاهر الأوروبية فيه، فإنّ الجوانب القديمة الإنسانيّة –اليونانية والرّومانية والإسلاميّة والشّرقية بكيفية عامّة مازالت تلعب داخله دورًا هامًّا سواء في المنطلقات، أو الصّياغة، إنّ الفصل بين الفكر الغربيّ والفكر الشّرقي في الثّقافة المعاصرة فصل تعسّفي لا علميّ[2].

3- دور اللسانيين العرب المحدثين في إغناء وإثراء النظريات اللسانبية والاشتغال داخلها:

إنّ العمل المتميّز الّذي يقوم به أحمد المتوكّل بإغناء الاتّجاه الوظيفي التّداولي والمساهمة في تطويره يجعل من تأثر اللّسانيات الحديثة بالتّراث اللّغوي العربي أمرًا واقعًا بالفعل، والمتوكّل كما هو معلوم ينطلق من أنّ التراث اللغوي العربي وظيفيّ من حيث المفاهيم والمنهج والمقاربة، حيث يذكر **المتوكّل** مثلاً في سياق حديثه عن الكفايات الثلات(التّداولية والنّفسة والنّمطيّة)**:«ما نريد قوله هنا أنّ المنحى الوظيفي العربي أسهم في إغناء الكفايات الثّلاث طيلة العقود الثّلاثة الأخيرة، وقد كشفنا عن ذلك بوضوح في كتابنا"المنحى الوظيفي في الفكر اللّغوي العربي"**»[3] ولقد تبنّى **سيمون ديك**Simon Dick(1940م-1995م) مؤسّس النّحو الوظيفي عدّة اقتراحات ممّا تقدّم به المتوكّل، وخاصّة ضرورة التّمثيل للقوّتين الإنجازيّتين الحرفيّة والمستلزمة حواريًّا في بنية النحو الوظيفي، وقد أصبحت أعمال المتوكّل الوظيفيّة التّداوليّة الّتي تنطلق من اللغة العربيّة مصدرًا لا يستغنى عنه ضمن الأدبيّات الوظيفيّة العالميّة[4].

كما **أنّ** الفاسي الفهري وإن كنّا نعرف موقفه الرافض التّراث اللّغوي العربي- فإنّه رغم ذلك استعمل أفكار النّحاة في إطار دراسة اللّغة العربيّة بمنظور توليدي تحويلي من داخل النّظريّة وليس تطبيقًا لقواعد جاهزة مستوردة، فقد كان يكيّف بجهده الخاص قواعد توليديّة تحويليّة تتناسب مع اللّغة العربيّة، وإذا كان الباحثون يعترفون بكونه ساهم بشكل فعّال في إثراء وإغناء هذه النّظريّة، بما كان يقوم به من تحليل للّغة العربيّة، وهذا يعني ضمنًا أنّ اللّغة العربيّة وبعض قواعدها قدّ أصبحت داخل نماذج هذه النّظريّة وجزءًا لا يتجزّء منها ما يعني الانصهار والاحتواء، وسيأتي التفصيل في بعض أعمال أحمد المتوكّل والفاسي الفهري في المحاضرات القادمة.

---

[1] - التراث والحداثة دراسات ومناقشات، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1991م، ص37-38.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص40.

[3] - أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات حصيلة نصف قرن من اللسانيات في الثقافة العربية، إعداد وتقديم:حافظ إسماعيلي علوي، وليد أحمد العناتي، دار الأمان، الرباط، ص44.

[4] - اللسانيات العربيّة أسئلة المنهج، مصطفى غلفان، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط1، 2013م، ص35-36.

المحاضرة السابعة:(اللسانيات العربية والغربية التأثير)

أولا:التفكير النحوي العربي بين الأصالة والأثر الأجنبي:

تمهيـــــد:

إن من أهم ما أشكل فيما يخص النحو العربي هو من أين نشأ، وكيف، ومتى نشأ[1]، غير أن الباحث يقف أمام ثلاثة آراء تتعلق بهذه المسألة الجوهرية، ففي حين ذهب فريق إلى القول بأن هذا العلم نبت في بيئة عربية خالصة كما تنبت الشجرة في بيئتها، لعدم وجود السند التاريخي الذي يخالف ذلك،[2] ذهب فريق ثان عكس ذلك تماما حيث يؤكد بأن النحو العربي مدين للفلسفة اليونانية بأهم معطياته، ونشأ في بيئة متشبعة بها، وبوب على أساس مقولاتها، واكتمل بناء صرحه بفضل ما اقتبس من مقولاتها[3]، ووقف فريق ثالث موقفا وسطا، حيث ذهب إلى القول بأن بداية هذا العلم كانت عربية خالصة، ثم تأثرت بعد ذلك بالفلسفة اليونانية، حيث أخذ النحويون ما اتصل بالنحو منها وظهر ذلك في التقسيم الثلاثي للكلمة والقياس والعلة، وما إلى ذلك من مصطلحات[4].

1-القول بأصالة النحو العربي:من المتحمسين للقول بأصالة النحو العربي وعدم تأثره بالثقافات الأجنبية، ولاسيما اليونانية والسريانية المستشرق الفرنسي"**جيرار تروبو**"، الذي نشر بحثا رد فيه على القائلين بعدم أصالة النحو العربي، سماه" نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه" وذهب فيه إلى القول بأن القائلين بتأثر النحو العربي بالثقافات الأجنبية المذكورة، قد اقتبسوا في دراساتهم النحوية أربعة مصطلحات عن المنطق اليوناني، هي الإعراب، الصرف، التصريف، والحركة، وأنهم اقتبسوا عنهم أيضا التقسيم الثلاثي للكلمة" **الاسم والفعل والحرف**"، والتي يقابلها في اليونانية ثمانية، وهي"**الحرف، المجموع، الرباط، الفاصلة، الاسم، الكلمة، الرقعة، والقول**"، ثم أخذ كل كلمة من هذه الثماني، ويقابلها بالتقسيم الثلاثي العربي ، وينتهي بعد هذه المقابلة إلى أنه من الناحية اللسانية يظهر أنه من المستحيل أن يكون التقسيم الثلاثي العربي منقولا من التقسيم اليوناني، لأن عدد الأقسام ومضمونها يختلف في النظامين اختلافا تاما[5].

إن الاحتجاج بالشبه بين تقسيمات النحاة العرب ومصطلحاتهم، وتقسيمات أرسطو ومصطلحاته مردود بأن هذا الشبه لا يصل إلى حد التطابق، وأنه لا يقوم على استنباط ذهني مجرد، بل ميدانه استقراء اللغة، وكل لغة لا بد أن تقود إلى مثل هذا التقسيم، وفي مقارنة بسيطة بين النحو العربي وأرسطو فيما تعلق بتقسيم الكلم[6]، ففي الكتاب يقول سيبويه:«**فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، فالاسم رجل وفرس وحائط، وأما الفعل، فأمثلته أخذت من لفظ أحداث الأسماء وبنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن ولم ينقطع**»[7]، في حين يحدد **أرسطو** الاسم بقوله: «**لفظة دالة بتواطؤ مجردة من الزمان وليس واحد من أجزائها دالا على انفراده**[8]»، وحين يعرف **أرسطو** الكلمة، وهي ما يدعوه النحاة الفعل، حيث يقول:«**وأما الكلمة فهي ما يدل - مع ما تدل عليه- على زمان وليس واحد من أجزائها يدل على انفراده، وهي أبدا دليل على ما يقال على غيرها**[9]».

---

[1] - منطق العرب في علوم اللسان، د: عبد الرحمان الحاج صالح، موفم للنشر، دط،2012، ص32.

[2] - ينظر:في التفكير النحوي عند العرب، زهير غازي زاهد، ص61، وينظر كذلك: الفكر النحوي عند العرب، أصوله ومناهجه، علي مزهر الياسري، ص105.

[3] - ينظر: نظرات في التراث اللغوي العربي، عبد القادر المهيري، ص85.

[4] - ينظر: في التفكير النحوي عند العرب، زهير غازي زاهد، ص61، وينظر كذالك: المدارس النحوية خديجة الحديثي، ص31.

[5] - ينظر: المدارس النحوية، خديجة الحديثي، ص36-37.

[6] - الفكر النحوي عند العرب أصوله ومناهجه، علي مزهر الياسري، ص128.

[7] - الكتاب، سيبويه، ج1، ص12.

[8] - الفكر النحوي عند العرب، أصوله ومناهجه، علي مزهر الياسري، ص128.

[9] - المرجع نفسه، ص129.

ويتبين من خلال هذه الأمثلة الفرق بين حدود النحاة وحدود الفلاسفة ، ويتبن الفرق تحديدا من خلال ما عناه النحاة بالفعل، وما عناه الفلاسفة بالكلمة[1].

ثم انتقل **تروبو** إلى المصطلحات الأربعة والمتمثلة في : **الإعراب، الصرف، التصريف، والحركة**، قام بمقارنتها بما ذكره سيبويه وابن جني والأنباري، مؤكدا أن هذه المصطلحات عربية خالصة، وذكر في هذا الشأن بأن العرب لم يعرفوا اللغة اليونانية، ولم يكن لديهم كتاب في النحو اليوناني مترجم إلى اللغة العربية، وأن النحاة العرب أتيح لهم ذلك فقط بواسطة النحو السرياني الذي يرى أصحابه بأن النحو العربي مختلف عن النحو اليوناني والسرياني اختلافا تاما[2].

وقد استطاع هذا المستشرق المنصف في بحثه البعيد عن كل تعصب للعرب أو الثقافات الأجنبية أن يثبت أن النحو العربي من المستحيل أن يكون قد اقتبس مصطلحات معدودة لا تتجاوز أصابع اليدين عددا من النحو اليوناني، ولم يكتف بهذا، **وإنما كرر في ختام بحثه بأن علم النحو أعرب العلوم الإسلامية ، وأبعدها عن التأثير الأجنبي في طوره الأول**[3].

أما القول بأن الحركات ونقط أبي الأسود مأخوذة من النحو السرياني، فلا صحة له كما نشأت مصطلحات النحو وأبوابه نشأة أولية نشأت الحركات أول أمرها على شكل نقاط وسواء أقيل أصلها سرياني أم لم يقل، فإنها طورت على يد الخليل إلى الحركات المعروفة اليوم، وهي عربية خالصة ولم تقتبس من أحرف الألسنة الأخرى، بل أخذت من الأبجدية العربية، فاستخدموا حروفها الصوتية مختصرة لتدل على الحركات ، حيث إن الخليل يعد الضمة بعض الواو، والفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، وهذا دليل على أنها عربية خالصة[4].

ولابد ههنا أن نذكر رأي المستشرق الفرنسي الشهير"**لويس ماسينيون**L.Massignon، فقد انفرد هذا الرجل الجليل كما يقول الدكتور الحاج صالح بآراء حول طرق النظر عند مفكري الإسلام، حيث يقول في مقالة نشرها في مجلةArabica: «**أنه منذ اختفاء ماركس حظينا بدراسة وثائقية لطرق الترجمة العربية للأرجانون**(كتب أرسطو في المنطق)، **وذلك بواسطة السريانية ، وقد بينت لنا هذه الدراسات أن النحو العربي كان أشد امتناعا من السرياني على تسرب اليونانية إلى أوضاعهما، وكان قبل أن يتخذ العرب التقسيم الثلاثي لأقسام الكلام (اسم- فعل- حرف) قد أبدعوا تقسيما ثنائيا موفقا للأصول الجدلية السامية(أصل- فرع- عمدة- فضلة- مبتدأ- خبر)**[5] ».

ويتعجب **الحاج صالح** من القائلين بتأثر النحاة الأوائل خاصة الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه بالمنطق الأرسطي، وحجتهم في ذلك أن عدم امتلاك هؤلاء الأعلام النضج الفكري اللازم لوضع منهجية علمية راقية، لكن نظرة متأنية لموقف كل الباحثين والمستشرقين أن الفقه مثلا علم عربي أصيل لم يتأثر بما سبقه من المنطق اليوناني ومن قوانين الأمم ، وذلك بعد مقارنتهم بينه وبين أصول القانون الروماني، وغيره مع أن النحو والفقه نشآ وتطورا في وقت واحد تقريبا، وتأثرا ببعضهما، وحصل التفاعل على حد سواء، فكيف يتأثر النحو العربي بالثقافة اليونانية، ولم يحدث ذلك للفقه؟[6].

ثم إن الخليل كما يقول الحاج صالح لم يخترع كل شيء من لاشيء ، وإنما تميز عن غيره في الإتيان بما لم يأت به أحد قبله، فقد اعتمد في تفكيره على مفاهيم أساسية ظهر الكثير منها عند الساميين منذ ازدهار الحضارة البابلية، كما أن حاجة اللغة لضوابط هو من المتطلبات العقائدية المسيسة التي لا يمكن أن يسدها منطق أرسطو، وهذه الحاجة

---

[1] - ينظر: المرجع السابق، ص129.

[2] - ينظر: المدارس النحوية ، خديجة الحديثي، ص37.

[3] - ينظر المرجع السابق، ص37.

[4] - ينظر: المرجع السابق، ص38.

[5] - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الحاد صالح، ج1، ص45-46.

[6] - ينظر: منطق العرب في علوم اللسان، عبد الرحمان الحاج صالح، ص28.

مماثلة لحاجة المسلمين للفقه الذي يضبط الأحكام الشرعية للنوازل التي لم يرد فيها نص، فأي فلسفة تمدهم بالحلول المطلوبة[1].

كما أن طبيعة اللغة المتمثلة في صيغ وبنى متمثلة في ألفاظ تتركب من وحدات، ولكل وحدة تركيب وبنية تشاركها فيها وحدات أخرى لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يسلط عليها في تحليلها أي نوع من المنطق، ومعروف أن البنى اللغوية ذات جوهر رياضي ومنهج تحليلها رياضي أيضا[2].

ويجدر بنا أن نذكر في هذا الصدد الرد القوي الذي رده اللغويون العرب القدامى عند ظهور منطق أرسطو وبدأ ينتشر، على ما كان يدعيه أصحابه لأن يكون معيارا يعصم من الخطأ ، وأن معانيه هي معان كلية ليست خاصة بلغة من اللغات، فهذا **أبو سعيد السيرافي**، وهو من أتباع الخليل وسيبويه يوجه انتقادات شديدة وعميقة للمنطق الأرسطي أثناء المناظرة التي جرت بينه وبين الفيلسوف المنطقي أبي بشر متي بن يونس(ت326ه)، ومن هذه الانتقادات قوله: «**إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها، فمن أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه قاضيا وحكما لهم وعليهم، ما شهد لهم به قبلوه، وبما أنكره رفضوه**[3]»، فأجاب متي على ذلك بالقول بأن المنطق لا يبحث إلا عن «الأغراض المعقولة والمعاني المدركة» عند الجميع، وقال : «**ألا ترى أن أربعة وأربعة ثمانية عند جميع الأمم** »، **فقال له السيرافي: «لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ترجع...إلى هذه المرتبة البينة (أي هذا المستوى من البداهة الذي يستطيع كل إنسان إدراكه، زال الاختلاف وحضر الاتفاق...ولكن مع هذا أيضا إذا كانت الأغراض المعقولة والمعاني المدركة لا يوصل إليها إلا باللغة...أوليس قد لزمت الحاجة إلى معرفة اللغة»**[4].

وبعد أن لاحظ السيرافي أن متي لم يدرك فحوى هذه الحجج، وأنه لم يستطع أن يتصور فكرة التلازم القائم بين اللغة والفكر، أرسل عندئذ هذه العبارة البليغة الجامعة لكل الحجج «**النحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية والمنطق نحو ولكنه مفهوم اللغة** »[5].

ويذهب **ابن فارس** أكثر من ذلك في كتابه "الصاحبي"أن علم العربية كان العرب يعرفونه قبل الإسلام ، فهو توقيف من الله مثل أصل اللغة والخط والعروض ، هذه المعارف كانت قديما ثم أتت عليها الأيام وقلت في أيدي الناس، ولما جاء أبو الأسود الدؤلي جدد العربية كما جدد الخليل علم العروض[6]، حيث يقول في كتابه الصاحبي« **فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية وأن الخليل أول من تكلم في العروض...بل نقول إن هذين العلمين كانا قديما وأتت عليهما الأيام وقلا في أيدي الناس، ثم جددهما هذان العلمان** [7]»، **ويقول كذلك: « وقد زعم ناس أن علوما كانت في القرون الأوائل والزمن المتقادم وأنها درست وحددت منذ زمان قريب وترجمت واصطلحت منقولة من لغة إلى لغة، وليس ما قالوا ببعيد، وإن كانت تلك العلوم بحمد الله وحسن توفيقه مرفوضة عندنا**[8]».

وفي هذا الصدد يقول الدكتور عبد القادر المهيري :«**إن إمعان النظر في ما خلفه لنا النحاة من مؤلفات يكشف- حسب ما نعتقد- عن أسس منهجية مختلفة منها ما اتسم بطابع منطقي لا جدال فيه ، ومنها ما هو مستمد من المعطيات اللغوية لا يراعي إلا ما يلمس في الكلام ، ولا يقيم وزنا إلا لما يتضمنه النص- ويبدو لنا غريبا- إن كان**

---

[1] - ينظر: المرجع السابق، ص29-31.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص31.

[3] - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الحاج صالح، ج1، ص 129-130

[4] - بحوث ودراسات في السانيات العربية، الحاج صالح، ص130

[5] - المرجع نفسه، ص129-130، وينظر كذلك المرجع نفسه، ص61—62، وينظر كذلك: نظرات في التراث اللغوي العربي، عبد القادر المهيري، ص93-94.

[6] - ينظر: في التفكير النحوي عند العرب، زهير غازي زاهد، ص62.

[7] - الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ص10

[8] - المصدر نفسه، ص17.

المنطق هو منبع النحو العربي-أن يتضمن هذا النحو من المواقف ما يدل على الإدراك الصحيح للحقائق اللغوية، وما ينم عن تمييز ما هو لغوي بحت، وما هو من قبيل المنطق ومقولاته، وهذا ما يجعلنا نذهب إلى أن البحث النحوي العربي انطلق من مصدر لغوي تدفعه روح لغوية، وتحدوه رغبة النحاة في وضع نظام شامل تندرج ضمنه كل المعطيات مهما تباينت وتشعبت[1]»، علما أن المهيري يقصد في هذا القول النحاة الأوائل تحديدا، أو ما يصطلح عليه عند الباحثين الرعيل الأول من أمثال الخليل وسيبويه الذين ابتدعوا هذا العلم.

وعلى كل فملاحظة توازن بين منهجين أو قرابة بين طائفتين من المفاهيم لا تثبت أن توازيهما أو القرابة بينهما نتيجة التأثير والتأثر إلا إذا اعتمدت معطيات إضافية من نوع الوثائق التاريخية. فمن البديهي- عندما نتحدث عن تأثر مفكر بنظريات غيره أو عن اقتباسه لأرائه- أن نتساءل هل أن الظروف التاريخية التي عاش فيها مكنته من معرفة تلك النظريات أو هذه الآراء، وأن نبحث عن طريق تأثره بها، أو أخذها عن أصحابها[2].

كل هذا يحملنا على التساؤل على مدى ووجاهة الرأي القائل بتأثر النحو العربي في طور نشأته بالتراث اليوناني، وخاصة المنطق الأرسطي، وفي الحالة الراهنة ليس لدينا أية وثيقة علمية على ذلك ، والآراء التي ذهبت في هذا الاتجاه كما يذكر عبد القادر المهيري هي مجرد تخمينات وافتراضات[3].

وأقصى ما يمكن أن يقال هنا أن ثقافة الرعيل الأول من النحاة في القرنين الأول والثاني ثقافة بصرية تكامل فيها النقل والعقل، وتآلفت فيها الرواية والنظر نتيجة التقاء التراث العربي بأصداء الثقافات الأجنبية، فأسفر ذلك عن منهج لمعالجة مختلف ميادين المعرفة لا يتمثل في اقتباس عناصر وتلفيقها لتكوين علم جديد ، وإنما في القدرة على تعليل شتات المعطيات واكتشاف ما وراء مظاهرها الملموسة من أسس جامعة أو مميزة ليتسنى التبويب ويتأتى استنباط القواعد والأشكال المجردة، ولا يمكن أن نظن بأن النحاة القدامى كانوا يمارسون علمهم على ضوء ما يجدونه في مرجع يوناني أو غيره إن وجد، وإنما بهدي عقولهم التي غذتها الثقافة البصرية[4].

ختاما إن القناعة الراسخة التي يؤيدها العلم والمنطق والتاريخ أن النحو العربي لم يتأثر في بداية نشأته بمنطق أرسطو ولا بأي ثقافة أجنبية أخرى لا في مناهج بحثه ولا في مضمونه التحليلي، فإنه لا يدين بشيء أصلا فيما ابتناه أول أمره للثقافة اليونانية.[5] وهو بالتالي نشأ وترعرع في بيئة عربية خالصة، خاصة وأن النحو العربي لم يترك فيه الرعيل الأول من النحاة (القرون الأربعة الأولى للهجرة كما يقول الحاج صالح) شيئا للمتأخرين كي يضيفوه ، وكان جهد المتأخرين منصبا على الشرح والتفسير والتأويل لكلام القدامى، وإذا ثبت تأثر بعضهم-أي المتأخرين- بعوامل خارجية لم يمس ذلك النحو العربي في جوهره للأسباب التي ذكرناها.

2- القول بتأثر النحو العربي بالثقافات الأجنبية: بدأت هذه النظرية منذ أن أشاع المستشرق الألماني "**ماركس**"Marxآراءه حول هذا الموضوع في المحاضرة التي ألقاها في المعهد المصري مقتفيا أثر" **قويدي**"Guidi مستعرضا الحجج الدالة في نظره على مدى ما نقله النحاة العرب من الفلسفة اليونانية إلى فنهم، ما انفك جل من تحدثوا عن النحو العربي يرددون هذه الآراء، ولا يكاد الشك يخامرهم في سدادها ولا في تصويرها لحقيقة معطيات النحو العربي[6].

---

[1] - نظرات في التراث اللغوي العربي، عبد القادر المهيري، ص98-99.

[2] - المرجع نفسه، ص89.

[3] - ينظر: المرجع السابق، ص91.

[4] - ينظر: المرجع نفسه، ص91-92.

[5] - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمان الحاج صالح، ج1، ص63.

[6] - ينظر: نظرات في التراث اللغوي العربي، عبد القادر المهيري، ص85، وينظر كذلك: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الحاج صالح، ج1، ص44، وكذلك: المدارس النحوية خديجة الحديثي، ص31.

طرق ماركس هذا الموضوع وأفاض فيه كل الإفاضة، وأصبحت آراؤه منطلق من تطرقوا للموضوع بعده[1]، ألف ماركس كتابا عنوانه" **تاريخ صناعة النحو عند السريان**" نشر في القرن التاسع عشر، زعم فيه لأول مرة أن المنطق اليوناني أثر في النحو العربي، لأن الثاني اقتبس من الأول بضعة مفاهيم ومصطلحات[2].

لقد لاحظ **ماركس** أن الفكر اليوناني لم يهتد إلى المقولات النحوية إلا بعد مضي قرون طويلة من العمل الشاق، وأن النحو اليوناني لم يتجل في صيغة واضحة إلا أواخر القرن الأول قبل المسيح، لهذا السبب يرى ماركس أنه من العسير أن يهتدي النحاة العرب إلى ما اهتدوا إليه من النظريات النحوية بدون الرصيد المنطقي والفلسفي الذي مكن اليونانيين من وضع قوانين لغتهم واستنباط نظرياتهم النحوية ، لذا فالنحاة العرب إن لم يطلعوا على النحو اليوناني، فلا بد أنهم ألفوا- حسب ماركس-منطق أرسطو، وفي نحوهم ما يدل على ذلك، فتقسيمهم الكلام إلى اسم وفعل وحرف موافق تمام الموافقة لتقسيم أرسطو ، كما أن بعض المفاهيم النحوية، كمفهوم الحال والظرف تذكر بمفاهيم يونانية، وإن التمييز بين المذكر والمؤنث، وبين الماضي والحال والاستقبال قد اقتبس من منطق أرسطو، كما يرى ماركس أن مصطلحات (رفع، نصب، جر، أعرب، إعراب) ليست سوى ترجمة لمصطلحات يونانية.[3]

وقد ذهب المستشرق "**دي لاسي أوليري**" هذا المذهب، فهو حين ذكر انزعاج أبي الأسود الدؤلي لسماعه قراءة الآية﴿أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾[4] بجر ورسوله، قال: بدأ بوضع القواعد لتلافي هذا الخطأ، فأدخل الشكل على العربية التي لم تكن إلى ذلك الحين تعرف الشكل والنقط، وبدأ يلقي دروسا في النحو ومتن اللغة العربية، ومما يُذكر أنه كان في وضعه لهذه العلوم متأثرا بمنطق أرسطو إلى حد ما، ولكنه لم يتأثر بواحد من النحويين السريان[5]، وفي موضع آخر يقول: «**إن العرب قد استقوا معلوماتهم عن أرسطو من المصادر السريانية، وهذه المعلومات قاصرة على مؤلفاته في المنطق ، وكانت هذه المؤلفات قد ترجمت إلى السريانية ، ووضعت عليها شروح كثيرة كانت في متناول اليد**[6]»، ولكنه وقع في تناقض حين تحدث عن الترجمة والمترجمات ، وزمان ترجمتها ، أكد أن كتب أرسطو ترجمت في بداية العصر العباسي ، وفي عصر الرشيد على وجه الخصوص ، وقبل ذلك كانت الترجمة لكتب الرياضيات والطب والفلك[7].

وهذا دي بور **De Boer** مؤرخ الفلسفة الإسلامية كثيرا ما ينسب في تحريراته أصالة المنهج النحوي الذي سلكه العرب في مباحثهم إلى أرسطو، إذ يقول في تاريخه: «**وقد أثر منطق أرسطو في علوم اللسان ....السريان والفرس كانوا قبل العصر الإسلامي قد درسوا كتاب "العبارة" لأرسطو مع إضافات إلى الرواقيين، وإلى المذهب الإفلاطوني ، وابن المقفع الذي كان صديقا حميما للخليل بن أحمد الفراهيدي يسر للعرب الاطلاع على كل ما كان في اللغات الفهلوية من أبحاث لغوية ومنطقية** [8]».

ولم يقتصر البحث في تأثر النحو العربي بالنحو اليوناني على المستشرقين الغربيين، وإنما نجد المستشرق الهندي"**Verstecgh**" قد نشر كتابا عنوانه "**العناصر اليونانية في الفكر اللساني العربي**" دافع فيه عن نظرية التأثير اليوناني في النحو العربي، وذهب إلى أن النحاة العرب القدامى قد اقتبسوا بضعة من المفاهيم والمصطلحات لا من

---

[1] - ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ، الحاج صالح، ج1، ص44.

[2] - ينظر: المدارس النحوية خديجة الحديثي، ص31.

[3] - ينظر: انظراث في التراث اللغوي العربي، عبد القادر المهيري، ص86-87.

[4] - التوبة، الآية(3).

[5] - في التفكير النحوي عند العرب، زهير غازي زاهد، ص68.

[6] - المرجع نفسه، ص 68.

[7] - ينظر: المرجع نفسه، ص68-69.

[8] - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الحاج صالح، ج1، ص44.

المنطق اليوناني كما زعم ماركس بل من النحو اليوناني ، وذلك بواسطة اتصالهم المباشر باستعمال النحو اليوناني الحسي كما يقول في مركز الثقافة اليونانية الموجودة في الشرق الأدنى بعد الفتح الإسلامي[1].

أما من اللغويين العرب الذين تحدثوا عن تأثر النحو العربي بمنطق أرسطو أو بالثقافة اليونانية **ابن النديم** الذي ذكر في الفهرست مجموعة من المؤلفات والكتب اليونانية التي ترجمت للعربية، وهي:

(1-قاطيغوارس"المقولات" نقلة حنين بن إسحاق.2- باري أرمانياس"العبارة" نقله حنين إلى السرياني، وإسحاق إلى العربي.3- أنا بوطيقا الأولى "تحليل القياس" نقله ثيادروس إلى العربي، ويقال عرضه على حنين فأصلحه.4- أبو طيقا"البرهان" حنين وإسحاق قاما بترجمته إلى السرياني، ونقله متي عن ترجمتهم إلى العربي.5- طوبيقا"الجدل" نقله إسحاق إلى السرياني ويحي بن عدي عن إسحاق إلى العربي.6- سوفسطيقا"المغالطون"أو "الحكمةالمموهة" نقله ابن ناعمة وأبو بشر متي إلى السرياني ونقله يحي بن عدي إلى العربي.7- ربو طيقا"الخطابة" نقله إسحاق إلى العربي.8- أبو طيقا "الشعر" نقله أبو بشر متي من اليوناني إلى السرياني ويحي بن عدي إلى العربي[2]).

غير أننا إذا نظرنا إلى زمن هؤلاء المترجمين وجدنا حنين بن إسحاق أقربهم إلى عصر نشأة النحو ، فقد ولد سنة أربع وتسعين ومائة هجرية، أي أنه ولد بعد وفاة تلاميذ الخليل الذين كانوا أئمة هذا العلم[3].

كما ذهب **إبراهيم مدكور** هذا الاتجاه في أطروحته" **أثر الأرجانون في العالم العربي**"، واكتفى بالإشارة إلى التأثير الذي يظنه قد قع في وضع النحو ، ونشر في عام1948م بحثا بعنوان" **منطلق أرسطو والنحو العربي**" في مجمع اللغة العربية بالقاهرة حاول أن يبين فيه كيف حصل هذا التأثير وكانت حجته غير مقنعة[4].

وقد ألف الدكتور **مهدي المخزومي** كتابا عن مدرسة الكوفة سالكا فيه هذا السبيل، بانيا جميع ما يثبته على القول بتأثير المنطق على النحو، وبالخصوص على مدرسة البصرة[5]، حيث يقول:« **قد مهدت هذه الفلسفات للانتفاع بالمنطق اليوناني(وفي البصرة ظهرت الترجمة الأولى لمنطق أرسطو، ترجمة عن اليونانية أو الفارسية عبد الله بن المقفع أو ابنه محمد**[6]»، ويقول في موضع آخر:« ...**والواقع أن تأثير علم الكلام أو الثقافة البصرية اليونانية إنما ظهر في زمن مبكر منذ أوائل القرن الثاني، وهي الفترة التي ظهرت الفلسفة الكلامية ظهورا واضحا، ولم يكن الخليل بن أحمد أول من ظهر في نحوه تأثير هذه الثقافة الجديدة بميله إلى القياس والتعليل، فقد سبقه إلى ذلك عبد الله بن أبي إسحاق** [7]».

ويذهب الدكتور **إبراهيم أنيس** في هذا الاتجاه عندما حاول إثبات أن الحركات الإعرابية في العربية ليست دالة على معان في الكلام، وإنما هي وسائل يحتاج إليها لوصل الكلام والتخلص من الساكن، وأن النحاة قد ابتكروا ظواهر الإعراب وقاسوا بعض الأصول رغبة منهم في الوصول إلى قواعد مطردة ، وكان ذلك بتأثير ما حولهم من لغات كاليونانية التي فيها يفرق بين حالات الأسماء التي تسمىCases، ويرمز لها في نهاية الأسماء برموز معينة[8].

أما ما يتعلق بالأثر الفارسي في النحو العربي، فيقول "**فون كريمر**"في هذا الشأن:« **إن تسرب الفساد للغة العربية كان السبب في ضرورة وضع قواعد لإنقاذ اللغة العربية رواية لا يعول عليها إطلاقا ولا أساس لها، فالنحو العربي من وضع الأجانب من الآراميين(شعب سام عاش في الشام) والفرس، وقد أوجدته الحاجة التي أحس**

---

[1] - المدارس النحوية خديجة الحديثي، ص32.

[2] - ينظر: الفكر النحوي عند العرب أصوله ومناهجه، علي مزهر الياسري، ص133-134.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص 134.

[4] - ينظر" بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الحاج صالح، ج1، ص46.

[5] - ينظر: المرجع نفسه، ص47.

[6] - مدرسة الكوفة، مهدي المخزومي، ص55.

[7] - المصدر نفسه ، ص60.

[8] - ينظر: في التفكير النحوي عند العرب، زهي غازي زاهد، ص70-71.، وللتوسع في الموضوع ينظر: أصول النحو في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث، محمد عيد، ص18-24.

بها هؤلاء الأجانب لتعلم الكتابة العربية وقراءة اللغة العربية على وجه صحيح ، وعلى الأخص غير العرب الذين أرادوا أن يقفوا حياتهم للدراسات العلمية[1] »، وهو رأي بالغ السذاجة، فكيف يقوم الأجنبي بوضع قواعد وأسس للغة غير لغته إذا أراد أن يتعلمها، هل يمكن للعربي أن يضع قواعد الفرنسية أو الأنجليزية ؟!، وهذا الرأي يدل على مغالطة سيئة القصد.[2]

وإلى مثل هذا الرأي يذهب **دنيس روس**، فيقول: « **وإلى أن قام الخليفة عمر رضي الله عنه بمراجعاته الرسمية الدقيقة للقرآن لم يكن هناك أي كتاب في النحو كما لم يكن هناك أي قاموس عربي، وكان الفرس أول من ميزوا أنفسهم باستنباط بعض القواعد النحوية من القرآن**[3]»، وهذا الرأي كذلك مردود عليه، فلا يمكن أن يبتدع هؤلاء علما بمجرد حبهم التمييز لأنفسهم، كما أن الإسلام لا يزال جديد العهد، ولا يمكن أن يضعوا علما كالنحو في هذا الوقت المبكر، وكيف لهم أن يتقنوا هذه اللغة في هذه الفترة الوجيزة؟![4]

أما بالنسبة للدارسين العرب، فيعد **ابن خلدون** أقدمهم[5]، حيث يرى بأن العرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين في أول أمر ملتهم، وكانوا أبعد الناس عن هذه الصنائع، وأن العجم هم الذين قاموا بهذه الأمور ، وقد كان العرب فيها تابعين للفرس والعجم، يقول **ابن خلدون** في هذا الشأن: « **من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، وليس في العرب حَمَلَةُ علم لا في العلوم الشرعية، ولا في العلوم العقلية، ولا في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبته، فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته، مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي**[6] »، **ويقول كذلك: « وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر، وأن العرب أبعد الناس عنها ، فصارت العلوم لذلك حضرية، وبعد عنها العرب وعن سوقها ، والحضر لذلك العهد هم العجم أو من هم في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف، لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس، وكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما ، وكلهم عجم في أنسابهم**[7]».

أما بالنسبة للباحثين العرب المحدثين الذين وقفوا في هذا الاتجاه نجد الدكتور **شوقي ضيف** الذي ذهب إلى أن العرب تأثرت مناهجهم في العلوم الدينية واللغوية بمن كان في العراق أهدى هو وما وراءه من بلاد الفرس إلى العرب، كل ما عرف الفرس من حضارة دفعت العرب دفعا إلى أن يؤسسوا على مناهج صحيحة دراساتهم المختلفة[8].

وكذلك فعل **أحمد أمين** الذي يرى بأن الفرس الداخلين في الإسلام لما أعطوا حريتهم في العصر العباسي شاركوا في التأليف ونهضوا بالثقافة العربية وأنشأوا اللغة العربية ودونوا علومها كما دونت علومهم[9].

وهذان الرأيان الأخيران **لشوقي ضيف وأحمد أمين** في نظرنا لا يفسدان للود قضية ، فالأول يقول إن الفرس دفعوا العرب دفعا إلى أن يؤسسوا على مناهج صحيحة دراساتهم المختلفة ، وهو أمر ممكن بأن يفتحوا لهم الآفاق في تأسيس هذا العلم وتطوره، أما قول الثاني بأنهم-أي الفرس- شاركوا في التأليف للعربية ، ودونوا علومها كما دونت علومهم، فهو أمر لا شك ولا نقاش فيه، بل إن أكثر من أبدع في هذا العلم كان فارسيا، ونقصد بذلك إمام النحو سيبويه باعتراف كل الباحثين.

---

[1] - الفكر النحوي عند العرب، أصوله ومناهجه، علي مزهر الياسري، ص107.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص107.

[3] - المرجع نفسه، ص107.

[4] - ينظر: المرجع نفسه، ص107-108.

[5] - ينظر: المدارس النحوية، خديجة الحديثي ، ص35.

[6] - المقدمة، العلامة عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، تقديم وتحقيق، إيهاب محمد إبراهيم ، مكتبة ابن سينا للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، دط، 2009م،ص614.

[7] - المصدر نفسه، ص615.

[8] - ينظر: المدارس النحوية، خديجة الحديثة، ص34.

[9] - ينظر: المرجع نفسه، ص34-35.، ولمزيد من الاطلاع ينظر:أصول النحو في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث، محمد عيد، ص14-16.

وهناك رأي ثالث يذهب إلى القول بتأثر النحو العربي بالسريانية ، وخلاصة موقف هؤلاء أنهم قالوا ثلاثة أقوال:

أ-**أن العربية قامت على نمط السريانية**، فهما شقيقتان فكلتا اللغتين سامية[1]، ومن القائلين بهذا الرأي **جرجي زيدان** الذي يذهب إلى أن العرب لما اضطروا إلى تدوين العلوم، وكانوا قد خالطوا السريان واطلعوا على آدابهم ومؤلفاتهم التي كان النحو في جملتها ونسجوا على منوالهم[2]، ورجح **جرجي زيدان** أن يكون أبو الأسود الدؤلي قد اقتبس نقط الإعراب من الكلدان(قوم سكنوا جنوب العراق قديما) والسريان(الآراميون بعد تركهم للوثنية واعتناقهم للمسيحية) جيرانه في العراق ، وكان عندهم نقط أو تعيين الكلمة أاسم هي أم فعل أم حرف، وكان عندهم أيضا نقط كانت ترسم في حشو الحرف ثم تحولت إلى نقط مزدوجة تنوب الحركات الثلاث ، وما زالت عندهم إلى اليوم ، وكذلك فعل **حسن عون وأنيس فريحة** ، وحجتهما في ذلك أن العراق كانت مغزوة باللغة والمعارف السريانية وآهلة بعلمائها ، وحينها كان أبو الأسود الدؤلي يعنى بتنقيط القرآن ، وأنه عرف كثيرا عن صرف لغتهم ونحوها[3].

ب- **أن العربية اقتبست نحوها من السريانية من ناحيتين**، الأول التقسيم الكلامي في النحو، والثانية النقاط العربية، وهذا الرأي كذلك يمثله **جرجي زيدان** الذي ذهب إلى أن أقسام الكلام في العربية هي أقسام الكلام في السريانية نفسها[4].

ج- **أن النحاة العرب قد اقتبسوا عن السريان نقاطهم فقط**، وذهب إلى هذا الرأي مصطفى صادق الرافعي، والدكتور **حسن عون**، الأول يرى بأن دلالات الحركات لم تكن عند العرب، بل اخترع أصولها السريان، والثاني ذهب إلى أن النحو العربي أخذ الحركات التي كانت في السريانية[5].

والحقيقة إن القول بأن الحركات أو نقط أبي الأسود مأخوذة من النحو السرياني أمر مردود عليه، فكما نشأت مصطلحات النحو وأبوابه نشأت الحركات في أو أمرها على شكل نقاط ثم طورها الخليل إلى الحركات المعروفة ، وهي بهذه الصفة عربية خالصة، وقد كان الخليل يرى بأن الضمة بعض الواو والكسرة بعض الياء والفتحة بعض الألف كما ذكرنا[6].

أما الرأي الرابع فيذهب إلى القول بتأثر النحو العربي بالثقافة الهندية[7]، وهو رأي ضعيف مقارنة ببقية الآراء التي ذكرناها، لأن كل الروايات لا تتعلق بالنحو مباشرة، ويورد أصحاب هذا الرأي حكاية هندية تقول:«**أن أحد ملوكهم كان يوما في حوض سباحة مع نسائه فقال لإحداهن: " ماود كندهي"، أي لا ترشي علي الماء، فظنت أنه يقول " مود كندهي"، أي "احملي حلوى"، فذهبت فأقبلت بها، فأنكر الملك، فخاشنته في الخطاب فاستوحش الملك لذلك وامتنع عن الطعام، واحتجب إلى أن جاءه أحد العلماء وسلى عنه بأن وعده تعليم النحو والصرف، وذهب إلى " مهاديو" مصليا مسبحا وصائما متضرعا، إلى أن ظهر له وأعطاه قوانين يسيرة، فرجع العالم إلى الملك، وعلمه إياها، وذلك مبدأ هذا العلم** [8]»، ثم علق أحمد أمين قائلا : «**وأنا أخشى أن تكون حكاية أبي الأسود قد وضعت في العربية على نمط الحكاية الهندية، وهناك شبه بين ذهاب العالم الهندي إلى "مهاديو" مصليا مسبحا، وبين ذهاب أبي الأسود إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يسأله المعونة في وضع النحو** [9] » .

---

[1] - ينظر: في التفكير النحوي عند العرب، زهير غازي زاهد، ص73.

[2] - ينظر: المدارس النحوية، خديجة الحديثي، ص33.

[3] - ينظر: في التفكير النحوي عند العرب، زهير غازي زاهد، ص75-78، وينظر كذلك: المدارس النحوية خديجة الحديثي، ص33.

[4] - ينظر: المدارس النحوية، خديجة الحديثي، ص34، وينظر كذلك: في التفكير النحوي عند العرب، زهير غازي زاهد، ص75.

[5] - ينظر: المرجع نفسه، ص34.

[6] - ينظر: المرجع نفسه، ص38.

[7] - ينظر: أصول النحو في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث، محمد عيد، ص16-18.

[8] - ينظر: في التفكير النحوي العربي، زهير غازي زاهد، ص64-65.

[9] - ينظر: المرجع نفسه، ص65، وينظر كذلك: ظاهرة قياس الحمل في اللغة العربية بين علماء اللغة القدماء والمحدثين، عبد الفتاح علي البجة، ص560-561.

والقول الفصل في هذا الرأي أنه أضعف من أن يناقش أو يرد عليه، حيث إن ظهور أي علم لا يتأثر بمثل هذه الطرهات، بل يبدأ بإحساس المجتمع بالحاجة إليه لأسباب متشابكة توجب ظهوره فيبدأ بسيطا ثم يتطور وينضج كما سبق إيضاحه، يقول **بروكلمان** في هذا المجال: « **والرأي الذي يتكرر دوما عند علماء العرب، وهو أن علم النحو انبثق من العقلية العربية المحضة، وبغض النظر عن الروابط بين اصطلاحات هذا العلم ومنطق أرسطو ، وفي ما عدا ذلك لا يمكن إثبات وجوه أخرى من التأثير الأجنبي لا من القواعد اللاتينية ولا من القواعد الهندية**[1] ».

ولا يخفى أن الأحكام العامة التي يطلقها أصحاب الرأي القائل بتأثر النحو العربي بالآثار الأجنبية المختلفة والتي ذكرناها لا تقنع إلا من يكتفي بالرواية حجة ودليلا في ميدان المعرفة[2]، ولذا لا يمكن الوقوف عندها طويلا.

3- الوقوف موقفا وسطا من هذه المسألة(رأي معقول):

من الباحثين الذين وقفوا من هذه المسألة موقفا وسطا بين الفريقين المستشرق"**ليتمان**"الذي قال: «...**اختلف الأورباويون في أصل هذا العلم ، فمنهم من قال إنه نقل من اليونان إلى بلاد العرب، وهذا هو الرأي الذي روي في كتب العرب منذ زمن، ونحن نذهب في هذه المسألة مذهبا وسطا...وهو أنه أبدع العرب علم النحو في الابتداء، وأنه لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والذين تقدموه، ولكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق، وتعلموا أيضا شيئا من النحو، وبرهان هذا أن تقسيم الكلمة مختلف ، قال سيبويه: فالكلمة اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، وهذا تقسيم أصلي، أما الفلسفة فينقسم فيها الكلام إلى اسم وكلمة ورباط، وهذه الكلمات ترجمت من اليوناني إلى السرياني، ومن السرياني إلى العربي، فسميت هكذا في كتب الفلسفة لا في كتب النحو، أما كلمات اسم وفعل وحرف، فإنها اصطلاحات عربية ما ترجمت وما نقلت**[3] ».

ونذكر في هذا الصدد قول" **دي بور**" الذي يقول فيه: « **وبالرغم من هذا كله احتفظ علم النحو العربي بخصائصه، وهو على أي حال أثر رائع من آثار العقل العربي بما له من دقة في الملاحظة ، ومن نشاط في جمع ما تفرق ، ويحق للعرب أن يفخروا به** [4] »

أما إذا تحدثنا عن العلماء العرب في هذا الصدد، فنذكر رأي الدكتور **عبد العال سالم** الذي يقول: «**وفي رأيي الخاص أن قضية نشأة النحو مرتبطة بالمعارف السابقة للعرب في الجاهلية ، وفي العصر الإسلامي، وخاصة في مجالي القراءة والكتابة**» ، وكان يرى أن إنكار نسبة النحو إلى العرب في منشئه فكرة ضالة[5].

وكذلك نذكر رأي الدكتور **عبد القادر المهيري** في كتابه "نظرات في التراث اللغوي العربي"، حيث أكد فيه أن النحو العربي كان نقيا خالصا أصيلا في نشأته خاصة، إذ يقول:«**وإن وجد المنطق إلى النحو سبيلا بمقولاته ومبادئه وفرضياته، فليس ذلك في عهد نشأته، وإنما ابتداء من القرن الثالث، حين أصبح النحو ميدان مناقشات لا حد لها، ومجادلات هدفها الإقناع على أساس متطلبات العقل لا على أساس مقتضيات اللغة ، وكل من مارس المؤلفات المستوعبة لمختلف النظريات واطلع على كتب الأصول، وتمعن في طرق الاحتجاج سرعان ما يقتنع بأنها لا تخلو من طابع منطقي**[6] ».

كما نذكر رأي الدكتور **عبد الرحمان الحاج صالح** في كتاباته عن التراث النحوي يؤكد على نقاوة التراث وأصالته في زمن النشأة والتطور، والتي حصرها في القرون الأربعة الأولى للهجرة دون نفي لفساد النحو بعد هذه الفترة نظرا للعوامل التي ذكرناها، دون إطلاق الحكم جزافا بل يمكن وجود استثناءات في كل عصر،وقد ذكر الإستراباذي

---

[1] - ينظر: في التفكير النحوي عند العرب، زهير غازي زاهد، ص 65.

[2] - ينظر: نظرات في التراث اللغوي العربي، عبد القادر المهيري، ص88.

[3] - المدارس النحوية ، خديجة الحديثي، ص32.

[4] - المرجع نفسه، ص36.

[5] - المدارس النحوية، خديجة الحديثي، ص36.

[6] - نظرات في التراث اللغوي العربي، عبد القادر المهيري، ص92.

والسهيلي إلى جانب الخليل وسيبويه، يقول الحاج صالح: « **هناك تراث وتراث** [1]، **فالتراث الأول أصيل ، وهو ذلك الذي تركة أولئك العلماء المبدعون الذين عاشوا في زمن الفصاحة اللغوية الأولى الذين التجأوا إلى السماع اللغوي المباشر ودونوا الكلام العربي ، وربما يقول قائل أنهم حصروا اللغة في هذا المعيار الذي سموه الفصحى، وتركوا غيره، وطبعا هناك أسباب دينية واجتماعية ، وهي الاعتناء بلغة القرآن الكريم ، أما أن يقال بأنهم وقفوا من اللغة موقفا غير علمي فلا، لأن العلم لا يتحدد بالغاية التي يرمي إليها أصحابه، انتفاعية كانت، أم غير انتفاعية، بل بمقياسين اثنين هما: المشاهدة والاستقراء والاختيار من جهة والصياغة العلمية من جهة أخرى** [2]».

وهذا التحديد لا يتعلق بالزمن أساسا ، وإنما يتعلق بالصفات التي يجب أن تتوفر في الباحث اللغوي ، سواء تعلق الأمر بالنقل أو تحرر التفكير وتجرده.

أما النوع الثاني من التراث ، فتراث غير أصيل، تأثر بعوامل خارجية، تمثلت في المنطق والفلسفة اليونانية، وعصر الضعف، وما تبعه من تدهور في كل المجالات: « **وها هنا يتفق هؤلاء المقلدون للغربيين مع المقلدين للشيوخ المتأخرين من النحاة العرب ممن ينتمي إلى عهد الانحطاط الفكري، فكلاهما يحمل كلام المبدعين من علمائنا على غير ما يحتمله، إذ كلاهما يتناول الألفاظ التي ترد في نصوصهم كما يفهمها ويستعملها النحاة المتأخرون، ومعنى ذلك أنهم يسقطون معاني هؤلاء على نظريات أولئك الفطاحل، أي تصور ابن مالك ومن جاء بعده، على تصور الخليل، وسيبويه، وأبي علي الفارسي، وابن جني، وغيرهم...** [3]».

وفي تحديده للنحو العربي الأصيل يقول الحاج صالح: «أما **النحو الذي نقصده فهو نحو الخليل وأصحابه، أو ما وصل إليه النحو في زمانه وزمان سيبويه، وفي عهد أتباعهما الكبار، والسبب في ذلك أنهم المبدعون للنحو العربي ونظرياته الأصلية العميقة، ولم يبلغ الذين تلوهم (بعد القرن الرابع الهجري) من الإبداع والعمل ما بلغوه، إلا بعض الأفذاذ القلائل، مثل السهيلي، والرضي الإستراباذي، وهؤلاء وحدهم يمثلون في اعتقادنا أصالة النحو العربي وروعته...** [4]».

وتحدث الدكتور **علي مزهر الياسري** في كتابه "الفكر النحوي عند العرب، أصوله ومناهجه" عن مسألة المجهودات اللغوية التي قام بها الأعاجم، حيث يقول: « **إضافة إلى ما تقدم نرى هذه الذريعة-أي اشتغال الأعاجم باللغة والنحو-واهية فيما ذهب إليه الذين تشبثوا بأهدافها، لأننا لا نستطيع أن نتصور هؤلاء الموالي كانوا علماء، وأنهم لقنوا أبناءهم علوم قومهم السابقين، إن المقياس الصحيح لنسبة الثقافة هو لغة المثقف والروافد التي كونت حصيلته الثقافية، ومنهجه في الدرس، وليس النسبة على أساس انتمائه إلى أمة معينة، وبهذا المقياس نرى أن العلماء الذين اشتغلوا بدراسة اللغة، وهم من غير العرب نسبا، إنما هم عرب في الثقافة، ولا شيء يميزهم عن سواهم من الدارسين العرب، ولا سيما أننا لا نؤمن أن هناك فروقا بين البشر من حيث مراتب الأجناس، كما تفعل بعض النظريات العنصرية** [5]».

إن هذه المواقف الأخيرة اتخذت موقفا وسطا هو أقرب للواقع والمنطق والعلم دون تعصب، وفي نظرنا نذهب إلى القول الذي ينفي تأثر النحو العربي بالمؤثرات الخارجية في بداية أمره، ويكفي في نظري أن يكون الهدف النبيل الذي أنشئ من أجله النحو، وهو صون لغة القرآن(اللغة العربية) أن يكون عاصما لهؤلاء الأئمة من أن يتأثروا بعوامل ليست ذات صلة باللغة العربية، فقداسة القرآن الكريم واللغة العربية، وحرص هؤلاء على صونها وحمايتها، كلها

---

[1] - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الحاج صالح، ص 168.

[2] - ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الحاج صالح، ج1، ص168-169، وينظر كذلك: المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، التواتي بن التواتي، ص84-85، وللتوسع في الموضوع، ينظر:السماع اللغوي عند العرب ومفهوم الفصاحة ،د: عبد الرحمان الحاج صالح، موفم للنشر، ط1، 2007م، ص7.

[3] - حوليات جامعة الجزائر، د: عبد الرحمان الحاج صالح، ص36.(بتصرف).

[4] - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الحاد صالح، ج2، ص23-24.

[5] - الفكر النحوي عند العرب أصوله ومناهجه، علي مزهر الياسري، ص115.

عوامل محصنة للنحو وللغة بأن يشوبها شائبة، كما أنّ أغلب من تحدثوا عن المؤثرات الخارجية أكدوا أصالة النحو في بدايته، وهذا أمر كاف لدحض هذه الادعاءات، لأن من تأثروا بالعوامل الخارجية بعد ذلك كان جهدهم يتمثل في التوضيح والشرح لهذا العلم لا بناء صرحه.

وهذا ما يؤكده **الحاج صالح** في قوله: « **كل ذلك يبين أن المنطق الأرسطوطاليسي لم يجد مرتعا مريئا إلا بعد نشوء النحو واكتماله، أي بعد اغلاق باب الاجتهاد...ونختم مقتنعين أن النحو العربي لم يتأثر في ابتداء نشأته بمنطق أرسطو لا في مناهج بحثه، ولا في مضمونه التحليلي، فإنه لا يدين بشيئ أصلا فيما ابتناه أول أمره للثقافة اليونانية** [1] ».

ثانيا: تأثر الباحثين العرب المحدثين باللسانيات الغربية:

من الطبيعي عدم الحديث عن تأثر التراث اللغوي العربي باللسانيات الغربية الحديثة لأنه أسبق منها تاريخيا، فإن كان هناك تأثير وتأثر فهو عكسي، أي تأثير هذا التراث في اللسانيات، وقد تطرقنا إلى هذه النقطة في المحاضرة السابقة لكن تأثر الباحثين اللغويين العرب المحدثين باللسانيات هو أمر حاصل بالفعل، وهو أمر طبيعي نظرا للتقدّم الذي يشهده العالم بأسره الذي أصبح كالقرية الواحدة، إضافة إلى الجمود الذي كان يعيشه البحث اللغوي العربي إبان فترة ظهور اللسانيات واحتكاك بعض الباحثين العرب بأفكارها وأعلامها، خاصة من خلال البعثات الجامعية.

1- دخول اللسانيات إلى الثقافة العربية في النصف الأول من القرن العشرين:

ربطت **الباحثة فاطمة الهاشمي بكوش** فكرة ظهور اللسانيات وتأثر الباحثين العرب المحدثين بها بنقل مخرجات البحث اللّساني الغربي عن طريق الموفدين المصريين، خاصّة الّذين درسوا المناهج اللّسانية الحديثة في الجامعات الأوروبية، وبدأوا بنشر بحوثهم اللّسانية منذ الأربعينيات من القرن العشرين[2]، ثمّ توالت البعثات بعد ذلك، ولقد لخّص **مصطفى غلفان** مراحل دخول اللّسانيات إلى الثّقافة العربية ومنها المغاربية في سبع مراحل هي[3]:

أ-البعثات إلى الجامعات الغربيّة الّتي ازدهت في الرّبع الثّاني من القرن العشرين، بداية بالجامعات المصرية وانتهاءً بالمغاربيّة.

ب-إنجاز طلّاب عرب لبحوثهم الجامعيّة في الجامعات الغربيّة تناولت وصف الواقع اللّغوي من وجهة نظر مختلف المدارس اللّسانية الغربيّة، وهذا النّوع لم يتوقّف ومازال موجودًا حتّى اليوم.

ج-إدراج اللّسانيات في المقرّرات الجامعيّة في مصر وسوريا والعراق تحت اسم علم اللّغة وفقه اللّغة.

د-ظهور كتابات تعرّف باللّسانيات أو بهذا العلم الحديث، على غرار علي عبد الواحد وافي في كتابه"علم اللّغة" سنة1941م، وتمام حسّان من خلال كتابيه"مناهج البحث في اللّغة"سنة1955م، و"اللّغة بين المعياريّة والوصفيّة"سنة1957م، ومحمود السّعران من خلال كتابه"علم اللّغة مقدّمة للقارئ العربي"سنة1962م، ثمّ توالت الكتابات بعد ذلك دون نسيان جهود رفاعة الطهطاوي وجرجي زيدان والكرملي التي سبقت هؤلاء...

هـ- حركة التّرجمة، حيث تُرجمت أعمال اللّسانيين الغربيّين، كترجمة مندور لمقال مايي"علم اللّغة"سنة1946م، وترجمة كتاب "اللّغة" لفندريس سنة1950م، كما ترجم كتاب سوسير "محاضرات في علم اللغة العام"من قبل كثير من الباحثين، وأنشئت مراكز علميّة خاصّة بالبحث اللّساني كما هو الحال في تونس سنة1964م، والجزائر سنة1971م.

و- تنظيم ندوات ولقاءات علميّة محليّة وجهويّة ودوليّة في مجال اللّسانيات، وكان للّسانيين التّونسيين والمغاربة دور بارز في ذلك.

---

[1] - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الحاج صالح، ج1، ص63.

[2] - نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، فاطمة الهاشمي بكوش، اتربك للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2004م،، ص12.

[3] - ينظر: اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة حفريات النشأة والتكوين، مصطفى غلفان، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2006م، ص146-147.

ز- إنشاء تخصّصات قائمة الذّات في اللّسانيات العامّة بكليات الآداب بالجامعات العربيّة، لاسيما في المغرب وتونس اللذين يتميّزان عن غيرهما من دول العالم العربي في هذا المجال.

ولابد أن نشير بداية إلى مسألة هامّة وهي:(تأخّر دخول اللسانيات لدول المغرب العربي)، وهذه المسألة تعود بالدّرجة الأولى إلى الاحتلال، حيث كانت دول المغرب محتلّة فرنسيّة وتأخرّها في نيل استقلالها وخاصة الجزائر الّتي نالته سنة1962م، وقد حصلت تونس والمغرب على استقلالهما سنة 1956م، وكان ذلك خطّة من المحتل الفرنسي الغاشم من أجل التّفرّغ للجزائر، لقد كان احتلال دول المغرب العربي وخاصّة الجزائر احتلالاً استيطانيًّا جاثمًا على الأرض أحرق الأخضر واليابس، وحاول تحطيم كلّ مقوّمات وحدة الأمّة وشخصيّتها، بعكس دول المشرق الّتي كانت في أسوء الحالات تحت الانتداب، الّذي كان أهون ممّا حدث في المغرب العربي.

لقد كانت دول المشرق العربي وخاصّة مصر مركزًا ثقافيًّا عربيًّا ليس في علوم اللّغة فحسب، بل في كلّ الميادين، لذا فاللّسانيات كما ذكرنا دخلت العالم العربي من بوّابته المشرقيّة بفعل الموفدين والمستشرقين في النّصف الأوّل من القرن العشرين، فدخل المنهج التّاريخي والمقارن ثم الوصفي البنيوي الّذي ازدهر بشكل لافت على يد نخبة من الباحثين **كالطّنطاوي والكرملي وإبراهيم أنيس وتمام حسّان ومحمود السّعران**، أمّا المغاربة فكان ظهورهم الحقيقي في هذا المجال متزامنًا تقريبًا مع فترة ازدهار المدرسة التّوليديّة التّحويليّة، الّتي ظهرت سنة 1957م على يد زعيمها نعوم تشومسكي.

إنّ تأخّر اللّسانيين المغاربة في الاحتكاك باللّسانيات والاطّلاع عليها كان عاملاً إيجابيًّا جدًّا، حيث مكّن الباحثين المغاربة من اجتناب الكثير من الإشكالات والسّلبيات الّتي وقع فيها أشقاؤهم المشارقة، فاستفادوا من تجربتهم، وتجنّبوا نقائصها وسقطاتها، وقد **عبّر عز الدّين المجدوب** عن هذه الفكرة بالقول:«...**وقد حاولنا أن نتجنّب النّقص في قراءات اللّغويين العرب السّابقين لنا...فقد اتّضح لنا بفضل تأخّرنا التّاريخي عنهم الّذي ييسّر عملنا**»[1]، كما أنّ هذا التأخّر جنّب اللّسانيين المغاربة الانشغال بالوصفيّة، الّتي كما سبق التّذكير كانت أحد أسباب الفشل اللّساني العربي في بداياته، وسيأتي التفصيل في هذه المسائل.

2-أعلام اللسانيات الغربيين الذين كان لهم تأثير واضح على الدرس اللساني العربي الحديث:

يمكن أن نذكر في ذلك أهم الأسماء مثل:

1- فرديناند دي سوسير ferdinand de Saussure(1857-1913م):

اشتغل سوسير باللسانيات التاريخية وقدّم عملين رائدين في هذا الاتجاه هما:

-"دراسة حول النظام البدائي للصوائت في اللغات الهندو أوروبية"سنة1978م.

-"حالة الجر المطلق في اللغة السنسكريتية" سنة1881م.

وقد قدّم هذا البحث لنيل درجة الدكتوراه في جامعة"ليبسيغ" وترجع أهمية هذه الدراسات إلى أمرين أساسيين هما:

- اعتماد المنهج البنيوي في البحث.
- اتباع مناهج البحث النظري البحت.

ثم بعد ذلك بدأ اهتمامه باللسانيات الآنية الوصفية التي اقترنت به واشتهر بها[2]، حيث أظهرت محاضراته التي نشرها تلاميذه سنة1916م، محاضرات في اللسانيات العامةCours de Linguistique général أهمية الفصل بين اللغة من حيث هي نظام مستقر وبين اللغة من حيث هي تغير لغوي وأن كل دراسة لها منهجها الخاص.

---

[1] - المنوال النحوي العربي قراءة لسانية جديدة، عز الدين المجدوب، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع سوسة، ط1، 1998م، ص5-6.

[2] - ينظر: اللسانيات النشأة والتطور، أحمد مومن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط4، 2008م، ص92.

لقد أسس دي سوسير منهجا شكليا تركيبيا للغة يعتمد على آراء وأفكار دوركايم في كون اللغة ظاهرة اجتماعية يقوم هذا المنهج على جملة من الأسس والمبادئ[1] أهمها استخدامه لظاهرة ملفتة للانتباه تمثلت في الثنائياتDichotomiesومن الممكن أن يكون دي سوسير قد تأثر بالنظرية الكلاسيكية القائلة بأنه ثمّة وجهين مختلفين لكل شيء في هذا الكون كلاهما يكمل الآخر، وقد ظهرت هذه الفكرة عند أرسطو وديكارت واستعملها سوسير من جديد في شكل دعائم مزدوجة أو تفرعات ثنائية[2] ومنها على سبيل المثال[3]:

-اللغة/الكلام:

فاللغة ظاهرة اجتماعية لا يستغني عنها أي مجتمع، ولا يقوم فرد واحد باختراعها ولا تعديلها، واللغةLa Langue يمكن دراستها بمعزل عن الكلام، أما الكلامLa Parole فهو ذو طابع فردي وهو عبارة عن نشاط عضلي صوتي يقوم به.

-ثنائية الدال والمدلول: والعلاقة اعتباطية بينهما، فاللغة نظام من الرموز وليست مجرد مفردات، وهذه الرموز عبارة عن دوال انتظمت في نسق واحد واكتسبت عرفا(مدلولات معينة)، وهذه الوحدات اللغوية(الدوال) لا تتطابق مع الواقع الفكري أو المادي(المدلولات) تطابقا كليا، فالرموز الصوتية والعبارات نظام متكامل يتضمن المحتوى الدلالي (المعنى).

-علاقة العناصر رأسية/ أفقية:

فالمحور الرأسيParadigmatic هو الذي يوضح إمكانية تبادل الكلمات أو الرموز التي تشغل موقعا ما في الجملة كما في المثال: ملأت كأس ماء، حيث يمكن استبدل كأس ماء ب: خزان، برميل، كوب...، وفي جملة مثل: أنت مجتهد، فالضمير أنت يمكن استبداله ب: هو، أنا...

أما المحور الأفقيSyntegmatic حيث تنتظم عناصر التركيب في شكل متتابع يشغل كل عنصر موقعا فيها(مسند، مسند إليه، مبني، معرب)، فكل عنصر يتطلب تحديد الموقع والوظيفة والحركة الإعرابية ، فلا يكفي استبدال اسم باسم أو فعل بفعل إلا إذا توفرت شروط الرابط الأفقي.

- الآنية والزمانية:

فاللسانيات الآنيةLanguistique synchronique تدرس أية لغة من اللغات على حدة دراسة وصفية في حالة معينة أو في نقطة زمنية محددة ولا تقتصر في الواقع على دراسة اللغات الحديثة أو المعاصرة إذا توفرت كل الشروط والمعطيات التي تنبني عليها الدراسة العلمية الوصفية، أما اللسانيات الزمانية Languistique Diachronique فتتناول التغيرات والتطورات المختلفة التي طرأت على لغة ما عبر فترة من الزمن من خلال حقب متتابعة في الزمن الماضي.

2-ليونارد بلومفيلدLeonard Bloomfield(1887-1949م):

وهو من أشهر اللغويين الأمريكيين في القرن العشرين، ويعد كتابه"اللغة" هو عمدة الأمريكيين الذي أطلق عليه بعض الدارسين اسم" إنجيل اللسانيات الأمريكية"[4]، وهو من أصحاب النظرية السلوكية الذين ينكرون وجودة عملية ذهنية عند النطق باللغة، وهي امتداد للمدرسة السلوكية في علم النفس التي يتزعمها واطسون، ويعد كتاب "اللغةLanguage" المذكور حلقة وصل بين المدرستين ، حيث نقل أفكار علم النفس السلوكي إلى مجال البحث اللغوي، ومعنى أي صورة من الصور اللغوية عند بلومفيلد هو الحالة التي ينطق فيها المتكلم بهذه الصورة والأثر الذي يحدثه في السامع[5]، فاللغة عنده هي مجرد سلوك مثير واستجابة، والموقف الكلامي عنده يتكون من:

أولا- أحداث عملية تسبق الكلام.

---

[1] - ينظر: الاتجاهات المعاصرة في تطور دراسة العلوم اللغوية، أحمد عبد العزيز دراج، مكتبة الرشد ناشرون، المملكة العربية السعودية، دط، 2003م، ص78.

[2] - ينظر: اللسانيات النشأة والتطور، ص121.

[3] - ينظر: الاتجاهات المعاصرة في تطور دراسة العلوم اللغوية، ص78-83.

[4] - ينظر: المرجع نفسه ، ص193.

[5] - ينظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت، دط، دت، ص346.

ثانيا- الكلام.

ثالثا- أحداث عملية تتلو الكلام.

وأهم مثال يقدمه بلومفيلد لإثبات وجهة نظره حول علاقة اللغة بالسوك(حادثة التفاحة بين جاك وجيل)، حيث حدث التالي:

-كان جاك وجيل يتجولان داخل ممر مسيّج، تري جيل تفاحة فتشعر بالجوع(مثير).

- تصدر جيل كلاما يعبر عن الجوع(تحدث أصوات بحنجرتها ولسانها وشفتيها).(كلام).

- بناء على ذلك يقوم جاك بتسلق الشجرة لقطف التفاحة ويقدمها لجيل، فتأكلها.(استجابة).

3- جون فيرثJohn Firth(1890-1960م):

استقر فيرث بالهند مدة طويلة ما أتاح له تعلّم بعض اللغات الشرقية وتأثر بالنظريات اللغوية الهندية الشيء الذي جعله يعتقد بأن تطوير أية نظرية لغوية لا يكون إلا بالمعرفة الدقيقة للصوتيات الحديثة، ونظرا لاهتمامه بالتعليم ومناهجه فقد تولى مهنة تدريس اللغة الأنجليزية بجامعة البنجاب من سنة1919-1928م. وبعد جولته المشرقية عاد إلى لندن ليشغل منصب أستاذ للصوتيات بجامعتها، وفي سنة 1938م انتقل إلى كلية اللسانيات للدراسات الشرقية والإفريقية بلندن ليتولى تدريس مقياس الدراسات الشرقية والإفريقية، يعد فيرث أول من منح رتبة أستاذ ذي كرسي في اللسانيات العامة في بريطانيا العظمى، وجدير بالذكر أن فيرث قد كوّن أجيالا عديدة من الطلبة وتخرج على يده عدد لا بأس به من اللسانيين الذين ما فتئت أعمالهم تعكس أفكاره[1].

نادى فيرث في منهجه المتميز بالفلسفة الأحديّة إيمانا منه بأن ثمّة مبدأ غائيا واحدا ألا وهو المادة، فكان يرفض باستمرار بناء فكره اللغوي على ما يسمى بالثنائيات التي يصعب تحقيقها من الناحية العملية خلافا لما ذهب إليه سوسير، ولقد كان فيرث شديد الحرص على وصف اللغة بوصفها نشاطا معنويا في سياق اجتماعي معين، وعموما سنتطرق لأهم مجالات التنظير عند فيرث حيث تكلّم عن[2]:

***المكون الاجتماعي:** تأثر فيرث بالأنثروبولوجيا ما جعله يركز على دراسة المكون الاجتماعي في مختلف اللغات البشرية، فاللغة ظاهرة اجتماعية ، وقد ذكر قبل موته سنة1960" **أن اللغة ينبغي أن تدرس بوصفها جزءا من المسار الاجتماعي أي كشكل من أشكال الحياة الإنسانية، وليس كمجموعة من العلامات الاعتباطية أو الإشارات**"، وبما أن استعمال اللغة هو الوسيلة الوحيدة التي تساعد على فهم المعاني قام فيرث بدراسة مكونات اللغة وفق مكونات اجتماعية بحتة، بالتركيز على العلاقات المختلة التي تربط اللغة بالمجتمع.

***- التحليل اللغوي:** قام فيرث بإرساء مجموعتين رئيسيتين من العلاقات، تنقسم كل مجموعة منهما إلى قسمين:

1-العلاقات الداخلية أو الشكلية المتعلقة بالنص، وتنقسم إلى:

أ-العلاقات الركنية وهي العلاقات البينية الموجودة بين العناصر على المستوى النحوي والصوتي(العلاقات التركيبية بين الوحدات النحوية، أو العلاقات بين الوحدات الفونولوجية).

ب- العلاقات الاستبدالية بين المفردات في الأنظمة، حيث تمثل كل مفردة عنصرا معينا من البنية، ويمثل النظام مجموعة المفردات التي نختار منها أية مفردة.

2- العلاقات الموقفية: وتغطي شبكتين مختلفتين من العلاقات:

أ- جميع العلاقات الموجودة ضمن سياق الموقف.

ب- العلاقات القائمة بين أجزاء النص ومظاهر الموقف وهي علاقات بين المفردات اللغوية ومكونات الموقف غير اللفظية، ما يكسب وحدات اللغة معاني شكلية وموقفية.

---

[1] - ينظر: اللسانيات النشأة والتطور، ص172-173.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص174-183.

*-**علم الدلالة:** أراد فيرث أن يجعل من الدلالة علما قائما بذاته ، ويذهب إلى القول بأن دراسة الدلالة هي المهمة الرئسية للسانيات الوصفية، أقر فيرث أن أيّة خاصيّة للكلام هي جزء من معناه، كما تبنى فيرث نظرية سياق الموقف وأعطاها معنى عاما مجردا، فسياق الموقف بالنسبة له حقل من العلاقات بين أشخاص يقومون بدورهم في المجتمع مستعملين لغات مختلفة، أما المعنى عند فيرث فهو تلك الشبكة العامة للعلاقات والوظائف التي تستعمل فيها كل المفردات، وموضوع النظرية الفيرثية هو السلوك البشري في إطار سياق معيّن، وقد أطلق فيرث على السلوك الكلامي اسم المعطيات الصوتية، وهي عبارة عن متصل كلامي غير مقطّع والسياق الواسع هو الثقافة، والسياقات الثانوية هي سياقات الموقف، والسياقات عنده مضبوطة متسلسلة هرميا كما يلي:(1-مصطلح صوتي2-سياق صوتي3-سياق معجمي4-سياق صرفي5-سياق تركيبي6-سياق موقفي7-سياق ثقافي).

*-**الصوتيات الوظيفية**: اعتني فيرث بالصوتيات الوظيفية عناية شديدة مكنته من بلورة مقاربتين أساسيتين ملازمتين للغات:

1-مقاربة الأنظمة المتعددة: يعارض فيرث إقامة نظام واحد من الفونيمات لوصف اللغات البشرية، ونادى بمقاربة الأنظمة المتعددة التي تنص على وجود إمكانيات بديلة ترد على مستويات مختلفة من البنية الفونولوجية، وخلص إلى أنه لا يوجد مبرر منطقي لمطابقة أو معادلة بدائل صوتية في نظام معيّن ببدائل من نظام آخر.

2- مقاربة الصوتيات الوظيفية الفوقطعية: ويشمل ظواهر صوتية مختلفة كالنبر والفاصل والنغم(حسن الصوت وعذوبته) والتنغيم(درجات الصوت المختلة في الكلام)، وتقترن هذه السمات الفوقطعية بالمقطع والجملة وشبه الجملة، ففي الإنجليزية يعد التنغيم سمة فوقطعية على مستوى الجملة وشبه الجملة، ويعد النبر وطول الصوت سمة فوقطعية على مستوى المقطع.

4-أندري ما تيني André Martinet(1908-1999م):

رغم أن مارتيني لم يعش في براغ أبدا، لكنه من أخلص أتباع منهج تروبتسكوي في مجال الفونولوجيا، ومن أكبر المؤيدين المعاصرين لأفكار مدرسة براغ[1]، وقد شارك في أعمال هذا النادي التي كانت تنشر بانتظام، كما شاهد تطور اللسانيات الأمريكية على يد سابير وبلومفيلد، في 1947م حمّل مسؤولية إدارة معهد اللسانيات بجامعة كلولومبيا بنيويورك.

وإذا كانت مدرسة براغ فصلت بين الصوتيات الوظيفية عن الصوتيات ونسب الأولى إلى العلوم والثانية إلى الدرسات الإنسانية فإن مارتيني أزال هذا الفصل وعدّ الفونولوجيا نوعا من الفونيتيك الوظيفية، ويهدف من وراء ذلك إلى تفسير تطور اللغة باستعمال مصطلحات بسيطة لا غموض فيها مثل: اللغة، الجملة، الفونيم، السمة المميزة، اللفظم(الوحدة الصرفية)التي تقابل المورفيم، أما غرضه من التحليل الفونولوجي فيهدف إلى تشخيص العناصر الصوتية وتصنيفها حسب وظيفتها في اللغة، وقد ميّز بين ثلاث وظائف أساسية[2]:

-الوظيفة التمييزية: أو المضادة التي تمكّن السامع من معرفة أن لفظة معينة عوض لفظة أخرى قد نطق بها المتكلّم.

-الوظيفة الفاصلة: التي تمكّن السامع من تحليل القول إلى وحدات متتابعة.

-الوظبفة التعبيرية التي تعلم السامع عن الحالة العقلية أو الفكرية للمتكلم.

بشكل عام فإن الفنولوجيا التاريخية لا تهتم بالتغيّر الصوتي إلا لما يحدثه من تعديلات في بنية اللغة لأن في هذه الحالة فقط يمكن أن نقول بأن تغيّرا ما كان تغيّرا وظيفيا، فهذه الأنواع الوظيفية الهادفة للتغير الصوتي بالمقارنة مع تلك التغيرات التي لا تفضي إلى تعديلات منتظمة تدعى تحويلات فونولوجية، كما ننبه إلى اهتمام مارتيني بالاقتصاد اللغوي ، اقتصاد التغيرات الصوتية الذي يعد أهم وأعظم عمل له في الفونولوجيا الزمانية، حيث يرى مارتيني أن

[1] - ينظر: الاتجاهات المعاصرة في تطور دراسة العلوم اللغوية، ص91.

[2] - ينظر: اللسانيات النشأة والتطور، ص153.

الإنسان يعيش في صراع قائم بينه وبين عالمه الداخلي والخارجي، فالخارجي في تطور مستمر ويتطلب ابتكار مفردات جديدة، والطبيعة الإنسانية الداخلية ميّالة إلى الخمول والجمود واستعمال النزر القليل من المفردات الموجودة حوله، إضافة إلى وجود صراع بين حاجيات التواصل التي تؤدي إلى تطوير اللغة من جهة وخمول الأعضاء ونزوعها إلى الاقتصاد في الجهد الذي تتطلبه عملية التلّفظ أو التذكّر من جهة أخرى[1].

5- أفرام نعوم تشومسكيAvran Noam chomsky:

ولد في مدينة فيلاديلفيا الأمريكية في 7 ديسمبر1928م وهو من أصل روسي ونشأ في بيئة لغوية حيث كان والده متخصصا في عبرية الأندلس، وصحح لوالده في صباه أصول أحد الكتب عن العبرية مما كشف عن ميوله اللغوية مبكرا، التحق بجامعة بنسلفانيا درس علم اللغة والرياضيات والفلسفة وتتلمذ على يد زيليغ هاريس أستاذ علم اللغات السامية، انتقل إلى جامعة هارفورد وتأثر بفكر جاكبسون الذي كان يدرس فونولوجيا تهتم بعلم المعنى من ناحية نظرية، وهو اتجاه مناقض لفكر بومفيلد[2].

في عام 1951م قدم رسالة ماجستير بعنوان البنية الصوتية للعبرية الحديثة ونظامها الصرفي، ثم قدّم عملين تأسست عليهما أعماله اللاحقة وهما: التحليل التحويلي، ورسالة الدكتوراه البنية المنطقية للنظرية اللغوية، لكن منحاه الصعودي بدأ مع نشر كتابه التراكيب النحويةSyntactic Structuresسنة 1957م، ثم تسارعت بعد ذلك تطورات النظرية التوليدية التحويلية، ولقد ساعد ظهور أجيال الحاسبات الآلية بالتوازي مع حياة تشومسكي على بقاء علاقته متجددة دائما بعلوم الرياضيات والحاسب الآلي، ففي عام 1958م كتب عن تناهي الأنماط النحوية وعلاقة علم اللغة بعلوم النفس والمنطق والذكاء الصناعي في إطار برمجة الحاسبات، كما ربط بين بنية اللغة من جهة والرياضيات والحاسب الآلي من جهة أخرى، وأفاد علماء الحاسبات من فكرة توليد الجمل وأمدّهم برؤية عملية لآليات النظام اللغوي[3].

لقد ظهر أثر تنوع مصادر تشومسكي الفكرية في جميع المبادئ والفرضيات التي وضعها ملتزما بالدقة الصارمة التي وضعت على أساسها القواعد الرياضية ومن هذه المبادئ نذكر[4]:

-مفهوم اللغة: عرف تشومسكي اللغة في كتابة البنى التركيبية قائلا:"من الآن فصاعدا سأعدّ اللغة مجموعة متناهية أو غير متناهية من الجمل ، كل جملة طولها محدود ومؤلفة من مجموعة متناهية من العناصر، وكل اللغات الطبيعية في شكلها المنطوق والمكتوب هي لغات بهذا المعنى، وذلك لأن كل لغة تحتوي على عدد متناه من الفونيمات أو الحروف، ومع هذا فإن عدد الجمل غير متناه".

-الكفاءة والأداء: إن مفهومي الكفاءةcompetence والأداءperformance وهما يرتبطان بمفهومي اللغة والكلام عند سوسير، لكن تشومسكي رفض فكرة سوسير بأن اللغة كتلة من المادة أو قائمة من الفردات التي ينتقي منها الفرد الكلام، وذهب إلى التمييز بين الكفاءة وهي المعرفة اللغوية الباطنية للفرد أي مجموعة القواعد التي تعلّمها، والأداء وهو الاستعمال الفعلي للغة في المواقف الحقيقية، فالكفاءة هي نظام عقلي تحتي قابع خلف السلوك الفعلي وهو ليس قابلا للدراسة التجريبية المباشرة، والوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذا النظام ودراسته هي الاستبطان إذ يساعدنا على إصدار أحكام على كل الجمل من حيث صحّتها النحوية ومقبوليتها.

-التوليدgeneration: يدل على الجانب الإبداعي للغة أي القدرة التي يمتلكها كل إنسان لتكوين وفهم عدد لا متناه من الجمل في لغته الأم، بما في ذلك الجمل التي لم يسمعها من قبل، وقد أولى تشومسكي القدرة الإبداعية Creativity

---

[1] - ينظر: المرجع نفسه، ص154-155.

[2] - الاتجاهات المعاصرة في تطور دراسة العلوم اللغوية، ص111.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص111-113.

[4] - ينظر: اللسانيات النشأة والتطور، ص206-212.

اهتماما كبيرا وأكّد على أن النظرية النحوية لا بد أن تعكس قدرة جميع المتكلّمين باللغة، والنحو التوليدي في نظره لا بد أن يولّد كل الجمل النحويةgrammatical في اللغة أي أننا باتباع قواعد نحوية يمكننا تكوين كل الجمل الممكنة في اللغة.

- **التحويل:** تحتل التحويلات المكانة الرئيسية والثورية في القواعد التشومسكية، وتكمن أهميتها في تحويل البنى العميقة إلى بنى متوسطة وسطحية، وبعبارة أخرى فإنها تربط البنى العميقة بالبنى السطحية، وفي كتابه البنى التركيبية سنة1957م ميز تشومسكي بين الجملة الأساسية أو النواة والجملة المشتقة التي سماها الجملة المحولة، ووصف الجملة النواة بأنها بسيطة وتامة وصريحة وإيجابية ومبنية للمعلوم والجملة المحولة بأنها تنقصها خاصية من خواص الجمل النواة فتكون استفهاما أو أمرا أو نفيا أو معطوفة أو متبعة أو مدمجة، وذكر تشومسكي أن التحويل يكشف لنا الطريقة التي تتحول بها الجملة النواة إلى عدد من الجمل المحولة بشكل جلي.

-**مفهوم النحو:** النحو عن تشومسكي يشمل الفنولوجيا والدلالة والصرف والتركيب، وقد عرّف النحو في كتابه البنى التركيبية قائلا:"بأنّه جهاز lyonsالتوليد الجمل النحوية في اللغة"، وحسب ليونز فإن استعمال مصطلحات جهاز، توليد في هذا المقام قد أضل الكثير من القراء، حيث فهموا من كلامه أن النحو جهاز إلكتروني أو آلي يكرر أو يفحص سلوك المتكلم عندما يتلفظ بالجملة، وتجدر الإشارة أن تشومسكي قد استعمل هذه المصطلحات لأن فرع الرياضيات الذي استعمله لشكلنة نحوه يستعمل هذه المصطلحات، مثل: جهاز، آلة، إنتاج، توليد، بطريقة تجريدية.

المحاضرة الثامنة:(اللسانيات التمهيدية واللسانيات المتخصصة)

أولا: الكتابة اللسانية التمهيدية

الكتابة التّمهيديّة أو التّيسيريّة طريقة في التّأليف لا يمكن لأيّ عمل أن يشيع بدونها، لذلك من الطّبيعي أن يشكل هذا النّوع من التّأليف أحد الاهتمامات الأساسيّة لنشر العلوم وتقريبها إلى القرّاء[1]، فهي تعتمد المنهج التعليمي القائم على التوضيح والتبيين والشرح من خلال وسائل مساعدة كالأمثلة والرسوم البيانية بشكل مبسط قصد تيسير المعرفة فهي تنطلق بحسب **مصطفى غلفان** من نقطة أو من متصوّر قبلي لمستوى المتلقّي، الّذي سيطّلع على هذا العلم لأوّل مرّة، فهو جاهل بأصول هذا العلم في اعتقاد كثير من اللّسانيين العرب الّذي فتحوا مجال الكتابة في اللّسانيات للقارئ العربي، حيث يذكر **ميشال زكريّاء** بأنّه يهدف في كتابه"**الألسنية مبادئها وأعلامها**" إعطاء نقط الارتكاز للقارئ الّذي يجهل هذا العلم من أجل إدخاله في صميم المنهجيّة اللّسانية محاولين تسهيل التّعامل مع الأفكار والمفاهيم اللّسانية[2] هنا يصبح الكاتب إذا سلّمنا بفهمه أصلاً لما يكتب يستهدف إرضاء القارئ وليس ذلك جرمًا، ولكنّه ينبغي أن لا يكون على حساب العلم وحقيقته، وعى العموم سنقدّم قراءة للّسانيات التّمهيديّة، منطلقين من تساؤل: هل نجحت الكتابة اللّسانية التّمهيديّة في تقريب اللّسانيات من القارئ العربي؟

1- السمات المنهجية العامة للكتابة اللسانية التمهيدية العربية:

لقد ساهمت الكتابة اللسانية التمهيدية منذ كتاب علي عبد الواحد وافي"علم اللغة" بشكل إيجابي وعملي في تقريب اللسانيات إلى القارئ العربي سواء كان مثقفا عاديا أم طالبا أم متخصصا في العلوم الإنسانية أم مهتما بمجال معرفي آخر، وقد نجحت هذه الكتابات في هدفها الأساس المتمثل في نشر الفكر اللساني الحديث في الثقافة العربية الحديثة، لكن هذا النجاح نسبي لأسباب عديدة بعضها يرتبط بمسائل أخرى تخرج عن طبيعة هذه الكتابة، مثل تراجع الاهتمام باللسانيات خاصة بعد التحولات التي جاء بها النحو التوليدي التحويلي وتراجع المنهج البنيوي، المستوى الذي وصله تدريس اللسانيات في بعض الجامعات العربية بشكل يتجاوز طبيعة الكتابة التمهيدية، جوانب تتعلق بمسائل تاريخية ونفسية تتعلق بطبيعة التفكير العربي..إلخ، وبعضها يتعلّق بالكتابة التمهيدية نفسها حيث تحدث الباحث مصطفى غلفان عن جملة من الأسباب منها[3]:

أ- الارتباك في تحديد مجال البحث اللساني:

حيث يبلغ الارتباك إلى درجة التضارب والتناقض من خلال حصر مجالات الدرس اللساني، فهي عند بعضهم دراسة بنية الجملة من جانب صوتيPhonétique/Phonologie وصرفي(بناء الكلمةMorpholigy)ونحوي(بناء الجملة Syntax) وبلاغيSemantics، وهي عند آخرين إضافة إلى ذلك البحث في نشأة اللغة، وعلاقة اللغة بالمجتمع والنفس والبحث في صراع اللغات وانقسامها إلى لهجات وصراع اللهجات، فعلى سبيل المثال علم اللهجات، وعلم النفس اللغوي وعلم الاجتماع اللغوي هي علوم مستقلة بذاتها، لكنها عند بعض اللسانيين التمهيديين هي جزء من اللسانيات، كما أن الكثير من الكتابات التمهيدية ما تزال تعرض معلومات معادة في الجانب الصوتي والأطالس اللغوية(الأطالس اللغوية هي وسيلة لتسجيل الظواهر اللغوية على الخرائط، وهو يجسد العلاقة بين علمي اللغة والجغرافيا)، ونشأة اللغة وتفرعاتها، كما يلاحظ اهتمام هذا النوع من الكتابة بالمستوى الصوتي قياسا بالمستويات الأخرى.

فعلى سبيل المثال نذكر **عبد الصّابور شاهين** في كتابه" **في علم اللغة العام**" عند تحديده لعلم اللغة وعلم اللغة العام والمواضيع الّتي يدرجها تحته يحتاج إلى وقفة مطوّلة، لإزالة ما تحمله مثل هذه التّحديدات من غموض وخلط، فهل تندرج الفيلولوجيا وعلم اللّهجات وأسماء الأعلام وأسماء البلدان وعلم الاشتقاق التاّريخي تحت مصطلح

---

[1] - اللسانيات في الثقافة العربيّة المعاصرة، ص100.

[2] - ينظر: اللسانيات العربية الحديثة، ص99.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص108-118.

اللّسانيات؟! إنّها علوم لغويّة مساعدة للّسانيات-**يقول حافظ إسماعيلي علوي**- ولكنّها ليست بأيّ حال من اللّسانيات العامّة، وهذا على الأقل منذ أن أصبحت اللّسانيات إطارًا لغويًّا مستقلاً عن غيره من المعارف اللّغويّة [1].

ب- غياب تقنيات البحث اللساني:

فتعامل الكتابة اللسانية التمهيدية مع تقنيات التحليل اللساني ظلت في العموم منحصرة في تقديم معلومات تعود لبداية القرن العشرين في صيغ يغلب عليها الطابع الأدبي، دون أن تعرض للكيفية التي يتم بها تناول هذه الموضوعات لسانيا سواء في إطار المنهج الوصفي أم التاريخي أم التقابلي باعتبارها أجهزة مفاهيمية لها أدواتها الواصفة التي تضبط عملية التحليل الوصفي للغة.

ج- عدم مواكبة تطور النظريات اللسانية:

فالكتابات اللسانية في المجمل لم تواكب في مجملها التطورات التي حصلت في البحث اللساني الحديث وما عرفته النظريات من تغييرات وتصورات جديدة وتكاد تكون المرحلة التي تتناولها الكتابة التمهيدية في المرحلة البنيوية في إطارها البنيوي الذي عرف في أنجلترا، فعلى سبيل المثال يقف كمال بشر في كتابه"علم اللغة العام: الأصوات" في عرض جيد للنظريات اللسانية في حدود المدرسة البنيوية كما تتجسد في أعمال تروبتسكوي ولا يتعدّاها رغم صدور كتابه في بداية السبعينات، فهو لم يعرض ما قاله تشومسكي وهالي في إطار نظرية النحو التوليدي في الجانب الصوتي.

د- الكتابة اللّسانية التّمهيدية العربية وإشكالية التّأصيل:

يعمد بعض المؤلّفات التّمهيديّة بدافع التّأصيل إلى المقارنة بين التّراث اللّغوي العربي ومبادئ الدّرس اللّساني الحديث وهي مقارنة لا تخلو من تعسّف وإفراط في التّأويل، فالتّأصيل الّذي تتحدّث عنه مثل هذه المقارنات **يقول حافظ إسماعيلي علوي** يقوم على تجاهل الأصول الإبستمولوجيّة لكلّ علم، والّتي من المفروض أن ترتكز عليها القراءة، فهل من المقبول أن نكلّف القارئ المبتدئ عناء الدّخول في مثل هذه المقارنات، ونشحنه بمقارنات مبنيّة على تأويلات هدفها إثبات التّقاطع بين خطّين مختلفين، بل متباعدين زمنًا ومكانًا ومنطلقًا ومنهجًا وغايةً؟ وفي رأيي حافظ إسماعيلي علوي إنّ مثل هذه المقارنات الخاطئة تخطئ هدفها لاعتبارين اثنين على الأقل[2]:

أ- إذا كان متلقّي هذه المقارنات ملمًّا بالتّراث اللّغوي، فلا يجد داعيًا لتعميق معرفته باللّسانيات، لأنّه بهذه المقارنة يعتقد أنّ مبادئ اللّسانيات هي ما عرفه من مبادئ التّراث كما توحي بذلك المقارنة.

ب- إذا كان متلقّي هذه المقارنات جاهلاً بتراثه، فإنّ التّطابق الوهمي الّذي يتراءى له، سيكون كافيًا لقطع كلّ اتّصال وبحث في هذا التّراث، لأنّ اللّسانيات وحدها تكفيه.

وفي الحالتين فقد فشل الكاتب فشلاً ذريعًا في تحقيق هدفه، لا هو أثبت مكانة التّراث اللّغوي العربي، ولا هو أثبت أهميّة اللّسانيات وأحسن تقديمها للقارئ العربي[3].

ونحن نعلم أنّ المقارنة لن تكون نزيهة وعادلة إذا لم يكن الّذي يقوم بها ملمًّا بطرفي المقارنة(التّراث واللسانيات)، ومتعمّقًا فيهما، وهذا الأمر لا يتوفّر في أغلب هؤلاء-إلاّ ما ندر-، وإذا توفّر هذا الإلمام المعرفي فإنّه سيكون أكثر في طرف على حساب الطّرف الآخر، وهنا ستكون المقارنة غير عادلة أو غير دقيقة، وهذا كلّه يجعل البحث اللّساني العربي يغرق في هذه المتاهات والمطبّات، ويأخذ القارئ بالتّالي معلومات مغلوطة .

ويزداد الأمر استشكالاً يقول **حافظ إسماعيلي علوي** حين تتجاوز المقارنة حدود الفهم والإفهام، وتروم أهدافًا أخرى، حيث يتحوّل الكاتب إلى عارض لمبادئ اللسانيات من أجل نبذها وتجاوزها، وتزكية سلطة القديم وتأكيدها وهذا ما يتوق إليه أحد الكتب التّمهيديّة الّذي حاول أن يبيّن كيف أنّ النّحاة الأوائل إبّان نهضتهم أولوا تلك الأبحاث

---

[1] - ينظر: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص119-120، وينظر: اللسانيات العربيّة الحديثة، ص110.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص123.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص123.

اللّغويّة جهودًا فائقة خدمة للّغة العربية الّتي هي وعاء مقدّساتنا على أسس سليمة في جملتها، وكانت تلك الجهود نبراسًا لأمّة الغرب حين نهضته حديثًا وساعده ذلك على الرّقي، فإذا ما غضّ الطّرف بعدئذ بعض علمائهم على ما وضع علماؤنا فمرجعه جهل مبين أو حقد دفين[1].

يقول **عبد الصّبور شاهين** في هذا الصّدد:«**ومن ذلك فإنّ أحدًا لا ينكر أنّ التّناول الحديث للّغة، قد خضع للمناهج الأوروبيّة، واتّبع طريقتها في البحث، كما سبق أن اتّبع الأوروبيون مناهج المسلمين، إبّان عصر النّهضة حتّى استطاعوا أن يقفوا على أقدامهم، وأن يستقلّوا بوجهات نظرهم في مختلف العلوم، فكانت الحضارة الأوروبيّة الحديثة نتاج الامتزاج التّاريخي بين عطاء العقل الإسلامي والعقل الأوروبي**»[2].

هـ- الكتابة اللسانية العربية التمهيديّة ولعبة الإقصاء:

تنهض أغلب المؤلّفات التّمهيديّة على مبدأ نفي الآخر بأسلوب مهذّب وذكي من خلال إشادة كلّ كاتب بكتابه، ليضمن له الشّهرة والاستحسان والقبول ولا يكتفون بذلك لأنّه أمر مشروع، بل إنّهم يعمدون إلى نقد الكتب الأخرى- إن صحّ تسمية ذلك بالنّقد-والكشف عن عيوبها الّتي تحاشتها كتبهم، بل وإنّ الإقصاء قد يطال البحث اللّساني في ثقافتنا العربيّة برمّته، كما يقول **عبد الواحد وافي**:«**موضوعات علم اللغة هي موضوع عناية عدد كبير من الأعلام الباحثين في الغرب، وعلى الرغم من ذلك لم يكتب فيه باللّغة العربية مؤلّف واحد يعتدّ به**»[3].

ويتّخذ النّفي والإقصاء شكلاً آخر حين يعمد الكاتب إلى إغداق كلّ أشكال المدح والثّناء على مؤلّفه ومنهجه في البحث، مع الاستغراق في مدح الذّات وفي هذا الصّدد يقول **أحمد مختار عمر** في مقدّمة كتابه: "**علم الدلالة**":«**ورغم كثرة ما كتب وما يكتب بغير العربيّة في علم الدّلالة ومناهج دراسة المعنى من وجهة النّظر اللّغويّة فالمكتبة العربيّة فقيرة أشدّ الفقر في هذا النّوع من الدّراسات، فمنذ أن صدر كتاب المرحوم إبراهيم أنيس"دلالة الألفاظ"عام1958م حتّى الآن، لم تقدّم للقارئ العربي أيّة دراسة علميّة للمعنى بمفهومه اللّغوي، تستفيد ممّا جدّ من نظريات وما قدّم من أبحاث وما ظهر من نتائج، ولا يغني في هذا المقام كتاب الدّكتور كمال بشر"دور الكلمة في اللّغة" والدّكتور مراد كامل"دلالة الألفاظ العربية وتطوّرها"1963م، فأوّلهما ترجمة لكتاب صدر في فترة مبكّرة من تاريخ العلم1951م، والثّاني زاوية واحدة من زوايا العلم الكثيرة**»[4].

2- قراءة نقدية في عناوين ومقدمات بعض الكتب التمهيدية:

أ- قراءة في العناوين:

العنوان له أهميّة قصوى لأنّه مفتاح التّعامل مع النّص دلاليًّا ورمزيًّا، والقارئ لا يستطيع أن يفكّ عوالم النّص أو الكتاب ودلالتهما ومقاصدهما دون امتلاك العنوان، وقد عرض **حافظ إسماعيلي** علوي مجموعة من عناوين كتب اللّسانيات التّمهيديّة، وهي تمثيل لا حصر[5]، سنقدمها على شكل جدول:

الرقم	العنوان	المؤلّف	الرقم	العنوان	المؤلّف
01	علم اللغة	علي عبد الواحدوافي	13	دروس في السيميائيات	مبارك حنون
02	علم اللغة مقدمة للقارئ العربي	محود السعران	14	مقدّمة في علوم اللغة	البدراوي زهران
03	علم اللغة العام	توفيق محمد شاهين	15	مقدّمة في اللسانيات	عاطف فضل
04	في علم اللغة العام	عبد الصّابور شاهين	16	مقدمة في اللسانيات	عيسى برهومة
05	اللسانيات التوليديّة التحويليّة	عادل فاخوري	17	توطئة لدراسة علم اللغة	التّهامي الراجي
06	الألسنية(علم اللغة الحديث)المبادئ والإعلام	ميشال زكريّاء	18	مبادئ اللسانيات	أحمد محمد قدّور
07	المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث فيه	رمضان عبد التوّاب	19	مبادئ في اللسانيات	خولة طالب الإبراهيمي

[1] - ينظر: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة ، ص123-124، وينظر:في علم اللغة العام، عبد الصّابور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1993،6م، ص10-21.

[2] - في علم اللغة العام، ص21.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص125.

[4] - علم الدلالة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 1998م، ص6، وينظر: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص126-127.

[5] - ينظر: المرجع نفسه، ص100-103.

08	مدخل إلى اللسانيات	صالح الكشو	20	مبادئ اللسانيات البنيويّة	الطيب دبّة
09	مدخل إلى علم اللغة	محمود فهمي حجازي	21	مدارس علم اللغات	المعتمد بن رشيد ومحمد خريص
10	مدخل إلى علم اللغة	محمد علي الخولي	22	اللسانيات العامّة واللسانيات العربية	عبد العزيز حليلي
11	مدخل للسانيات دي سوسير	مبارك حنون	23	اللسانيات الوظيفيّة مدخل نظري	أحمد المتوكّل
12	مدخل للصواتة التوليديّة	إدريس السغروشني			

***-وظيفة العنوان:**يذكر **حافظ إسماعيلي علوي** بأنّ العنوان عند **جيرار جينيت** يؤدّي أربع وظائف هي : (الإغراء، الإيحاء، الوصف، التّعيين)، وهناك من يربطها بوظائف جاكبسون السّت المعروفة، وهناك من يتوسّع فيها أكثر حيث قدّم **هينري ميتران** وظائف أخرى، كالوظيفة التّعيينيّة والوظيفة التّحريضيّة والوظيفة الإيديولوجيّة، وكلها وظائف هدفها إخضاع القارئ، وسنقدّم قراءة تحليلية لوظائف العنوان حسب تقسيم **جاكبسون** بناءً على نظرة **حافظ علوي**:

أ- الوظيفة التواصليّة:

وهذه الوظيفة تهدف إلى تبئير المتلقي وربط نوع من التّواصل بينه وبين المقروء لخلق نوع من التّقارب بينهما لتحريض المتلقي على القراءة والتّلقّي، وتقليص المسافة بينه وبين الكتاب، وهي وظيفة عملت عليها كل الكتب التّمهيديّة دون استثناء[1]، وكأنّ العنوان يطرق باب القارئ يود ربط الوصال معه وطرق بابه.

ب- الوظيفة الانفعاليّة التأثيريّة الإغرائية:تنطلق الكتابة التّمهيدية من مسلّمة أنّ القارئ قارئ مبتدئ يريد التّعرّف على اللّسانيات باعتبارها علمًا جديدًا، والمؤلّف في هذه الحالة يختار ما يراه مناسبًا هو لجلب القارئ العربي وإثارة انتباهه وإغرائه بعبارات محبوكة توحي بالتّبسيط والتّسهيل، وتروم الانتفاع لخلق تفاعل بين النّص والقارئ، وهذه وظيفة تؤدّيها العناوين بدرجات متفاوتة، ويمكن التّمثيل لذلك بالعناوين الآتية:[2]

الرقم	عنوان الكتاب	بؤرة العنوان	الرقم	عنوان الكتاب	بؤرة العنوان
01	مدخل إلى علم اللغة	مدخل	07	المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث فيه	المدخل
02	مدخل للسانيات دي سوسير		08	مبادئ اللسانيات	مبادئ
03	مدخل في اللسانيات		09	علم اللغة مقدمة للقارئ العربي	مقدّمة
04	مدخل إلى الألسنيّة		10	توطئة لدراسة علم اللغة	توطئة
05	مدخل إلى السيمياء السرديّة		11	دروس في علم اللغة العام	دروس
06	مدخل للصّواتة التوليديّة				

نلاحظ من خلال هذه العناوين أنّ الكلمات المبأّرة للعنوان تُظهر بوضوح تام الرّغبة في التّأثير والتّسهيل، وخلق نوع من التّجاوب بين القارئ والنّص[3]، بمعنى أنّ الكاتب يختار العنوان الّذي يوحي للقارئ بأنّه وجد الصّيد الثّمين أو الأمنية الّتي كان يتمنّاها، وهذه في حقيقة الأمر وظيفة الأدب الّذي يهدف أساسًا إلى التأثير في عواطف القارئ بالدّرجة الأولى وهذا يعني بأنّ أصحاب مثل هذه العناوين، كأنّهم يخاطبون العواطف لا العقول.

ج- الوظيفة المرجعيّة الإحاليّة:تهدف هذه الوظيفة إلى تعيين موضوع الكتاب وتحديد غاياته، فتشكّل هذه الوظيفة بذلك نوعًا من التّعاقد بين المؤلّف والقارئ، وتؤدي عناوين الكتب التّمهيديّة هذه الوظيفة بطرق عديدة يمكن أن نوضّحها في هذا الجدول[4]:

الرقم	عنوان الكتاب	الإحالة إلى:	الرقم	عنوان الكتاب	الإحالة إلى:
01	مدخل إلى علم اللغة	اللسانيات بطريقة عامّة	09	علم الأصوات	قطاع خاص من اللسانيات
02	مدخل إلى الألسنيّة	//	10	علم الدلالة	//
03	توطئة في علم اللغة	//	11	السيميائيات	//
04	مبادئ في اللسانيات	//	12	مدخل للصواتة التوليديّة	فرع قطاع معيّن
05	مبادئ في علم اللسانيات الحديث	//	13	مدخل إلى السيميائيات السردية	//

[1] - ينظر: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص103-104.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص104.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص104.

[4] - ينظر: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص105.

06	اللسانيات البنيويّة	مدرسة لسانية محدّدة	14	مدخل إلى لسانيات دي سوسير	إسهامات علم من أعلام اللسانيات
07	اللسانيات الوظيفيّة	//	15	النظريّة الأمريكيّة في اللغة تشومسكي	//
08	اللسانيات التوليديّة التحويليّة	//			

وهذه الوظيفة كأنّها تظهر صدقًا(فهي تعتمد التّصريح المباشر)مع القارئ وتقول له إنّك ستجد مبتغاك، دون تعب كبير فعند أخذ عنوان البنيويّة مثلاً، كأنّ هذا العنوان يقول للقارئ هذه المسألة قد حلّت، وستتعرّف على البنيويّة كما تريد وتشتهي.

د- الوظيفة الإيديولوجيّة:هي وظيفة دومًا حاضرة في كل الكتابات التّمهيديّة الّتي تضع نصب العين هدفًا محدّدًا سواء عبّر عن ذلك المؤلّف صراحة أم تلميحًا، وهذا ما تومئ به عناوين هذه الكتابة، ويأتي في مقدّمة ذلك التّعريف باللّسانيات باعتبارها علمًا قائمًا بذاته، ويتّخذ التّعريف شكل تحديد شامل لأهداف ومقاصد اللّسانيات أو لأحد قطاعاتها بهدف جعل القارئ ينخرط في اللسانيات[1]. ولا يمكن إخفاء هذه الوظيفة في مثل" علم اللّغة الحديث" " "مدخل في اللسانيات"، "علم اللّغة مقدّمة للقارئ العربي"، كأنها توحي بدعوة القارئ للانخراط في سياق الحداثة، لأن الزّمن يتغيّر والعلوم اللّغويّة تتغيّر أيضًا، يجب الانخراط في الحداثة اللغويّة المتمثّلة في اللّسانيات.

ب- قراءة في المقدّمات:المقدّمة قديمة في الثّقافة العربية ولم تكن غائبة عن اللّغويّين العرب، وكانت الشّغل الشاغل للباحثين اللّسانيين المحدثين وعليها يترتّب نجاح التّلقي أو فشله، لأنّها تقوم بتوجيه القراءة وتنظيمها، وتهيّئ القارئ لاستقبال مشروع قيد الإنجاز وهي بالتّالي نوع من التّعاقد المسبق بين المؤلّف والقارئ[2]، فللمقدّمة إذن وظيفة اتّصال(phatique) الّتي قال بها **مالينوفسكي**(Malinovoski1884م-1942م)، وتبنّاها **رومان جاكبسون** (Jakobson.R1896م-1982م)، حيث اعتبرها من الرّسائل الّتي تؤدّي إلى ربط التّواصل أو إطالته أو قطعه[3].

1.2.2- وظيفة المقدّمة:

إذا كان العنوان يؤدّي وظائف مختلفة انفعاليّة وتأثيريّة وإغرائيّة ومرجعيّة وإحاليّة وشعريّة جماليّة إيحائيّة وأيديولوجيّة ... وهذه الوظائف تحضر أيضًا في مقدّمات الكتابة اللّسانية التّمهيديّة[4].

أ- الوظيفة الانفعالية التأثيريّة الإغرائيّة:هي ذات حضور لافت حسب قول **حافظ إسماعيلي علوي** في مقدّمات الكتابة اللّسانية العربيّة التّمهيديّة، بالتّركيز على الغاية التّعليميّة التّبسيطيّة، مع الإشارة إلى أهميّة الدّرس اللّساني ومكانته.

***- الغاية التعليميّة التبسيطيّة:**الغاية التّعليميّة هي مربط الفرس في كلّ مؤلّف تمهيدي، ومن هذا المنطلق فالمقدّمات في هذا النّوع من الكتب تركّز على هذا الجانب وتوليه عناية فائقة، يمكن أن نستدلّ على ذلك بما ورد في مقدّمة كتاب "**علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي**"، إذ يقول مؤلّفه:«...**ولذلك مهّدت لكتابي بمقدّمة طويلة شيئًا ما تهيئة لذهن القارئ الشّادي لتلقّي أصول هذا العلم بأيسر سبيل وأدنى مجهود، ولقد حاولت تبسيط حقائق هذا العلم ما وسعني التّبسيط مع حرصٍ على الدّقّة والسّلامة، حتّى يستقلّ القارئ المبتدئ بتحصيل ما فيه ومدارسه، وينتقل منه آمنًا إلى مطالعة أصول هذا العلم منقولة إلى العربيّة أو مكتوبة بلغتها**»[5]، واضح أسلوب الإغراء وحتّي نوع من التّغزّل بالقارئ وذكر ما يدلّ على التّيسير والتّسهيل، وذكره للمبتدئ خصوصًا يدخل في هذا الإطار.

ولا يكتفي بعض كتّاب هذا النّوع من الكتابة بمثل هذه الإشارات الواضحة، بل تسعى إلى إغراء المتلقّي بعبارات محفّزة لاستدراجه إلى خبايا المقروء كما نقرأ في قول **ميشال زكريا** في مقدّمة كتابه"**الألسنيّة علم اللغة الحديث، المبادئ والأعلام**":«**قصدنا دعوة القارئ العربي إلى تذوّق هذا العلم الحديث والإلمام به، من أجل ذلك هو كتاب**

---

[1] - ينظر: المرجع السابق، ص106.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص101.

[3] - اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص101.

[4] - المرجع نفسه، ص106.

[5] - علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي، د: محمود السعران، دار النهضة العربيّة، بيروت، دط، دت، ص 6(في المقدّمة).

تمهيديّ»[1]، وهذا إغراء واضح وتحفيز وتشجيع للقارئ ومصطلح تذوّق هو أقرب للرّسالة الأدبية، وكأنّه يوحي للقارئ أن يترك ما عنده بسرعة ويأتي لتذوّق اللّسانيات.

إنّ هؤلاء يعمدون من خلال ذلك إلى لفت انتباه القارئ وتحسيسه بأنّ ما في كتبهم مختلف، وهو الخلاص لفهم اللّسانيات هذا العلم المعقّد في نظر ومخيّلة القرّاء، وذلك بعبارات تدل على التّسهيل والتّبسيط والتّمكين والإيضاح والمساعدة والتّقريب والبعد عن الغموض، بل ويسعى بعضهم إلى إغرائه بأمور تمسّ الانتماء القومي والدّيني، كما فعل أحمد محمد قدّور، في قوله:" **يعينهم على كشف جوانب من تراثهم اللّغوي ويعمّق في نظرهم خصائص لغتهم لغة الحضارة والعلم وعروة الأمة الوثقى**"، وبعضهم يحسّس القارئ أنّه أمام قصّة أو قصيدة أو رواية أو نصّ أدبي من أجل تذوّق جماله الفنّي والأدبي، وهؤلاء فعلاً يعملون المستحيل لجلب القارئ العربي بشتّى الطّرق، لكنّ السؤال المطروح هل استطاع هؤلاء إقناع القارئ وقدّموا اللّسانيات على طبق من ذهب له مكّنته من فهمها واستيعابها؟! والسّؤال الأعمق هل هؤلاء كلّهم قد فهموا اللسانيات فهمًا حقيقيًّا، وبالتالي نشروا هذا العلم بشكل مناسب؟! والأكيد أنّ بعضهم على الأقل كان يكتب من أجل الموضة ومواكبة التّطوّر كما ذكر الوعر، ولأسباب تجاريّة أو من أجل الشّهرة والظّهور، ما ساهم في خلق مشكل يصعب حلّه بين العربي واللّسانيات، فغرّبوها وجعلوها تتميّز بالتّعقيد والصّعوبه من جهة، وخطر محدق باللّغة العربية وتراثها من جهة ثانية، وما يجب أن نؤكّد عليه هنا أنّها ليست عامّة، فهناك كتابات كانت في المستوى، ولا يمكن أن نعمّم حكم الاخفاق على كلّ ما كُتب في هذا السّياق.

ب- الوظيفة المرجعيّة الإحاليّة:إنّ إحالة المؤلّف على مصادره ومراجعه يكون بهدف كسب ثقة المتلقّي، واستدراجه إلى خبايا الكتاب، فمراجع الكتاب ومصادره تكسب الكتاب مصداقيّة أكبر عند القارئ، لأنّ أهميّة المؤلّف وقيمته تتحدّد على الأغلب بالمصادر الّتي اعتمدها منطلقًا في دراسته[2]، وبتتبّعنا لمصادر الكتابة التّمهيديّة نجد أنّها تعتمد على:

- **مرجعيّة غربيّة:**وفي هذا النّوع يتمّ التّركيز على مرجع أو مجموعة المصادر الغربيّة، ويرجع ذلك إلى طبيعة الكتاب والمواضيع الّتي يعالجها، فإن كانت هذه المواضيع متنوّعة كانت المصادر كذلك، وأمّا إذا كان الموضوع يصبّ في اتّجاه واحد فإنّ المصدر المعتمد يكون واحدًا وإن كانت لا تحضر بهذا الشّكل المعياري دائمًا.

- **مرجعيّة مزدوجة:**يجمع هذا النّوع مصادر غربيّة وعربيّة بين ما هو تراثي وما هو حديث، وذلك كما ذكر **أحمد محمّد قدّور** في كتابه قائلاً:«**أمّا مصادر هذا الكتاب فهي مجموعة من المصادر الأجنبية والمترجمة إلى العربيّة ومجموعة أخرى من مصادر عربيّة لغويّة متنوّعة منها ما هو ذو منحى لساني عام متأثّر بالدّرس الأجنبي، ومنها ما هو ذو منحى لغوي خاص بالعربيّة وعلومها، إضافة إلى جملة من الكتب القديمة والحديثة ممّا كان مجالاً لاستمداد الأفكار الجزئيّة أو الأمثلة والشّواهد المتعدّدة، وهناك أيضًا مجموعة من الدّوريات العربية الّتي حوت دراسات مهمّة أو كتبًا أجنبية موضوعة باللّغتين الإنجليزيّة والفرنسيّة**»[3].

ج- الوظيفة الإيديولوجيّة: هي أم الوظائف وهي الوظيفة الإستراتيجيّة كما يقول **حافظ إسماعيلي علوي** الّتي تصبّ فيها كلّ قنوات الوظائف الأخرى الّتي هي في الحقيقة خادمة لها، حيث ترتكز أهداف الكاتب ومقاصده العامّة فهو يسعى جاهدًا إلى جلب القارئ من خلال التّأثير فيه وحثّه على اقتحام فضاءات النّص، وكأنّه يشير من خلال كلّ ما يقوله إلى القارئ بالقول"**ألا يستحقّ ذلك محاولة القراءة والمناقشة**"[4]، ويغلب على مقدّمات الكتب اللّسانيّة التّمهيديّة كلّ أشكال الإشارة إلى مزاياها وتفرّدها موضوعًا ومنهجًا، وهي دعوة صريحة إلى الإقبال على قراءة الكتاب وتبنّي أفكاره[5].

---

[1] - اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص107.

[2] - المرجع نفسه، ص113.

[3] - مبادئ اللسانيات، ص11-12، وينظر:اللسانيات في الثقافة العربيّة المعاصرة، ص114.

[4] - ينظر: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص114.

[5] - المرجع السابق، ص115.

وعلى سبيل المثال نذكر ما قالته **خولة طالب الإبراهيمي** في مقدّمة كتابها المذكور:«...**ولكن وهذا هو فضل أستاذي عليّ –تقصد الحاج صالح- حرصت على الوقوف كلّما كان ذلك ممكنًا على وجهة نظر المدرسة الخليليّة الحديثة في الموضوع، تلك المدرسة الّتي تريد ربط الماضي بالحاضر، فتقترح دراسة تجديديّة لتراثنا اللّغوي العربي في ضوء النّظريّات والمبادئ العلميّة الحديثة، تلك هي عصارة تجربة ثريّة وشيّقة، أهديها لطلّاب العلم والمعرفة راجية من الله تعالى أن يوفّقني لبذل المزيد من الجهد في سبيل التّعريف باللّغة، تلك الظّاهرة العجيبة الّتي هي عنوان الإنسان وعلامته بها يمتاز عن باقي المخلوقات الحيّة»**[1]، واضح أسلوب الكاتبة لجلب القارئ، وذكرها للمدرسة الخليليّة الحديثة هو نوع من رسالة إشهار وطمأنة في الوقت نفسه (ربط القديم بالحديث)، ولا شكّ أنّ تذكير القارئ بالخليل يصبّ بشكل واضح في هذا الاتّجاه.

إنّ المعطيات السّابقة توحي بالإشكالات الّتي تواجه البحث اللّساني العربي، وهي إشكالات متعدّدة كما ذكرنا متعلّقة بالقرّاء وباللّسانيين واللّسانيات نفسها، والسّؤال المطروح بإلحاح هل ساهم اللّسانيّون الممهّدون للّسانيات في تخلّف البحث اللّساني العربي؟ وهل كانت هذه الكتابة وفيّة لتعاقداتها مع القرّاء أم ذلك مجرّد ذرّ للرّماد على العيون؟[2]

ولا شكّ أنّ أفق انتظار القارئ المبتدئ الّذي يتلقّى هذا النّوع من الكتابة سيخيب ظنّه، وتخييب أفق انتظار القارئ لا يؤدّي وظيفة جماليّة كما تنصّ على ذلك نظريّة التّلقّي، بل يؤدّي وظيفة إبعاديّة، فإذا كان هذا حال الكتابة اللّسانيّة التّمهيديّة، فالأكيد أنّ الكتابة المتخصّصة في نظر هذا القارئ ستكون أدهى وأمر، وهذا يدعو إلى الابتعاد والنّفور والتّقزّز من اللّسانيات، وقطع كل خيوط التّواصل، فتكون الكتب اللّسانيّة التّمهيديّة وسيلة للتّنفير والتّرهيب، فتنزاح عن وظيفتها الأساس الّتي تدعو إلى التّحفيز والتّرغيب[3].

وبهذه الطّريقة-**يقول حافظ إسماعيلي علوي**-تقدّم اللّسانيات العربيّة التّمهيديّة اللّسانيات إلى القارئ العربي معتمدة على الوظيفة الانفعاليّة التّأثيريّة الإغرائيّة بغية التّأثير على المتلقّي وإقناعه بتوجّهاتها، وأنّها البديل الّذي يبحث عنه فطغى هذا الجانب (التّجاري) على الجوانب الأخرى، وتحوّل في أحيان كثيرة إلى هاجس، جعل أغلب تلك الكتابات لا تلتزم بتعهّداتها مع قرّائها، فتصدع في عناوينها ومقدّماتها بشيءٍ لا أثر له في صلبها وأحشائها، وهذا الّذي يفسّر إشكالات البحث اللّساني العربي الحديث[4].

ثانيا: اللسانيات المتخصصة

تشكل الغاية التعليمية الهدف الذي تروم تحقيقه اللسانيات التمهيدية[5]، بينما يطلق علي البحوث التي دخلت في صلب اللسانيات تحليلا وتطبيقا على اللغة العربية وإثراء للنظريات الأم اسم اللسانيات العربية المتخصصة، وذلك من منطلق أن ما اقترحته اللسانيات من مفاهيم وتحليلات وأفكار لا مانع من تطبيقها على اللغة العربية، يقول مصطفى غلفان:«**فإذا أخذنا ما تمّ اقتراحه من مفاهيم في اللسانيات البنيوية واللسانيات التوليدية مثل: التقطيع والتوزيع والاستبدال والتعاقب والتحليل إلى المكونات المباشرة والبنية العميقة والبنية السطحية والتحويلات وما إلى ذلك من مفاهيم جوهرية في اللسانيات الحديثة، فإننا لا نرى ما يمنع من تطبيقها على اللسان العربي أو أي لسان آخر خارج نطاق الألسن الأوروبية المعروفة مثل: الأنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية**»[6].

إن أهم المحاولات الهادفة إلى التطبيق الحقيقي على اللغة العربية بدأت في الظهور مطلع السبعينات من القرن الماضي(العشرين) ورغم قلّتها إلا أنها لقيت اهتماما وإقبالا من المشتغلين باللغة العربية وأصبحت مرجعا أساسيا لكثير

---

[1] - مبادئ في اللسانيات، ص5-6.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص115-116.

[3] - اللسانيات في الثقافة العربيّة المعاصرة، ص127.

[4] - ينظر: اللسانيات في الثقافة العربيّة المعاصرة، ص127-128.

[5] - اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص99.

[6] - اللسانيات العربية أسئلة المنهج، ص29.

من الدراسات داخل الجامعات العربية نتيجة استفادة الثقافة الأدبية العربية من المناهج اللسانية والدرجة العلمية التي حضيت بها اللسانيات عربيا وعالميا، حيث أصبح البحث عن وصف جديد لبنية اللغة العربية هاجسا لكثير من الباحثين والدارسين، ولم يخل مؤلف لغوي عربي حديث من الدعوة إلى الاستفادة من الطفرة التي أحدثتها اللسانيات[1].غير أن المساهمات اللسانية العربية التي قدّمت تجديدا حقيقيا في هذا الباب نادرة جدا وتعد على أصابع اليد الواحدة، لم تحقق ما وصلت إليه اللسانيات بالنسبة للعديد من الألسن العالمية كالأنجليزية أو الفرنسية أو الإسبانية أو الألمانية[2].

لقد أدرك عدد قليل جدا من اللسانيين العرب ألاّ تعارض بين البعدين العام والخاص في البحث اللساني، فجاءت أبحاثهم بمثاة محاولات إيجابية في تنمية البحث اللساني العربي وتطويره وتعكس مجموعة من أبحاث اللسانيين الرواد هذا الموقف المنهجي الفكري أمثال: **إبراهيم أنيس وتمام حسان وعبد الرحمان أيوب وكمال بشر**[3]، ولقد أدرك الجيل الجديد من اللسانيين العرب الأبعاد النظرية الهامة لدراسة اللغة العربية من منظور اللسانيات المعاصرة من بنيوية وتوليدية وتحويلية ووظيفية فجاءت أعمالهم أكثر مردودية من الناحية النظرية والمنهجية سواء بالنسبة إلى الدرس اللساني العام أو الدرس اللساني الخاص متجاوزة بذلك حدود الثقافة المحلية ومساهمة في تنمية البعدين العام والخاص معا وتطويرهما، نذكر في هذا الباب أعمال الباحثين **عبد القادر الفاسي الفهري** في إطار النحو التوليدي وأعمال **أحمد المتوكل** في إطار النحو الوظيفي، وهي أعمال عربية- يقول مصطفى غلفان- استطاعت أن تزاوج بكثير من النجاح بين البعدين العام والخاص[4].

إن المتتبّع لما قدّمه **أحمد المتوكّل** طيلة مسيرته الحافلة بالإنجازات يدرك أنّ غايته لم تكن فقط دراسة اللغّة العربيّة دراسة وظيفيّة تداوليّة من خلال تطبيق مبادئ وقواعد هذه النّظريّة على اللغة العربيّة، بل كان همّه وجهده الأساس منصبًّا على تطوير وإغناء وتطعيم نظريّة النّحو الوظيفي بأفكار ومعطيات استلهما المتوكّل من دراسته المستفيضة للتّراث اللّغوي العربي المصبوغ بصبغة وظيفيّة كما يؤكّد المتوكّل، وكان مؤمنًا أشدّ الإيمان أنّه يمكن تطوير نماذج النّحو الوظيفي وإغناء نماذجه بالاعتماد على استثمار أفكار اللّغويين العرب وتطويرها، بما يتناسب وآليات التّحليل المنتهجة في التّحليل الوظيفي، وأنّ علاقة الدّرس الوظيفي الحديث بالفكر اللّغوي العربي علاقة امتداد لأصل تتيح استحياء واستثمار ما يمكن استحياؤه واستثماره منه، **فكان المتوكّل مُمِدًّا للجسور لوصل البحث اللّساني الوظيفي بالتّنظير الدّلالي العربي منظورًا إليه ككلّ متكامل، نحوًا، وبلاغةً، وفقه لغة، وأصول فقه وتفسيرًا**.

وعلى العموم يمكن تقسيم الكتابة اللسانية العربية المتخصصة إلى ثلاثة اتجاهات أساسية[5] سنذكرها باختصار نظرا لكونها ستكون تفصيلا في المحاضرات القادمة:

1-الاتجاه البنيوي الوصفي: يعدّ المنهج البنيوي من المناهج الّتي تجسّد الاتّجاه الشّكلي، فهو يُعنى بدراسة المنجز في صورته الآنيّة بغض النظر عن السّياق الّذي أُنتج فيه أو علاقته بالمرسل وقصده وإنتاحه، ويتمّ ذلك بتحليل لغة بعينها مثل اللّغة العربيّة بوصفها كيانًا مستقلًّا ذات بنية تركيبيّة وإيجاد العلاقة بين هذه المستويات، بدءًا من تحليل الأصوات والصّرف والتّركيب إلى تحليل جزئيًّ لمستوى الدّلالة، واكتفى هذا النّوع من الدّراسات بدراسة الجملة على المستوى التّركيبي، ثمّ تجاوزتها في الآونة الأخيرة إلى مستويات أعلى، فبرزت بعض المفاهيم مثل تحليل النّص والخطاب ونحو النّص، والنّص هو ذلك النّسيج اللّغوي المنغلق على ذاته، واهتمّ هذا المنهج بمحاولة إدراك تنظيمه وعلاقة مستويات اللّغة بعضها ببعض، مثل التّراكيب في بناها الكبرى، وما يتفرّع عنها من بنى صغرى، وتحليل الرّوابط

---

[1] - ينظر: اللسانيات العربية الحديثة، ص172.

[2] - اللسانيات العربية أسئلة المنهج، ص13.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص33

[4] - المرجع نفسه، ص33-34.

[5] - ينظر: اللسانيات العربية الحديثة، ص172.

وتصنيفها بين هذه البنى أو تلك الجمل[1]. ومن أهم اللسانيين العرب الذين برزوا بشكل واضح في هذا الاتجاه وطبقوا مبادئ اللسانيات البنيوية الوصفية نذكر: **إبراهيم أنيس، عبد الرحمان أيوب، تمام حسان، كمال بشر**...

2- الاتجاه التّوليدي التحويلي: اهتم هذا الاتّجاه بتكوين الكفاءة اللّغوية ونموّها عند الطّفل من هنا كانت العناية بتفسيرها والأنساق الّتي يعمل فيها، لذا فالنّحو التّوليدي لتشومسكي رغم أنّه يعتبر مرحلة متطوّرة قياسًا بما سبقه، فإنّه ينحو إلى التّجريد واصطناع الجمل في بعض الحالات، كعبارته المشهورة"**تنام الأفكار الخضراء عديمة اللّون باختناق**"، ورغم أنّ هذه الجملة صحيحة نحويًّا، إلّا أنّها لا تدلّ على معنى مفهوم، غير أنّ الملاحظ كما هو معلوم تطوّر أفكار تشومسكي، فبرز مفهوم النّحو التّوليدي الّذي يرى أنّ اللّغة هي عبارة عن مجموعة من الجمل العميقة، وذلك ليفسّر محدوديّة الأصل ولا نهائية المنجز[2]. ومن أبرز اللسانيين العرب الذين نشطوا في إطار تطبيق مبادئ النحو التوليدي التحويلي على اللغة العربية نذكر: **داوود عبده، ميشال زكريا، محمد علي الخولي، مازن الوعر**، ومحمد بلبول ونعيمة توكالي وعبد المجيد جحفة وإدريس السغروشني ومحمد غاليم...**لكن أبرزهم على الإطلاق عبد القادر الفاسي الفهري** الذي ساهم في إثراء أفكار هذا الاتجاه متجاوزا التطبيق.

لقد اتجّه الشّقّ الشّكلي بصنفيه البنيوي والتّوليدي في دراسة اللّغة على أنّها عبارة عن ظاهرة أو نظام يمكن وصفه وتحليله بمعزل عن دورة التّوالي، ورغم ما قدّم هذا الاتّجاه من أفكار أغنت الدّرس اللّساني، إلا أنّه أثبت قصوره في دراسة الظّاهرة اللّغوية الّتي على أساسها يتم إقامة تواصل نشيط وعميق لا يمكن تحليله بمعزل عن سياقه الوظيفي التّواصلي الفعلي أو ما يسمى التّفاعل الاجتماعي عبر اللّغة.

3- الاتّجاه الوظيفي التداولي: ينظر هذا الاتّجاه إلى اللّغة باعتبارها بنية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بوظيفتها التّواصلية فلابدّ من البحث عن الخصائص الّتي تخوّل للّغة إنجاز وظائف معيّنة[3]، والمقاربة الوظيفيّة للّغات الطّبيعية أهمّ ما ترتكز عليه مبدأ ربط المقال بالمقام أي ربط الخطاب بظروف إنتاجه، فهي مقاربة إنجازيّة ترتكز على المنجز اللّغوي[4]. إنّ هذا الاتّجاه يشدّد على وظيفة الأشكال اللّغوية، ويكون ذلك انطلاقا من تبعيّة البنية للوظيفة[5]، علمًا أنّ الاتّجاه التّواصلي الوظيفي يتمثّل في مناهج كثيرة، منها الدّراسات التّداوليّة والنّحو الوظيفي واللّسانيات الاجتماعية، وتحليل الخطاب في المراحل المتأخّرة من خلال ربطه بسياق إنتاجه، إذ انفتح في تحليله على كثير من العلوم، كعلم الاجتماع وعلم النّفس وغيرهما[6].

إنّ الاتّجاه الوظيفي يهتمّ برصد خصائص بنية اللّغة الطّبيعية وربطها بوظيفتها في التّواصل، والتّوصل إلى أنّ قدرة طرفي الخطاب التّواصلية تكمن في معرفة القواعد العامّة الّتي تمكّنهما من تحقيق أهداف التّواصل وتأويل الخطاب ومنها القواعد اللّغوية في مستوياتها التّركيبية والدّلاليّة والصّرفيّة والصّوتيّة، وتتميّز الدّراسات اللّغوية الّتي تتّخذ التّواصل إطارًا عامًّا لها بأنّها دراسات لسانيّة مرنة، فهي تصف وتفسّر استعمالات المرسل المتنوّعة، بل وعدوله عن بعض المعايير الّثابتة في مستويات اللّغة ليجعل خطابه مناسبًا للسّياق الّذي يتلفّظ فيه[7]، وبهذا يتجلّى الفرق بين الاتّجاهيين العامّين، وذلك بأنّ الاتّجاه الشّكلي البنيوي بشقّيه (البنيوي والتّوليدي) لا يعتدّ بما هو خارج نظام اللّغة ولا يعترف بتأثيره في بنيتها الدّاخلية، في حين يركّز الاتّجاه الثّاني(التّواصلي الوظيفي) على سياق إنتاج اللّغة وأثره في بنية الخطاب بين المتواصلين. وعلى العموم يعتبر **أحمد المتوكل** رائد هذا الاتجاه دون منازع دون التقليل من جهود أخرى أغلبها مغربية **لطه عبد الرحمان، وعز الدين البوشيخي، محمد مفتاح ونعيمة الزهري...**

---

[1] - استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص7-8.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص8-9.

[3] - ينظر: الوظائف التداولية واستراتيجيات التواصل اللغوية في نظرية النحو الوظيفي، يوسف تغزاوي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط1 ،2014م، ص92.

[4] - ينظر: المنهج الوظيفي في البحث اللساني، أحمد المتوكل، منشورات الاختلاف، دار الأمان، الرباط، ط1، 2016م، ص27.

[5] - ينظر: التفكير الدلالي في الدرس اللساني العربي الحديث، ص255.

[6] - استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص 9- 10.

[7] - ينظر: المرجع نفسه، ص11.

المحاضرة التاسعة:(البحوث اللسانية العربية الحديثة)

تمهيـــــد:

معلوم أن مسألة التّصنيف في البحث اللّساني العربي الحديث أمر صعب إن لم يكن مستحيلاً*، وهذا ليس أمرًا غريبًا في نظري، فنحن لا نصنّف كتابًا واحدًا أو مقالاً أو بحثًا واحدًا لدارس ما، بل نحن نتعامل مع منجز عمل سنوات عديدة قد تصل إلى العشرات للباحث نفسه ، ونحن نعلم أنّ التّشبّث بوجهة النّظر الواحدة أو الموقف الواحد في المجال العلمي قد تكون ناتجة عن عناد وتعصّب ونوع من الدّكتاتوريّة في الموقف العلمي، والطّبيعي أن تَحدث مثل تلك المراجعات والتبدّلات إذا حدث ما يستوجبها، وظهر للعيان فساد الموقف أو الرأي، ويكاد يجمع الدّارسون أنّ الاتّجاهات الّتي سلكتها البحوث اللّسانية العربيّة بناءً على الرّافدين الدّاعمين(التّراث اللّغوي العربي واللّسانيات الحديثة) لا تخرج من الاتجاهات التالية:

أولا- الاتجاه البنيوي الوصفي العربي:

1-التعريف بهذا الاتجاه:

الوصفية منحى في الدراسات اللسانية الحديثة يقوم بدراسة اللغة ووصفها مستبعدا التعليل والتقدير في تحليل الظاهرة اللغوية[1]، وقد عرف الاتجاه الوصفي طريقه إلى الثقافة العربية بعدما شرع العديد من أفراد البعثات الطلابية إلى الجامعات الأوروبية في العودة إلى أوطانهم، وقد كان من بين العائدين من تخصصوا في اللسانيات أو أحد فروعها ومن تتلمذوا خصوصا على يد فيرث Firth في مدرسة لندن، فبعد عودة هؤلاء تصدوا للتدريس والبحث اللغوي في الجامعات المصرية التي كانت بذلك منطلقا لبلورة الاتجاه الوصفي في الثقافة العربية بعدما كانت مهد المنهج التاريخي-المقارن من قبل، وبذلك استمرت بحمل لواء التجديد اللغوي في الثقافة العربية.[2] ويعد كتاب "**علم اللغة" لعلي عبد الواحد وافي** سنة1941م أول محاولة تأليف في مجال الدراسات اللغوية الحديثة تنم عن تأثر واضح ببعض قواعد المنهج الوصفي والتمييز بينه وبين المنهج المقارن واعتماده المستويين الصوتي والدلالي لكنه رغم ذلك لم يهتد إلى الفروق الدقيقة بين المنهجين[3].

إن البداية الحقيقية لهذا الاتجاه في الثقافة العربية تبلورت على يد **إبراهيم أنيس** الذي بعودته ساد هذا الاتجاه وترسخ بفضل جهود أعقبته على يد تلاميذه وبعض العائدين الجدد من المدرسة نفسها، وكان من أبرز هؤلاء: **عبد الرحمان أيوب، تمام حسان، كمال بشر، محمود السعران**...وقد ظهر هذا الاتجاه على شكل ثلاثة تيارات واضحة صاحبت تقديم هذه النظرية وهي[4]:

-الوصفية ونقد التراث العربي.

- التحليل البنيوي للغة.

- تطبيق النظرية الحديثة على اللغة العربية.

وإذا كان من المعروف أن اللسانيات الوصفية أو البنيوية اتجاهات ومدارس متعدد تتفق في أمور وتختلف في أخرى ، إلّا أنّ اللسانيين العرب لا يهتمون بمسألة التحديد المضبوط للإطار النظري الذي يوظفونه في تعاملهم مع قضايا اللغة العربية ويشتغلون في إطاره، يقول **مصطفى غلفان:"إن الكتابات اللسانية العربية الوصفية لا تحدد**

---

* - لقد استخدم مصطفى غلفان هذا الموضوع (اللسانيات العربية أو الخطاب اللساني العربي وصعوبة التّصنيف) كعنوان في كتبه النّقدية، ويرجع الباحث ذلك لجملة من الأسباب من بينها: غياب جرد كامل للجهد اللساني العربي الحديث، وعدم البقاء على خط نظري لكثير من الباحثين، فيحدث كثير من التّقلبات والتناقضات في المواقف...، للاطّلاع عن المسألة ينظر: اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، ص85-90 وينظر: اللسانيات العربية أسئلة المنهج، ، ص55-57.

[1] - دراسات في اللسانيات العربية، ص64.

[2] - اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص42.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص43.

[4] - المرجع نفسه، ص44.

بكيفية واضحة الإطار النظري الذي تندرج فيه، ولعل أبرز مثال على ما نقول عمل تمام حسان"العربية معناها ومبناها" الذي يمكن اعتباره من عدة أوجه عملا لسانيا رائدا، إن هذا اللساني لا يذكر المصادر والأسس النظرية والمنهجية الثاوية وراء مقاربته للغة العربية"[1].

وما قيل عن تمام حسان ينطبق على عبد الرحمان أيوب مثلا فهما جمعا بين التحليل التوزيعي الشكلي وبين تصورات فيرث الوظيفية وهو يرفض النظرة البنيوية القائمة على تجزئة اللغة إلى مستويات فهي متداخلة بالنسبة له فلا قيمة للمستوى دون اعتبار المستوى الذي يعلوه، ولهذا السبب يصعب تصنيف كتاب تمام حسان " اللغة العربية معناها ومبناها" فهو جمع بين المنهجين الوصفي البنيوي والوظيفي.

2-موقف الاتجاه البنيوي الوصفي العربي من التراث النحو العربي:

لقد تأثر اللسانيون الوصفيون العرب باللسانيات الغربية الحديثة تأثرا بالغا، فثار بعضهم على النحو العربي ثورة غير مبررة وغير موضوعية فدعوا إلى تركه، وقد قسم الباحث **عز الدين المجدوب** الوصفيين العرب من خلال تأثرهم باللسانيات الوصفية إلى قسمين: قسم تأثر تأثرا خفيا باللسانيات أمثال **إبراهيم مصطفى وتلميذه مهدي المخزومي** اللذين بقيا في إطار التراث نقدا وإحياء وتجديدا، ألف إبراهيم مصطفى كتابه الموسوم، بـ(إحياء النحو)،الّذي ظهر سنة 1937 م دعا فيه إلى إلغاء نظريّة العامل، كما ذهب ابن مضاء، حيث يرى بعض الباحثين أنّ الأستاذ إبراهيم مصطفى قد اطّلع على كتاب ابن مضّاء (الرد على النحاة)، و تأثّر به تأثّرا شديدا، جعل من كتابه الجديد إحياء النحو إخراجا جديدا لذلك الكتاب بأسلوب جذّاب، وحاول تطبيقه تطبيقا علميّا[2].كما تأثّر إبراهيم مصطفى بما ذهب إليه ابن جني والرضي في أن العامل هو المتكلم، وكما تأثر برأي ابن مضاء برفض العلل[3].فقال معلّقا على منهج النحاة في فكرة العامل : « **رأوا أنّ الإعراب بالحركات، و غيرها عوارض للكلام تتبدّل بتبدّل التّركيب على نظام فيه شيء من الاضطراد ، فقالوا عرض حادث لا بد له من محدث ، و أثر لابد له من مؤثّر ، و لم يقبلوا أن يكون المتكلم محدثا هذا الأثر، لأنّه ليس حرّا فيه يحدثه متى شاء، وطلبوا لهذا الأثر عاملا مقتضيا، وعلّة موجبة ، و بحثوا عنها في الكلام، فعدّدوا هذه العوامل، ورسموا قوانينها**» [4].و في رأي هذا الباحث أن البحث يجب أن يكون في المعنى الّذي تشير إليه كلّ حركة لا أن يكون في عاملها ، ذاهبا إلى أنّ الضّمّة علم الإسناد و دليل أنّ الكلمة المرفوعة يراد أن يسند إليها، و يتحدّث عنها، أمّا الكسرة علم الإضافة، وإشارة إلى ارتباط الكلمة بما قبلها، وأن الفتحة ليست علامة إعراب ولا تدلّ على شيء من المعاني، بل هي الحركة الخفيفة المستحبّة الّتي يراد أن تنتهي بها الكلمة، كلّما أمكن ذلك[5] ، حيث يقول : « **ونحن نبحث عن معاني هذه العلامات الإعرابية، وعن أثرها في تصوير المعنى ولم يكن لنا أن نسال عن كلّ حركة ما عاملها، ولكن ماذا تشير إليه من معنى** » [6] .

و قد سلك **مهدي المخزومي** تلميذ **إبراهيم مصطفى** هذا الطريق، فتبنّى مذهبه، حيث يقول :« **والقول بأن الضّمّة علم الإسناد لا يشير بحال إلى العوامل ، و لا يزعم وجودها، و الواقع أنّ الضّمّة ليست أثرا لعامل لفظيّ ولا معنويّ ، و إنّما هي مظهر من مظاهر العربية في توظيف الوظائف اللّغوية أو القيم النحويّة** »[7].

أما ممن تأثروا باللسانيات بشكل جلي وواضح من خلال الانخراط في التأليف اللساني إبراهيم أنيس وتمام حسان وأنيس فريحة، حيث دعا **إبراهيم أنيس** إلى ترك الإعراب فيقول:« **ومع أن الإعراب ليس في الحقيقة إلا ناحية**

---

[1] - اللسانيات العربية الحديثة، ص178.

[2] - ينظر: ابن مضاء وموقفه من أصول النحو، ص170.

[3] - مدخل إلى أصول النحو العربي، ص84.

[4] - إحياء النحو، إبراهيم مصطفى، ص31.

[5] - ينظر: مكانة الخليل بن أحمد الفراهيدي في النحو العربي، ص137.

[6] - إحياء النحو، ص41-42(بتصرف).

[7] - في النحو العربي نقد وتوجيه، مهدي المخزومي، ص67.

متواضعة من نواحي اللغة، فقد ملك على الناس شعورهم، وعدّوه مظهر ثقافتهم ومهاراتهم الكلامية»[1]، وهو يرى بأن النحاة قد فرضوا الإعراب على الناس فرضا، وجعل لهم نفوذا على الخطباء والشعراء، والفصحاء، فيقول: « **وقد نما نفوذ النحاة على مرور الأيام وأصبح الكتاب والشعراء يعرضون عليهم بضاعتهم، فما أجازوه منها تقبله الناس قبولا حسنا، وأصبح النحو يشرع لهم ويقنن**».[2] ولقد حمل تصور الظاهرة الإعرابية بالكيفية التي ذكرناها انعكاسه على العلامة الإعرابية التي عدّوها قرينة من قرائن كثيرة تحدد النوع النحوي، حيث يقول إبراهيم أنيس:«**لم تكن تلك الحركات الإعرابية تحدد المعاني في أذهان العرب القدماء - كما يزعم النحاة – بل لا تعدو أن تكون حركات يحتاج إليها في الكثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها ببعض**»[3] فهو يرى أن وظيفة الحركة الإعرابية هي وصل الكلمات فقط، وليس لها أي مدلول، إذ ليس ثمة تلازم بين العلامة الإعرابية وتغير المعاني[4].

ودعا **أنيس فريحة** في كتابه "**نحو عربية ميسرة**"، والذي طُبع سنة 1955م إلى ترك الإعراب حيث يرى أنه عقبة في سبيل التفكير، وقد تطرّف أنيس فريحه في رفضه لنظريّة العامل كثيرا ، فرفض العربية الفصحى، حيث يرى بأنّه عند سقوط الإعراب والعامل الموجد له تتطور اللغة، وترتقي بنا الحياة، ويسمو بنا الفكر[5]، يقول مشيدا باللّغة الأنجليزية[6] : « **وها هي الأنجليزيّة الّتي لم يبق فيها من أثر كبير للإعراب، تعبّر عن الفكر والعلم والفنّ بيسر**»، فقد ثار أنيس فريحة على الإعراب وأنكره، و دعا إلى إسكان أواخر الكلمات وعدم تحريكها بأيّ عامل من العوامل، هذه الأخيرة الّتي جعلها سبيلا للتّخلّف حيث يرى بأنّه إذا أقرّت العوامل أرسيت بذلك سبل البداوة و التّخلف [7].

كما رفض **تمام حسّان** العامل جملة وتفصيلا سواء كان العامل لفظيا أو معنويا، أو كان العامل متكلّما، أو هو الله عز و جل[8]، حيث يقول في رفضه لفكرة العامل : « **إنّ فكرة العامل مرفوضة لرفض كون الألفاظ تعمل في ألفاظ أخرى، لأن المعربات جاء إعرابها للتعبير عن موقعها من السياق ، و قد ارتضى النّحاة مثلا أن يكون المبتدأ مرفوعا بالابتداء، فلماذا لا يرفع الفاعل بالفاعلية، وينصب المفعول بالمفعولية... إلخ**؟[9].

وقد أعطى **تمام حسّان** بديلا لنظريّة العامل النّحويّ - الّذي يرى أن فكرته خرافة – تمثّل في نظريّة القرائن الّتي تتمثّل في فهم التّعلّق على وجهه الكافي[10].حيث يقول : « **و في رأيي، كما كان في رأي عبد القاهر على أقوى احتمال، أنّ التّعليق هو الفكرة المركزيّة في النّحو العربي، وأنّ فهم التّعليق على وجه كاف وحده للقضاء على خرافة العمل النحوي، والعوامل النّحويّة لأنّ التّعليق يحدّد بواسطة القرائن معاني الأبواب في السياق ، و يفسّر العلاقات بينها على صورة أوفى، وأفضل وأكثر نفعا لهذه المعاني الوظيفية النحوية** »[11].

وقد ظهر موقف تمام حسّان على صورته النهائيّة في كتابه الموسوم بـ:"**اللغة العربية معناها ومبناها**" والّذي تناول فيه نظريّة العامل النّحويّ وأعطى لها البديل الأنسب في رأيه متمثلا في نظرية القرائن، وكان تمام حسان كثيرا ما يفند رأيا للقدامى في طيّات كتابه، و يعطي بديله، انطلاقا من نظريّته تلك . وسنتطرق لنظرية القرائن في محاضرة" اللسانيات التركيبية".

---

[1]- من أسرار اللغة ، إبراهيم أنيس ، مكتبة الآنجلو المصرية، القاهرة، ط3، 1966م، ص183

[2]- المرجع نفسه، ص194.

[3]- المرجع نفسه، ص225.

[4]- ينظر: دراسات نقدية في النحو العربي، عبد الرحمن أيوب، مكتبة الآنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1971م، ص33.

[5]- ينظر: نظرية تشومسكي في العامل والأثر، شفيقة العلوي، ص32.

[6]- نحو عربية ميسرة، أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، دط، 1955م، ص127، نقلاعن: نظرية تشومسكي في العامل والأثر، شفيقة العلوي، ص32.

[7]- نظرية تشومسكي في العامل والأثر، شفيقة العلوي، ص32.

[8]- ينظر: اللغة العربية بين الوصفية والمعيارية، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 2000م، ص55-58.

[9]- الخلاصة النحوية، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 2004، ص52.

[10]- ينظر: النحو العربي أصوله وأسسه وقضاياه وكتبه، ص119 .

[11]- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان،ص189.

ومن هذا المنطلق فقد حاول بعض اللسانيين العرب الوصفيين إعادة النظر في بنية الدراسات الغوية، اعتمادا على النظريات اللسانيات الغربية البنيوية منها على وجه التحديد، بحيث تبنى هؤلاء في إعادة وصفهم للغة العربية الفصحى ما اقترحته اللسانيات البنيوية من تقسيم للغة على مستوياتها الأربعة الصوتي والصرفي والتركيبي والدلالي أو المعجمي[1].

3-نماذج عن الجهود العربية في إطار الاتجاه البنيوي الوصفي:

من أهم مآخذ الوصفيين على النحو العربي أنه متأثر بالمنطق الأرسطي ذلك أن منطق أرسطو يهتم **بالصورة** أكثر من **المادة**، بينما منهجهم الجديد في دراسة اللغة ينبغي أن يهتم **بالمادة** أكثر من **الصورة**، ما أبعد النحو العربي عن طبيعة اللغة[2]، بينما النحو المنشود ينبغي أن يكون صوريا شكليا، وقد تبلورت هذه الفكرة عند الوصفيين العرب المحدثين في دراسة اللغة العربية وفقا لهذا المنهج على مسارين[3]:

الأول: يعرض لمدرسة التحليل الشكلي: لقد استفاد من هذا الاتجاه بعض اللسانيين العرب على غرار **عبد الرحمان أيوب ومحمد الشاوش**، وتجلى ذلك عند **عبد الرحمان أيوب** في كتابه"**دراسات نقدية في النحو العربي**" الذي حاول الاستفادة من معالم المدرسة الشكلية الأمريكية من خلال استبعاد التعليل الفلسفي والمنطقي، واعتماد الشكل والوظيفة أساسا في تصنيف الوحدات اللغوية واستبعاد المعنى من التحليل اللغوي، ويتجلى ذلك مثلا في تعريف الكلام والكلمة، فالكلام مثلا عنده"**ما دلّ على أكثر من معنى مفرد وأفاد فائدة تامة**"، هذا تعريف قريب من تعريف علماء اللغة المحدثين، كما عاب على النحاة أنهم لم يفرقوا في النموذج التركيبي بين" **الاسم المسند إليه+ المسند**" الذي يقاس عليه عدد لا حصر له من الجمل، وبين" **الحدث اللغوي**" كقولنا محمد قائم ونحوه، وفي رأيه أن النحاة أخلطوا بين المثال والواقع![4].

أما **محمد الشاوش** فقد اتجه إلى اعتماد مفهوم **المكونات المباشرة** والتدرج في مستويات التركيب في بحث بعنوان:"**ملاحظات بشأن دراسة تركيب الجملة في اللغة العربية**" ليتجنب نقائص النحاة القدامى في التحليل، ولشعوره بفقر المصطلحات المتصلة بالجملة وتداخلها في الدرس النحوي العربي يرى أن المكونات الجملة محصورة في[5]:

-لفظ واحد.

- تركيب جزئي: يقوم على التبعية وانعدام الإسناد.
- شبه جملة: يقوم على التبعية ووجود الإسناد.
- جملة: تقوم على الاستقلال ووجود الإسناد.

كما قسّم **الشاوش** الجملة إلى بسيطة وهي التي تخلو من أشباه الجمل، ومركبة وهي التي تتضمّن شبه جملة أو أكثر، كما قسم الجملة إلى اسمية وفعلية، أما شبه الجملة فتكون اسمية وفعلية وموصولة، علما أن الشاوش يعرّف الجملة تعريفا قريبا من تعريف معجم المعهد الأمريكي، وهي:" **ملفوظ أو تركيب جاء مستقلا عمّا قبله وعمّا بعده استقلالا صناعيا تركيبيا**"[6]. أما تحليل الجملة وفق مبدأ المكونات المباشرة الذي يتبناه الشاوش فيقسمها إلى قسمين[7]:

الأوّل: وهي مكونات وظائفها قائمة على منطلق منطقي ومعنوي، وتنقسم بدورها إلى قسمين:

- **مكونات ضرورية**:وهي الفعل والفاعل ونائبه، والمبتدأ وخبره واسم الناسخ، وسماها العناصر الأصلية.

---

[1]- ينظر: نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، فاطمة الهاشمي بكوش، ص100-101.

[2]- ينظر: النحو العربي والدرس الجديد، ص61.

[3]- دراسات في اللسانيات العربية، ص64.

[4]- ينظر: المرجع نفسه، ص66.

[5]- ينظر: المرجع نفسه، ص68.

[6]- ينظر: المرجع نفسه، ص69.

[7]- ينظر: المرجع نفسه، ص69-71.

- **مكونات غير ضرورية**: وهي مكونات تتحد وظيفتها بالنواة الإسنادية، لا بعلاقتها بالمسند أو المسند إليه، وتضم: المفعولات والحال والتمييز والتوكيد وأطلق على هذه المكونات اسم **متممات الإسناد أو توسعاته**.

الثاني: وهي عناصر ليست من مكونات الإسناد ولا من توسعاته المباشرة، وإنما هي مكونات لتلك المكونات، وتشمل المنعوت والنعت، المضاف والمضاف إليه، الجار والمجرور، المؤكّد والتوكيد، المبدل منه والبدل، المعطوف عليه والعطف، المستثنى منه والمستثنى، المميز والتمييز، صاحب الحال والحال، المظروف والظرف، وقد أطلق عليها اسم توسعات الدرجة الثانية، علما أن استخدامه لمصطلحات "**التوسعة**" و"**التتمّة**" و"**الفضلة**" تأثرا بالفرنسي **أندري مارتيني**، الذي يعرف الفضلة:"**كل عنصر أضيف إلى قول دون أن يغيّر شيئا في العلاقات المتبادلة بين عناصره الأصلية أو في وظائفها**".

والثاني: يزاوج بين مقولات الوصفيين وأفكار فيرث السياقية، ويمثله بشكل خاص **تمام حسان** في كتابه " **اللغة العربية معناها ومبناها**"، لقد جعل تمام حسان المعنى أساس بحثه، الذي يجب أن يكون هو هدف البحث اللغوي وغايته، وذلك من خلال البحث في كيفية ارتباطه بأشكل التعبير المختلفة، تأثرا بسياق الحال عند **أستاذه فيرث** وأطلق عليه **المقام** والسياق اللغوي أطلق عليه **المقال**، **وقد أخذ الباحث بفكرة المستوياتLeveels أو النظام System** التي تبناها الاتجاه الوصفي البنيوي في دراسة اللغة، وهي " **الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي**" محاولا تفسير العلاقات بين تلك المستويات من خلا ل ثنائية " **المبنى والمعنى**"[1]، وعلى الرغم من تصريح الباحث نفسه بأنه يعتمد المنهج الوصفي البعيد عن التعليل والتقدير، لكنه فعليا لم يكن وصفيا خالصا بل كان هجينا بين الوصفي الوظيفي كما سبق التذكير.

كما انشغل الوصفيون العرب بإعادة وصف مستويات اللغة العربية ومن ذلك مسألة "**أقسام الكلام**"، فقد أدلى كثير من اللسانيين الوصفيين العرب بدلوهم في هذا الشأن، فأتوا بتقسيمات جديدة، منطلقتين من مبدأ عدم دقة التقسيم الثلاثي الذي اتفق عليه جميع النحاة العرب القدامى، فالدكتور **مهدي المخزومي** مثلا قسم الكلم إلى أربعة أقسام هي:[2]

- **الاسم**: وهو ما يدل على معنى في نفسه غير مقترن بزمن، وذكر له خصائص منها:

البناء، الإعراب، التذكير، التأنيث.

- **الفعل:** وهو ما يدل على معنى في نفسه مقترن بزمن، وهو ثلاثة أقسام:

1- ما كان على وزن(فَعَلَ) .

2- ما كان على وزن(يَفْعَلُ).

3- ما كان على وزن (فاعل)، وهو اسم الفاعل عند البصريين، وفعل دائم عند الكوفيين، ومهدي المخزومي يرى أنه فعل يدل في الغالب على استمرار وقوع الحدث.

- **الأداة**: تدل على معان إذا اقترنت بالجملة، ويضم هذا القسم الاستفهام والنفي والتوكيد، وأدواتها، وأدوات الاستثناء، وأدوات الوصل (ما أن، أن) .

- **الكناية:** يبرر إضافته لهذا القسم، أن هناك بعض الكلمات لم تنل اهتمام القدامى، وتضم الضمائر (متصلة ومنفصلة)،والإشارة، المستفهم به وكلمات الشرط

---

[1] - ينظر: المرجع السابق، ص75-76.

[2] - ينظر: في النحو العربي قواعد وتطبيق، مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، لبنان، ط2، 1986م، ص21-65.

وفي هذا التقسيم لم يقدم **مهدي المخزومي** جديدا، حيث إنه اعتمد أساسا على التقسيم الثلاثي للكلم، واعتمد في هذا التقسيم على الكوفيين، حيث استعمل مصطلحا ليس شائعا، وهذا التقسيم الرباعي يماثل تقسيم **إبراهيم أنيس**[1]، والتقسيم الأول **لتمام حسان**، الذي يضم : الاسم ،الفعل، الضمير، الأداة.[2]

أما التقسيم الثاني للدكتور **تمام حسان**، وهو الأشهر يضم سبعة أقسام: الاسم، الفعل، الضمير، الظرف ، الأداة الصفة، الخالفة.[3] حيث أضاف إلى تقسيمه الأولي :

- **الظرف**: وهي مبان تقع في نطاق البنيات غير المتصرفة فتتصل بأقرب الوسائج بالضمائر والأدوات.[4]

- **الصفة**: وهي في رأيه قسم مستقل عن الاسم تختلف عنه مبنى ومعنى، لأنها لا تدل على مسمى بها، وإنما تدل على موصوف بها تحمل معنى الحدث، أي معنى المصدر، وهي بهذا خارجة عن تعريف الاسم، حيث قالوا بأنه ما دل على مسمى .[5]

- **الخالفة** :فهي ليست أسماء، ولا أفعالا، ولا من الضمائر، وتمثل العبارات الإفصاحية التي يستعملها المتكلم للتعبير عن مواقفه، وهي تضم اسم الفعل، أفعال المدح والذم...الخ.[6]

وقد تعرض هذا التقسيم الذي طرحه الدكتور تمام حسان إلى النقد اللاذع، حيث اعتبره بعض الباحثين يزيد الأمور تعقيدا، وهو لا يمت للتيسير بصلة.[7]

وعلى العموم إن الوصفيين العرب تأثروا باللسانيات الوصفية وأغرموا بها فكانوا مقلدين للغرب في ملاحظاتهم فوصفوا النحو العربي القديم بمثل ما وصف به اللسانيون الغربيون النحو التقليدي الأوروبي بأنه معياري ومتأثر بالفسفة والمنطق الأرسطي، فكان نقدهم أشبه بالدفاع عن المنهج الوصفي ووسيلة لتبرير سبب تبنيه، فلم يكن نقدا موضوعيا، والدليل على ذلك أنهم وقفوا في حدود النقد ولم يقدموا نظرية بديلة للنحو العربي القديم، فلم يتمكنوا من تكريس منهجهم حيث ظل التراث مصدرا أساسا لكثير من الكتابات الوصفية العربية التي بقيت تردد بوعي أو بدونه تصورات ومصطلحات ومفاهيم القدماء وإن بأسلوب جديد، وهو أمر يؤكّد أن نقدهم خانته الموضوعيه في كثير من جوانبه.

ثانيا- الاتجاه التوليدي التحويلي العربي:

1-التعريف بهذا الاتجاه:

إذا كانت النّظريّة التّوليديّة التّحويليّة قد عرفت طريقها إلى الوطن العربي بداية السّبعينيات من القرن العشرين غير أنّ السّمة البارزة الّتي ظلت تطبع هذا النّوع من الكتابة هي التّفاوت، وتكاد الكتابة التّوليديّة لا تخرج عن دائرة بعض الأسماء الّتي ساهمت بشكل واضح وفعّال في التّعريف بالنّحو التّوليدي وتطبيقه على اللّغة العربيّة[8]، ولقد اتّخذت الدّراسات العربيّة الحديثة المنضوية تحت النظريّة التّوليديّة ثلاثة اتّجاهات:

أ- اتجاه يعرّف بآراء هذه النظرية ويعرضها كما عند تشومسكي ولكن بشكل نظري، وهذا يدخل ضمن اللسانيات التمهيدية.

ب- اتّجاه قام يتطبيق أفكار تشومسكي على اللّغة العربيّة يمكن أن ندرجه ضمن التّحديث والتّجديد للّغة العربيّة وقواعدها، وهذا التّطبيق قد يكون آليًّا(حرفيًّا)ومن هؤلاء على وجه التّحديد ميشال زكريا، وقد يكون فيه تكييف لهذه

---

[1] - ينظر: من أسرار اللغة ، ص266-278.

[2] - ينظر: مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1955م، ص195-209.

[3] - ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، دط، 1994م، ص90-123.

[4] - ينظر: المرجع نفسه، ص119-122.

[5] - ينظر: المرجع نفسه، ص98-103.

[6] - ينظر: المرجع نفسه، ص113-118.

[7] - ينظر: النحو العربي بين الأصالة والتجديد، عبد المجيد عيساني، دار ابن حزم، ط1، 2008م، ص213.

[8] - ينظر: اللسانيات في الثقافة العربيّة الحديثة، ص261، وينظر أيضا: اللسانيات العربية الحديثة، ص201.

القواعد بما يناسب اللّغة العربيّة، ومن هؤلاء داوود عبده عطيّة وعبد القادر الفاسي الفهري، هذا الأخير الّذي استطاع إغناء هذه النّظريّة بأفكار استقاها من قواعد وطبيعة اللّغة العربيّة، وسيأتي التّفصيل في المسألة.

ج- اتّجاه حاول أن يوازن بين هذه النّظريّة واللّغة العربيّة وهذه المقارنة تكون كليّة أو جزئيّة، من هؤلاء مازن الوعر وكذلك عبد الرحمان الحاج صالح الّذي يقرّ بعبقريّة تشومسكي، كما يؤكّد أن أفكاره هذه تتقاطع مع كثير من أفكار الرّعيل الأوّل من النّحاة، وهو ما يظهر جليًّا في نظريّة العامل، وسيأتي التفصيل في هذه المسألة أيضًا عند الحديث عن الاتجاه التوفيقي التجسيري.

ولعلّنا في هذا الصّدد نذكر أهم هؤلاء على الإطلاق، وهو **عبد القادر الفاسي الفهري** الّذي اعتنق نظريّة النّحو التّوليدي التّحويلي المطوّرة وقام بتطبيقها على اللّغة العربيّة.[1] وليس هذا فحسب بل إنه يعدُّ من منظّري هذا الاتّجاه العالمي، حيث عارض أعلام التّوليديّة في كثير من الآراء والتّحليلات واعْتُمِدَ الكثير منها، لذلك يمكن القول بأنّه رائد من روّاد هذا الاتّجاه العالمي.

وإذا كان " **نقولا روفي**"، رائدًا في تقديم كتاب يُبَسِّطُ نظريّة النّحو التّوليدي للفرنسيّين في وقت كانت هذه النّظرية مألوفة فقط في بعض الأوساط العلميّة الرّياضيّة والنّفسيّة، وكانت شبه مجهولة عند اللّسانيين الفرنسيين، فإنّ **الفاسي الفهري رائد في نقل النّظريّة نفسها إلى المغرب**، في وقت كانت فيه بعض الدّراسات الوصفيّة هي المسيطرة على الدّرس اللّساني[2].

2-موقف الاتّجاه التّوليدي التّحويلي المغاربي من التّراث النحوي العربي:

تعد قضيّة الموقف من التّراث من القضايا المفصلية في البحث اللّساني العربي المعاصر، وقد شغلت حيّزا كبيرًا من الجدل الفكري والنّظري بين المفكّرين العرب المعاصرين مشرقًا ومغربًا وإجمالاً فإنّ المتتبّع للكتابة التّوليديّة العربيّة عامّة والمغاربيّة خاصّة يرى بأنّها سلكت طريقين لا ثالث لهما، يرى الفريق الأوّل أن معطيات التّراث ناقصة وليست ذات قيمة بأن تُعتمد لوصف اللغة العربيّة الحاليّة، وأهم من اتّخذ مثل هذا الموقف ميشال زكريّا، الّذي يقول في أحد كتبه:«**لابد من أن نقول بمنتهى الصّراحة والموضوعيّة إن لا نفع بعد الآن في أن نردّد بصورة متواصلة الدّراسات الّتي قامت بها الأجيال السّابقة والمفاهيم الّتي تبنّوها في المجالات اللغويّة...ففي هذا المجال تكوّن النّظريّات الألسنيّة العلميّة الحديثة في نظرنا التّقنية المطوّرة الّتي نتسلّح بها لسبر قضايا اللّغة العربيّة وتفسيرها وتوضيحها...والمطلوب الآن هو إعادة النّظر مجدّدًا في طرائق التّحليل اللّغوي العربي على ضوء التّطوّر العلمي الحاصل في مجال الألسنية الحديثة والسّعي إلى إيجاد ألسنيّة عربيّة تغدو قادرة على تفهُّم قضايانا اللّغويّة...**[3]»، **وعبد القادر الفاسي الفهري** الذي اتّخذ موقفًا متصلّبًا من التّراث اللّغوي والنّحوي خاصّة، واتجاه الرأي القائل بضرورة الاعتماد عليه في إعادة وصف اللّغة العربيّة وصفًا جديدًا، وهو يرى بعدم ضرورة بل بعدم صلاحيّة تلك المعطيات، مبرّرًا ذلك بأنّ معطيات اللّغة العربيّة الحاليّة لا تنسجم مع معطيات النّحاة القدامى، ويقول في هذا الصّدد:«**فالنّماذج الغربيّة أثبتت كفايتها الوصفيّة وليس هناك ما يمكن أن يشكّك فيها بهذه السّطحيّة ولا أحد يستطيع بشيءٍ من الجدّيّة(اللّهم إلاّ إذا كان الأمر يتعلّق بشعوذة) أن يدّعي أنّنا في حاجة إلى نموذج آخر يبنى بالاعتماد على اللّغة العربيّة لوصفها، والأكثر من هذا أنّ مثل هذا الكلام الغريب حقًّا عن الخطاب العلمي يقدّم دون أيّ استدلال على صدقه وثبوته**[4]»، والأكثر من ذلك **أغلق الفهري الباب عن إمكانية استثمار مجهود القدماء** فيقول: « **بيّنت أبحاثنا كذلك أنّ ترجمة بعض تحاليل القدماء الحديثة(بإعادة صياغتها) مهمّة صعبة بل أحيانًا**

---

[1] - ينظر: اللسانيات المغربيّة المعاصرة بين التّراث والدّرس الحديث(قراءة نقديّة)، عبد الجبار توامي، كليّة اللّغة العربية، الرياض، مجلّة الدّراسات اللغوية، مج7،ع4 نوفمبر/ديسمبر2005م، ص249.

[2] - النّحو اللسانيات تقاطع أم تواز، عبد الله الجهاد، تكوين للدّراسات والأبحاث، الدار العربية للطباعة والنّشر، المملكة العربيّة السعوديّة، ط1، 2016م، ص318.

[3] - الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربيّة(الجملة البسيطة)، ص5(بتصرف).

[4] - اللسانيات واللغة العربيّة، ج1، ص57.

مستحيلة[1]»، وفي سياق حديثه تحت عنوان:**"تصوّر خاطئ للتّراث"** أبدى تذمّره من الباحثين العرب الّذين دعوا إلى توظيف التّراث ودراسته واستثماره بغية عصرنته وإخراجه بحلّة جديدة، وهذا الموقف في نظر الفهري غير مجدٍ ولا فائدة تُرجى من ورائه، بل إنّه يفسد على القارئ تصوُّرَهُ للفكر اللّغوي العربي القديم(التّراث)[2]، وللفكر اللّغوي الحديث (اللّسانيات) في آن معًا، ويطعن في كثير من البحوث ذات الصّلة، ويرى بأنّ الكثير منها يفتقد أصحابها إلى الكفاءة العلميّة اللّازمة والمنهج العلمي الدّقيق للقراءة، فبعضهم يكتب في مواضيع لا يسمح لهم تكوينهم بالكتابة فيها وبعضهم يجترُّون الكلام في مواضيع وإشكالات متجاوزة دون أن يعرفوا أنها متجاوزة أحيانًا، ويأتون بمواد غير كافية لا يصاحبها تصوُّر واضح أو منهج مؤسّس[3]، يقول الفهري في هذا الصّدد: « **وأظنّ أن البحث في اللّغة العربيّة الفصيحة يطرح إشكالاً عميقًا هو إشكال المادّة اللّغويّة أو المعطيات الّتي يقوم بوصفها ومع كامل الاستغراب لا نجد أحدًا يطرح هذا المشكل في عمقه، بل لا نجد أحدًا يصرّح بوجود مثل هذا المشكل حتّى "الوصفيّين" الّذين انتقدوا النّحاة القدامى أشدّ ما يكون الانتقاد، وعابوا عليهم إفسادهم للنّحو بإدخال أدوات ومفاهيم منطقيّة فيه وانتصارهم للقياس واصطناع أمثلة وتراكيب كثيرة لم تكن موجودة في اللّغة ولم تُسمع عن العرب وإنّما أرادوها لتزكية أصولهم، حتّى هؤلاء اكتفوا بالاحتفاظ بما أتى به القدماء من المعطيات ولم يحاولوا وصف لغة أخرى بالاعتماد على جرد مواد جديدة انطلاقًا من نصوص شفويّة أو مكتوبة(كالرّوايات والمحاضرات والأشعار...إلخ**[4] ».

وفي نظر **الفهري** فإنّة من العبث الاعتماد على النّحو العربي القديم لوصف اللّغة العربيّة الحاليّة لأن **النّسقين مختلفان** هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ تحليلات القدماء وتصوراتهم بخصوص اللّغة العربيّة ليست كما يعتقد كثير من الباحثين بأنّها مميّزة ودقيقة وعميقة وفريد من نوعها، بل **"إنها ليست لائقة في أغلب الأحيان**[5]". وبذلك فإنّ **الفهري** يعتقد بأنّ هناك حاجة إلى إعادة وصف اللّغة العربيّة لأنّ معطياتها في العصر الحاضر تختلف عن معطيات النّحاة القدامى الّتي اعتبرها ناقصة وغير مناسبه في أغلب الأحيان.

وفريق اتخذ موقفا توفيقيًّا تجاه هذه المسألة حيث دعا إلى ضرورة انفتاح البحث اللّساني العربي الحديث على البحوث اللّغوية العربيّة التراثيّة إن هو أراد تجاوز المجادلات العقيمة الّتي تعوق تقدّمه ومن ذلك الصّراع بين القديم والحديث[6]، ويميل إلى ما يسمّى بالتّوفيق المعرفي الدّكتور مازن الوعر.

3-نماذج عن الجهود العربية في إطار الاتجاه التوليدي التحويلي:

تناول التوليديون العرب في هذا الإطار عدة قضايا كقضية البنية السطحية والعميقة وقضية الرتبة في اللغة العربية، ومن هؤلاء داوود عبده وميشال زكرياء وعبد القادر الفاسي الفهري.

أ- محاولة داوود عبده:وقد ركّز في ذلك على تجاوز سلبيات الاتّجاه الوصفي المعتمدة أساسا على الوصف، معتمدًا على التّفسير والتّحليل[7]. وقدّم داوود عبدة مجموعة من البحوث التّركيبيّة حاول من خلالها استلهام بعض مفاهيم النّظريّة التّوليديّة لتحليل جوانب التّركيب في لغة الضّاد، **كقضيّة الرتبة**، ورغم أنّ أغلب الدّارسين العرب الّذين تناولوا موضوع الرُّتبة في اللّغة العربيّة، اعتبروا البنية الأصليّة للغة العربيّة هي:**"فعل(ف) +فاعل(فا) +مفعول(مف)"**، على غرار الفاسي الفهري وميشال زكريا وخليل أحمد عمايرة، فإنّ داوود عبده يرى غير ذلك، أي أنّها:**"فاعل(ف)+فعل(ف)+مفعول(مف)"**، إنّ اعتبار الأصل في الفاعل وقوعه قبل الفعل(بصرف النّظر عن الاسم

---

[1] - المرجع السابق، ص61..

[2] - ينظر: اللسانيات واللغة العربيّة، ج1ص60.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص61(هامش).

[4] - المرجع نفسه، ص52.

[5] - المرجع نفسه، ص61.

[6] - ينظر: قضايا أساسية في علم اللسانيّات الحديث، ص514،179.

[7] - ينظر: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص263.

الّذي نطلقه عليه) يجعل الجمل العربيّة نوعًا واحدًا، يتألّف من مبتدأ وخبر، بدل نوعين اسميّة وفعليّة، كما أنّه يوحِّد بين بعض الظّواهر المتشابهة فوجوب وقوع المبتدأ بعد الخبر في مثل:"وصل رجل"، أو "في البيت رجل"، لا يختلف عن وجوب وقوع الفاعل بعد الفعل في مثل:"وصل رجل"، فالسّبب في الحالتين أنّ الاسم نكرة.

وينتهي داوود عبده إلى أنّ الرّأي الذي يقول بأنّ البنية الدّاخليّة للجملة الّتي تحتوي على فعل هي: "فعل+فاعل+مفعول"، رأي يقوم على أسس غير ثابتة، وأنّ ثمّة أدلّة كافية لترجيح الرّأي الآخر القائل بأنّ البنية الدّاخليّة هي:"فاعل+فعل+مفعول"[1].

ب- محاولة ميشال زكريّا: يعتبر ميشال زكريّا أيضًا من المولعين بهذه النّظريّة، فقام بالتّنظير لها وتطبيقها بشكل مباشر على اللّغة العربيّة، وتناول أبرز ما جاء به تشومسكي من أفكار ومبادئ، فتحدّث عن منطلقات هذه النّظريّة ومبادئها كالقدرة" الملكة اللّسانيّة"، الإبداعيّة، التّوليد، البنية العميقة والسطحيّة...ثمّ قام بتطبيقها على اللّغة العربيّة[2].

ومن المسائل الّتي عالجها ميشال زكريّا **قضيّة الرّتبة** في اللّغة العربيّة، وهو يرى أنّ النّمط:**"(فعل، ف)+(فاعل فا)+(مفعول، مف)"**، هو التّركيب الأساسي في البنية العميقة،

وتتألّف كل جملة من ركنين أساسيين هما: ركن الإسناد وركن التّكملة، ويعبّر عنه كالتّالي:

جملة ⟵ ركن الإسناد+ ركن التكملة.

أمّا مسألة **البنية السّطحيّة والبنية العميقة**، فإنّ البنية العميقة ترتبط بالبنية السّطحية من خلال بعض العمليّات العقليّة، ومن خلال تحويلات للقواعد بشكل خاصٍّ، حيث إنّ المتكلِّم يمتلك نظامًا من القواعد غير متناهٍ يساعده في توليد عدد غير متناه من البنى السّطحيّة والعميقة المترابطة بصورة وثيقة[3].

يستفاد من تحليل ميشال زكريّا لمعطيات اللّغة العربيّة مدى استفادته من معطيات النّظرية التّوليديّة، وخصوصًا ما سطّره تشومسكي في نماذجه الأولى، ويبرز ذلك بشكل جليٍّ في تركيزه على عناصر التّحويل ودراسة البنية المكوّنيّة ومعالجة القواعد الأساس بما فيها قواعد إعادة الكتابة لتنظيم المعطيات التّركيبيّة[4].

ج-عبد القادر الفاسي الفهري: يعتبر عبد القادر الفاسي الفهري أهم من يمثّل المحاولات الشموليّة في الكتابة التّوليديّة العربيّة[5]، ومن أحدث النّماذج اللّسانيّة التّوليديّة المطبّقة على اللّغة العربيّة نموذج النحو المعجمي الوظيفي[6] ونظريّة الرّبط العاملي[7]والنّظريّة الأدنويّة أو البرنامج الأدنوي "Minimalist Program " الّذي تعتبر من آخر وأهم النّماذج التّوليديّة[8]، يرتبط هذا البرنامج بمفاهيم البساطة"simplicity"، والتّقليص "reduction"، والتّقتير"parsimony"، وينظر إلى اللّغة على أنّها عبارة عن نظام حاسوبي من أجل بلوغ الكفاية التّفسيريّة[9]، وقد وظّفه الفاسي الفهري في بعض تحليلاته اللّسانيّة لقضايا اللّغة العربيّة صرفًا، تركيبًا، دلالةً ومعجمًا ويعتبر الفاسي الفهري أهم من يمثّل المحاولات الشموليّة، وذلك للاعتبارات التّالية[10]:

---

[1] - ينظر: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة ، ص269.

[2] - ينظر: جهود كل من داوود عبده وميشال زكريّا في المدرسة التّوليديّة التحويليّة، حمزة أحمد الخلايفة، رسالة دكتوراه، إشراف، عبد القادر مرعي خليل، جامعة مؤتة الكرك الأردن،2013م، ص183، وينظر أيضا: دراسات في اللسانيات العربيّة، عبد الحميد مصطفى السّيّد، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2004م، ص84.، وينظر: اللسانيات في الثقافة العربيّة المعاصرة، ص269.

[3] - ينظر: الألسنيّة التوليديّة التّحوليّة وقواعد اللّغة العربيّة(النظريّة الألسنيّة)، ميشال زكريا، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط2، 1986م، ص163.

[4] - ينظر: اللسانيات في الثقافة العربيّة المعاصرة، ص171-172.

[5] - ينظر: المرجع نفسه، ص282.

[6] - ينظر: اللسانيات العربيّة الحديثة، ص222

[7] - ينظر: اللسانيات التوليديّة من النّموذج المعيار إلى البرنامج الأدنوي، ص294.

[8] - ينظر:من قضايا اللغة العربيّة في اللسانيات التوليديّة، ص161.

[9] - ينظر: المقارنة والتّخطيط في البحث اللساني العربي، عبد القادر الفاسي الفهري ، دار توبقال للنشر، الدّار البضاء، ط1، 1998م، ص17-18.

[10] - ينظر: اللسانيات في الثقافة العربيّة المعاصرة، ص282.

أولا: طرح قضايا تحديث الآلة الواصفة لمعطيات اللّغة العربيّة، وذلك من خلال الانخراط في مستجدّات الأسئلة الّتي يطرحها الخطاب اللّساني الحديث وخاصّة التّوليدي منه.

ثانيا:الانطلاق من وعي إبستيمولوجي يحرّك البحث ويدفعه إلى تقديم الدّرس اللّساني بشكل عامّ، ويتمثّل في ضرورة الفصل بين صنفين من اللّسانيات: **"لسانيات ظّواهر"**، تفرز خصائص اللّسانيات الطّبيعيّة، و**"لسانيات محاور"**تُؤرّخُ لمنجزات الدّرس النّحوي القديم، بتوظيف آليات نظريّة وتحليليّة ناضجة إبستمولوجيًّا، بما يُؤَقْلِمُ المفاهيم والاستدلالات القديمة بشكل علميٍّ حديثٍ.

ثالثا:وضعه لبرنامج عمل في الخطاب اللّساني العربي يتجاوز الكلام الأيديولوجي، وتكمن الخطوط العريضة لهذا البرنامج فيما يلي:

*- بناء نماذج آليّة وحاسوبيّة لإدراك اللّغة واستعمالها، تسترشد بالنّماذج النّفسيّة في إطار إدراك آليات اكتساب اللّغة وتعلّمها.

*- التّأريخ للنّحو العربي القديم بتوظيف منهجيّة المحاور الّتي وظّفها "هيلتون"Holton".

*- استثمار نتائج اللّسانيّات في قضايا تدريس اللّغة العربيّة، غير أنّه اعترف في كتابه" **المقارنة والتخطيط في البحث اللّساني العربي**" بابتعاد الاتّجاه التّوليدي عن تحقيق الهدف المسطّر أو المفترض، قائلاً: «**إلاّ أنّه وقع التّباعد عن هذا الهدف، لمّا انشغلت الأنظمة التّوليديّة واغتنت من أجل بلوغ الكفاية الوصفيّة، موظّفة طرقًا وآليات مختلفة بالنّسبة لكلّ لغة(مع أنّ المفروض أن تكون هذه الطّرق والآليّات محدّدة ومستقلّة عن اللّغات)، وممّا زاد من تعقيد المشكل تضخّم حجم الظّواهر الجديدة الّتي تمّ اكتشافها أثناء محاولة صياغة أنظمة القواعد الكافية، وقد أدّى هذا إلى بناء عدد مهول من أنظمة القواعد(المختلفة كثيرًا عن بعضها)، ممّا جعلنا نبتعد كثيرًا عن الحل لإشكال التّعلُّم**[1]».

ومما خالف فيه الفهري تشومسكي **قضية الرتبة** في اللغة العربية، فمعلوم أنّ النّظريّة الموسّعة الّتي اقترحها تشومسكي في منتصف السّبعينات تمّ التّركيز فيها على مسألة الرّتبة الأصليّة(**فا،ف،مف**)، ويأتي اهتمام التّوليديّين المغاربة وعلى رأسهم عبد القادر الفاسي الفهري بمسألة الرّتبة ضمن قضايا أخرى لأنّ فهم هذه الظّاهرة يشكّل مفتاحًا أو مدخلاً لفهم مجموعة من الظّواهر التّركيبيّة.

لقد انطلق روّاد المدرسة التّوليديّة التّحويليّة من أنّ كل لغات العالم تسير معظم تراكيبها في ثلاثة أطر أساسيّة هي:"SOV" أي فاعل ومفعول وفعل، و"SVO"، أي فاعل وفعل ومفعول و"VSO"، أي فعل وفاعل ومفعول أمّا التّوليديّون العرب فقد انقسموا في مسألة تحديد البنية الأصليّة للّغة العربيّة، فريق اعتبرها من نمط("VSO" فعل فاعل ومفعول)، وفريق اعتبرها من نمط("SVO" فاعل، فعل، ومفعول)[2].

لقد اتّخذ **عبد القادر الفاسي الفهري** الرّأي الأوّل مناقضًا مذهب تشومسكي[3]، مستدلاً على أنّ اللّغة العربيّة من نمط(ف،فا،مف)، أي"فعل، فاعل، مفعول"، لكنّ الملاحظ أنّ رأيه هذا قد عرف تناقضات ومراجعات واكبت تطوّر

---

[1] - المقارنة والتخطيط في البحث اللّساني العربي، ص16-17.

[2] - ينظر: اللسانيات التوليدية، تطور النماذج التوليديّة، مصطفى غلفان بمساعدة: امحمد الملاخ، حافظ إسماعيلي علوي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط1 2016م، ج2، ص213، وينظر أيضًا: الاتجاه التوليدي في النحو العربي الحديث، ص66.

[3] - يرى تشومسكي أنّ الرّتبة العميقة في اللغة العربية، هي(فا، ف، مف)، مثلها مثل الأنجليزيّة، واعتبر باقي الرّتب فرعيّة عنها، ويستند تشومسكي في ذلك إلى قاعدة مقوليّة يراها صالحة لتأصيل الرتبة في جميع اللغات، ويصوغها على النحو التالي: (ج ⟵ م.س صرفة م.ف)، وبموجب هذه القاعدة ذهب تشومسكي إلى أنّ كل اللغات من نمط(فا، ف مف)، بل أنكر وجود لغات من نمط آخر، ومن ذلك رتبة(ف، فا، مف)، وللاطلاع أكثر عن المسألة ينظر: تحليل نماذج تركيبية في اللغة العربية في ضوء نظرية الربط العاملي تحليل نقل الرأس، محمد أمقران، اللسانيات واللغة العربيّة بين النظرية والتطبيق، سلسلة الندوات(4)1992م، جامعة المولى إسماعيل، مكناس، ص79 وما بعدها، وينظر أيضا: من قضايا اللغة العربية في اللسانيات التوليدية، 162.

النّماذج التّوليديّة وآليات استدلالها، ويمكن أن نميّز بين ثلاثة مواقف أساسية عبّر عنها في كتبه التّالية على التوالي اللّسانيات واللغة العربية، ثم البناء الموازي، ثم المقارنة والتّخطيط[1].

أ- رتبة: فعل، فاعل، مفعول(ف، فا، مف،"VSO"): برز هذا الموقف للفاسي الفهري في كتابه" اللّسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية"، وهي مقاربة مبنيّة على أساسيات البرنامج التّوليدي، وخاصّة النحو المعجمي الوظيفي، وهذه الرّتبة توجد في الجمل الّتي تحتوي فعلاً متعدّيًا، حيث يتوسّط الفاعل بين الفعل والمفعول[2]، أمّا الجمل الاسمية الخالية من الفعل، أي الّتي يكون المسند فيها اسمًا كذلك، فإنّه يفترض فيها رابطًا مقدّرًا هو :"كان"، وهو رابط مزوّد بسمة الجهة والزّمن، والمركّب الاسمي بعده فاعل وليس مبتدأً، وهو تفسير موجود عند بعض النّحاة القدماء.

إنّ هذا الافتراض يوحّد بين الجمل الفعليّة والاسميّة، ويردّها إلى بنية عميقة واحدة، وهو ما يسمّى عنده" **الافتراض الرّابطي**"، أي أنّ الجمل الّتي لا يظهر فيها الفعل في سطح البنية جمل ذات رابطة أو رابطيّة، كالجملة:"**كان الجوّ لطيفًا**"[3].

ب - التّوسيط، التّطابق وازدواجية الرتبة: حيث يقوم كتاب الفهري المسمّى" **البناء الموازي**" ضمنيًّا على مسلّمة التّوسيط الواحد، ومفاد هذه الفكرة أنّ اللّغات تختلف بالنّظر إلى إمكان وجود تركيب معيّن أو غيابه تبعًا للقيمة الّتي يأخذها وسيط معيّن في اللّغة إمّا موجبة أو سالبة، ويمكن التّمثيل لذلك بوسيط إسقاط "ضم"؛ فإذا أمكن أن نقول في اللّغة العربيّة"**أكلوا**"، فإنّه من غير الممكن أن نقول في اللّغة الفرنسيّة:"mangent"، دون إظهار الفاعل[4].

ويعود السّبب إلى أنّ اللّغة العربيّة يمكن **أن تستغني عن الفاعل الضّميري أو غير الضّميري**، لأنّ صرفته التّطابقيّة تسوغ ظهور مقولة فارغة وهي:"ضم"، تسدّ مسدّ الفاعل، وهذا أمر متعذّر في الفرنسيّة وكذلك الأنجلزية، وباعتماد هذا المنطلق الجديد حاول الفهري مراجعة التّصوّر الّذي أطّر عمله في كتابه:"اللّسانيات واللّغة العربية" بوجود رتبة أصليّة واحدة هي : **(ف،فا، مف)** ، وبناءً عليه اعتبر الفهري في تصوّره الجديد أنّ الرتبة:**(فا، مف)**، **أصليّة** كذلك في المركّبات الضّميريّة، فتأويل الضّمائر يخضع لترتيب معين، هو:**(فا، مف1، مف2)**، سواء أكانت ضمائر متّصلة أو مزيجًا بين المتّصل والمنفصل، كما في الجملتين:" أعطيتنيه"،و" أعطيتني إيّاه"[5].

ولقد قدّم الفهري مجموعة من الاستدلالات يبرّر بها موقفه هذا وعدوله عن موقفه الأوّل الّذي ذكرناه، وعلى العموم فقد بيّن الباحث بناءً عليه أن اللّغات ثلاثة أنماط لغات ذات رتبة(فا، ف)فقط، كالإنجليزيّة والفرنسيّة والإيطالية والإسبانيّة ولها تطابق اسمي فقط، ولغات مزدوجة الرتبة، كالعربيّة ولها تطابق اسمي وغير اسمي.، ولغات ذات رتبة(ف، فا)، وليس لها تطابق اسمي، كالإرلنديّة[6].

ج - التنميط المتعدد:لقد شكّلت مرحلة التّسعينيات من القرن العشرين مرحلة أساسيّة في تدقيق البحث في مكوّن الوسائط داخل البرنامج التّوليدي، وقد ساعدت التّغييرات الجديدة الّتي أدخلها تشومسكي على مكوّن الوسائط على ظهور مقاربات جديدة للكثير من القضايا، وفي هذا الإطار جاء كتاب الفاسي الفهري" **المعجميّة والتّوسيط**" ليقدّم تصوّرات لم يكن ليتمّ رصدها من قبل، والمقاربة الجديدة المقترحة تسمح بإمكانية توسيط متعدّد القيم، بمعنى أنّ الوسيط نفسه يمكن أن يأخذ قيمًا متعدّدة داخل اللّغة في تراكيب متعدّدة[7]. وبناءً عليه اقترح الفاسي الفهري تصوّرًا

---

[1] - ينظر: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص285.

[2] - ينظر: اللسانيات واللغة العربية، ج1، ص105-106، وكذلك: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص286.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص134، وينظر أيضًا: من قضايا اللغة العربية في اللسانيات التوليديّة، ص163.، وينظر كذلك: اللسانيات في الثقافة العربيّة المعاصرة، ص287.

[4] - من قضايا اللغة العربية في اللسانيات التوليديّة، ص165-166.

[5] - ينظر: البناء الموازي، ص56، وينظر أيضًا: اللسانيات في الثقافة العربيّة المعاصرة، ص292، وينظر كذلك: من قضايا اللغة العربية في اللسانيات التوليدية، ص166.

[6] - ينظر: المرجع نفسه، ص117.

[7] - ينظر: اللسانيات في الثقافة العربيّة المعاصرة، ص301، وينظر: من قضايا اللغة العربيّة في اللسانيات التّوليديّة، ص174.

تعدّديّا يفترض أنّ اللّغة الواحدة لا تختار قيمة واحدة بالنّسبة إلى الوسيط نفسه، بمعنى أنّ كل لغة يمكن أن توجد فيها لغات، بل أحيانًا جميع اللّغات[1].

وما نشير إليه هنا أن **مازن الوعر** أيضا قد خاض في إطار البحث التوليدي ضمن **النظرية الدلالية التصنيفية** التي صاغها اللساني الأمريكي **والتر كوك Walter Cook** استمرارا للطروحات الدلالية التي قدمت في إطار النحو التوليدي، وفرضية كوك تهدف إلى تقديم جملة من المعايير الدلالية لوصف المضمون الدلالي للتركيب، ولكننا نؤجّل شرحها إلى محاضرة اللسانيات التركيبية.

وعلى العموم رغم الجهد الذي بذله التوليديون العرب في إطار النحو التوليدي ومحاولة استثماره على اللغة العربية، لكن ما يميّز هذا الجهد أنه تناول قضايا جزئية ولم يكن دراسة شاملة، وفي الغالب يقدم هؤلاء اللبنات الأولى للقضايا التي يقترحونها دون إفراغها، ثم فجأة يتحولون إلى مواضيع ونماذج جديدة مصيرها يكون كسابقاتها في الغالب، ولعل الفاسي الفهري هو الوحيد الذي تميّز عمله بنوع الاستمرارية والشمول وإن شابه التناقض وبعض التراجعات كما رأينا في قضية الرتبة على سبيل المثال، كما تميّز باستثماره للتراث وإن بمصطلحات جديدة رغم ثورته ورفضه لكل قديم لغة ونحوا.

ثالثا- الاتّجاه الوظيفي التّداولي العربي:

1-التعريف بهذا الاتجاه:

لقد تهيّأ لعدد من الدّارسين العرب الّذين درسوا في الجامعات الأوروبية، وخاصّة البريطانيّة التّعرّف على الآراء الوظيفيّة الّتي قال بها اللّساني البريطاني فيرث، فكانت نظريّته من أهم النّظريّات الّتي أطّرت البحث اللّساني العربي فانعكست آراؤه في كتابات عدد كبير من الباحثين العرب المحدثين، كإبراهيم أنيس وتمام حسّان ومحمود السّعران وكمال بشر[2].

لقد جاءت البدايات الأولى للاهتمام بالمنحى الوظيفي في دراسة اللّغة عند الدّارسين العرب المحدثين في إطار الدّعوة إلى التّيسير، فإبراهيم مصطفى ومهدي المخزومي مثلاً دعيا إلى تأكيد وظيفة الكلمة في الجملة، أمّا تمام حسّان فقد نحا في كتابه" اللّغة العربية معناها ومبناها" منحى وظيفيًّا وصفيًّا، يقوم على وصف النّحو العربي بعيدًا عن التّقدير والتّأويل، مؤكّدًا أهمّية المعنى متأثّرًا بنظريّة السّياق لفيرث[3].

غير أنّ الملاحظ أنّ اللّسانيين المشارقة الّذين ذكرناهم وعلى الرّغم من تأثّرهم بفيرث وبنظريّته الوظيفيّة، إلاّ أنّهم لم يصرّحوا بأنّ المنهج الّذي يسلكونه هو منهج وظيفي، بل عرضوا نتائجهم اللّغويّة وقدّموها على أنّهم وصفيّون[4].

واهتمّ آخرون في إطار لسانيات التّراث* أو الاتّجاه التّوفيقي التّجسيري كما نُفَضِّلُ تسميته، وهذا الفريق اهتمّ بالبحث عن أصول المنهج الوظيفي الحديث محاولين الكشف عمّا يشابهه في الفكر اللّغوي القديم، كما تمّ تناول آراء المدرسة الوظيفيّة المعروفة بالوجهة الوظيفيّة لدراسة الجملة، مقارنين بين مبادئها في تحليل الجملة وآراء الجرجاني النّحويّة والبلاغيّة[5].

---

[1] - ينظر: من قضايا اللغة العربيّة في اللسانيات التّوليديّة، ص174.

[2] - ينظر: التفكير الدلالي في الدرس اللساني العربي الحديث، ص277، وينظر: اللسانيات العربية الحديثة، ص243.

[3] - ينظر: دراسات في اللسانيات العربية، ص136-137.

[4] - ينظر: التفكير الدّلالي في الدرس اللساني العربي الحديث، ص277.

* - هذا المصطلح استعمله مصطفى غلفان وتلميذه حافظ إسماعيلي علوي ونحن نفضّل استعمال مصطلح الاتّجاه التّوفيقي التّجسيري، لأنّ المفهوم الأوّل المستعمل من قبل الباحثَيْنِ ليس موفّقًا في نظرنا وكأنّه يُظهر نوعًا من الاسخفاف بقيمة الجهد الّذي يبذله أصحاب هذا الاتّجاه على غرار الحاج صالح والأخضر غزال الملقّب بأبي اللغويين المغاربة وكأن دورهم يتمثّل فقط في الإسقاط الآلي بين التراث واللسانيات الحديثة مع أنّ مآلات الأمور بخصوص اللّسانيات بمختلف اتّجاهاتها يثبت رجاحة المواقف المتخذ من أصحاب الاتّجاه التّوفيقي التّجسيري.

[5] - اللسانيات العربيّة الحديثة، ص243-244.

أمّا في **المغرب العربي** ففي تونس أولى كثير من باحثيها عناية خاصّة لوظيفيّة **أندري مارتيني**، إمّا من خلال ترجمة بعض أعماله والتّعريف بها، وإمّا محاولة تطبيق مفاهيمها ودراسة بعض المظاهر التّركيبيّة في الجملة العربيّة من منطلق وظيفي بنيوي[1].

إنّ الكتابات الأولى **مشرقيّة وتونسيّة** لم تقدّم للثّقافة العربيّة الصّورة الكاملة والإطار العام للّسانيات الوظيفيّة منذ نشأتها مع مدرسة براغ، إذ انحصرت الوظيفيّة عند بعضهم فيما قدّمه **أندري مارتيني**، تحديدًا الباحثون التّونسيون انطلاقًا من نظرتهم أنّ النّظريّة الوظيفيّة لم تتبلور ولم تكتمل مظاهرها مع حلقة براغ، حيث تواصل بناء صرحها وصقل مفاهيمها في فرنسا على يد أندري مارتيني[2].

أمّا المغرب الأقصى فقد كان بحق مركزًا أساسيًّا للبحث الوظيفي التّداولي العربي بمعناه المعاصر، خاصّة ما قدّمه رائد هذا الاتّجاه **أحمد المتوكّل** الّذي يتحدّث عن انتقال نظريّة النّحو الوظيفي إلى البلاد العربية قائلاً:«**دخلت هذه النّظرية العالم العربي أوّل ما دخلت عبر جامعة محمّد الخامس بالرّباط، حيث شكّلت مجموعة البحث في التّداوليّات واللسانيات الوظيفيّة، وبفضل جهود الباحثين المغاربة المنتمين إلى هذه المجموعة تسنّى للمنحى الوظيفي أن يأخذ محلّه في البحث اللّساني المغربي إلى جانب مكوّناته الأخرى**[3]».

وفي هذا الشّأن يثني **مازن الوعر** على ما قدّمه **المتوكّل** بالقول:«**إنّ الأعمال الدّلاليّة الّتي يقوم بها الباحث أحمد المتوكّل في جامعة محمّد الخامس بالرّباط المغرب، تمثّل اللّبنة اللّسانيّة الحقيقيّة في الثّقافة العربية المعاصرة هذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على العمق الثّقافي اللّساني عند الباحثين العرب المغاربة ذلك العمق المتّصف بحدّين: حد الأصالة العربيّة بعلومها التّراثيّة كافّة، والّتي وضعها العرب القدامى، ولا سيما العلوم اللّغويّة الّتي كانت رائدة العلوم الإنسانية في تلك الحقبة من التّاريخ، وحد الحداثة الغربيّة في علومها الحديثة الّتي وضعها الباحثون الغربيّون في أوروبّا وأمريكا ولاسيما علم اللّسانياتLinguistique**[4]».

ونظير الجهد المتميّز الّذي بذله المتوكّل في هذا الاتّجاه، عقدت كليّة الآداب عين الشّق الدار البيضاء ندوتين تكريميّتين(2000م،2005م) لرائد النّحو الوظيفي وضامن استمراريّته دون منازع في العالم العربي **أحمد المتوكّل**[5].

2-موقف الاتّجاه الوظيفي التداولي من التراث اللغوي العربي:

إنّ ما ميّز المنحى الوظيفي العربي كما يذكر زعيمه وكما يلاحظه الدّارس أنّه لم يلعب لعبة الإقصاء مع التّراث اللّغوي العربي كما فعلت بقيّة المدارس البنيويّة والتّوليديّة التّحويليّة في شقّها العربي، بل على العكس من ذلك تمامًا فإنّ المتوكّل اعتمد مبدأً عامًّا يقوم على عدم إقصاء المقاربات الأخرى مؤمنًا أشدّ الإيمان بوحدة البحث اللّساني وإمكانية التّحاور مع بقيّة الآراء والتّجارب وإن فصل بينها مرور الزمن ، ويؤكّد **المتوكّل** هذا الموقف بالقول:« **يكمن التّباين بين الفكر اللّغوي القديم(عربيًّا كان أم غير عربيٍّ)، والدّرس اللّساني الحديث في اختلاف الظّروف التّاريخيّة الّتي تحيط بإنتاجهما، حيث لا قطيعة معرفيّة تفصل بينهما خلافًا لما يُعتقد»**[6].

وما نستهدفه يقول **المتوكل** هو إعادة المنهجيّة الّتي اقترحناها(المتوكّل1982م) للتّعامل مع التّراث عرضًا ومقارنة واستثمارًا، بتحديثها وتعديل بعض أسسها بما يكفل توفية الفكر اللّغوي العربي القديم حقّه **بعيدًا عن المحاباة والإجحاف**[7].

---

[1] - ينظر: المرجع السابق، ص244، وينظر: التفكير الدلالي في الدرس اللساني العربي الحديث، ص278.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص244، وينظر: التفكير الدلالي في الدرس اللساني العربي الحديث، ص278.

[3] - المنهج الوظيفي في البحث اللساني، ص45.

[4] - قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، ص523.

[5] - ينظر: المنهج الوظيفي في البحث اللساني، ص416.

[6] - الخطاب وخصائص اللغة العربية،دراسة في الوظيفة والبنية والنّمط، أحمد المتوكّل، منشورات الاختلاف الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010م، ص12.

[7] - المنهج الوظيفي في البحث اللساني، ص501.

لقد عبّر المتوكّل عن **فكرة التّلاقح بين الفكر اللّساني الحديث والتّراث اللّغوي العربي** بمصطلح الاقتراض حيث:«**تعدّ عمليّة الاقتراض هذه عمليّة إدماج جزئي مؤقّت ونسبي بعد إعادة صياغة ما يُدمج، ولا نعني بحال من الأحوال إلغاء المصدر المقترض منه**[1]».

إنّ المنحى الوظيفي كما يتصوّر المتوكّل إنّما هو **توثيق للعرى بين اللّسانيات الوظيفيّة الحديثة والتّراث اللّغوي العربي** الّذي يعتبره ذا منحى وظيفيٍ هو الآخر، ويوضّح **المتوكّل** أهداف مشروعه هذا في كتابه المنحى الوظيفي في الفكر اللّغوي العربي، بالقول:«**سعى لسانيو هذا المنحى لإنجاز مشروع ذي شقّين: إضاءة نسق اللّغة العربيّة صرفًا وتركيبًا واستعمالاً، فصحى ودوارج في مختلف القطاعات الاقتصاديّة – الاجتماعيّة من منظور مبدأ تبعيّة البنية لوظيفة التّواصل، ومد الجسور لوصل البحث اللّساني الوظيفي بالتّنظير العربي التّراثي للدّلالة، منظورًا إليها في مجمله نحوًا وبلاغة، فقه لغة وأصول فقه وتفسيرًا**[2]».

وما يصبو المتوكّل إلى تحصيله من هذا المشروع هو رصد المنجز منه بشقّيه، وما هو مستشرف إنجازه في إطار الدّفاع عن أطروحات ثلاث:

أولا: أنّ اختيار النّظريّات اللّغويّة الوظيفيّة قديمها وحديثها والمفاضلة بينها، لا يمكن أن يتمّا من داخل أحدهما وإن ظنّ أنّها بلغت من الكفاية التّفسيريّة ما بلغت، بل يتمّان في إطار ميتا-نظريّة عامّة تعلوها جميعًا يقترح المتوكّل تسميتها "**النّظريّة الوظيفيّة المثلى**".

ثانيًا: أنّ الفكر اللّغوي التّراثي في عمقه فكر وظيفيّ من حيث مفاهيمه ومنهجه وقضاياه.

ثالثًا: أنّ علاقة الدّرس الوظيفي الحديث بهذا الفكر علاقة امتداد لأصل، تتيح استحياء واستثمار ما يمكن استحياؤه واستثماره منه[3].

وفي هذا السّياق يقترح **المتوكّل** الانطلاق من نقطة منهجيّة لقراءة التّراث اللّغوي العربي مفادها، أنّ المفاهيم المعتمدة في علوم اللّغة العربيّة تنزع إلى التّوحّد، وإن تعدّدت هذه العلوم، وإلى تشكيل إطار نظري يخلف الدّراسات النّحويّة والبلاغيّة، والأصوليّة والتّفسيريّة على حدّ سواء[4].

وإذا كنا قد ذكرنا موقف الاتجاه التّوليدي التّحويلي المغاربي من التراث وأنّه كان يتميّز بممارسته التّوفيقيّة أثناء الممارسة والتّطبيق وأنّ زعيمه كانّ رافضًا للتّراث قولاً معتمدًا عليه فعلاً وتطبيقًا، فإنّ الاتّجاه الوظيفي التّداولي قد كان توفيقيًّا قولاً وفعلاً، وهي سمة واضحة وضوح الشّمس في ما قدّمه رائد هذا الاتّجاه وكل المشتغلين في هذا المجال يلاحظ هذا الأمر عند **المتوكّل، وطه عبد الرحمان، والبوشيخي، ونعيمة الزّهري**، والمشتغلين في مجال الحجاج، **كعبد اللّه صولة، وصابر الحباشة، وأبو بكر العزاوي**، وكذلك المشتغلين في مجال تحليل الخطاب بمفهومه الواسع على غرار **محمّد مفتاح، وإن هذا الموقف من هؤلاء الباحثين ينصف التّراث ويؤيّد فكرة الاقتراض والتّلاقح بين التّراث واللّسانيات الحديثة أو يحقّق مبدأ تحيين التّراث وعصرنته بلغة العصر دون المس بروحه وبعقيدته الفلسفيّة والفكريّة واللّغويّة ودون الانسلاخ من ثوبه ومن أصله.**

3-نماذج عن الجهود العربية في إطار الاتجاه الوظيفي التداولي:

لم تعرف الثّقافة العربيّة الحديثة أيّ اهتمام حقيقي بالدّراسات التّداوليّة العصريّة وبهذا يمكن اعتبارها نادرة وشبه منعدمة، غير أنّه لا يمكن نكران ما ما قدّمه أحد المفكّرين الأوائل الّذين حاولوا التّعريف بالفكر التّداولي وتطبيقه في بعض مناحي الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، ومن هؤلاء **طه عبد الرّحمان**[5]، غير أن الحال بدأ يتغيّر في الآونة

---

[1] - الخطاب وخصائص اللغة العربية، ص12.

[2] - المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول والامتداد، أحمد المتوكّل، دار الأمان، الرّباط، ط1 ،2006م، ص15.

[3] - المرجع نفسه، ص15.

[4] - المنهج الوظيفي في البحث اللساني، ص501.

[5] - ينظر: اللسانيات العربية الحديثة، ص249.

الأخيرة خاصّة من الباحثين المغاربة وعلى رأسهم وفي مقدّمتهم **أحمد المتوكّل** وبعض الباحثين الآخرين المتأثّرين به وبعضهم هم تلاميذه أساسًا على غرار **عزّ الدّين البوشيخي**، كما نشير إلى أنّ التّداوليّة تفرّعت وتوسّعت اهتماماتها إلى الحجاج وتحليل الخطاب وبرز فيه باحثون مغاربة كثر **كعبد اللة صولة وصابر الحباشة** من تونس **وأبو بكر العزاوي** من المغرب **ومحمّد مفتاح** في تحليل الخطاب من المغرب، كما لا يخفى الاهتمام المتزايد بالتّداوليّة وبالنّحو الوظيفي في الجزائر كما يفعل **مسعود صحراوي ويحي بعيطيش** وباحثون غيرهم، وقبل الحديث عن أهم روّاد هذا الاتّجاه المغاربة نذكّر بالمحاولة العربيّة البكر، ونعني بها محاولة **تمام حسّان** في إطار نظريّة المعنى، واقترابه كثيرًا من هذا الاتّجاه بمفهومه الجديد.

أ-تمام حسّان والاقتراب من هذا الاتّجاه:لم يكن تمام حسّان وظيفيًّا خالصًا، ولكنّ الجهد الّذي بذله في كتابه اللّغة العربية معناها ومبناها يصبّ في هذا الاتّجاه، ذلك أنّه اعتمد في تحليلاته على نظريّة السّياق لفيرث، لذا فإنّ عمله هذا قد سبغ بجانب وظيفي مهم[1]، وهذا الجهد المعتبر والمثمّن وإن كان وصفيًّا أساسًا، فإنّه قد مثّل مرحلة مهمّة من مراحل تطوّر الوظيفيّة لدى الباحثين العرب المحدثين نحو الوظيفيّة الجديدة الّتي بلورها في وقت متأخّر من القرن العشرين أحمد المتوكّل[2].

ولعلّ الضّبابيّة الّتي ميّزت عمل تمام حسّان الّذي سلك طريقًا بين بين، جعل أحد الباحثين يقول بأنّ تمام حسّان **"لم يستطع الالتزام بمقولات الوصف، لأنّه طبّق منهجًا لا يستند إلى أساس نظري"**[3]، يقول **تمام حسان** في كتابه اللّغة العربيّة معناها ومبناها:«**والمعاني الّتي في هذه الأنظمة الثّلاثة الصّوتي والصّرفي والنّحوي، هي في حقيقتها وظائف تؤدّيها المباني الّتي تشتمل عليها، وينبني منها هذه الأنظمة...من هنا يكون المعنى وظيفة المبنى ويكون المبنى عنوانًا تندرج تحته العلامة، ومن ثمّ أطلق الباحثون على هذا المعنى الّذي تكشف عنه المباني التّحليليّة"المعنى الوظيفي"Fonctional meaning واضعين إيّاه بإزاء المعنى المعجمي**».[4]

إنّ هذا الموقف يهدف من خلاله **تمام حسان** إلى عدم الاهتمام بالنّحو فقط، بل لابد من تطعيمه بعلم المعاني فالنّحو يبقى عاجزًا عن تفسير الظّاهرة اللّغوية إن لم يطعّم بشيء من الدّلالة، ممثلًا في علم الدّلالة، وهذا الموقف في الحقيقة رأي عبد القاهر الجرجاني قبله الّذي اعترف بفضله الباحث وبرجحان رأيه.

ونختم القول حول تمام حسان بما قاله عز الدّين المجدوب، حيث يرى بأنّه لم يتمثّل جدّة اللسانيات تمثّلاً واضحًا وشاملًا، بل إنّ اللّسانيات لم تكن محرّكه الأوّل كما يعتقد الكثيرون ويتوهّمون، بل ما هو إلاّ صدى للوصفيين النّاقمين على النّحو العربي، فجهد تمام حسان كان مواصلة لمدرسة التّيسير وتثبيتًا لغاياتها أكثر ممّا كان قطعًا معها وانتسابًا للّسانيات عند نقد التّراث العربي[5]، **وعلى العموم لابدّ أن نعترف بالجهد الّذي بذله هذا الباحث المتميّز رغم المؤخذات الكثيرة الّتي طبعت هذا الجهد وكثيرًا من الجهود المتزامنه معه، وعلّتها أنها تأثّرت بفكر غربي كسب شهرة منمّقة جعل هؤلاء يغفلون عن إرثهم العظيم، وعوض أن يستثمروا أفكار اللّسانيات في بعث تراثهم وإعادة عرضه بشكلٍ جديدٍ، بعث ببعضهم للدّعوة إلى التخلي عنه والبحث في الوافد الجديد فهو المخلّص والحلّ المنشود.**

ب- طه عبد الرّحمان:هو فيلسوف اللغة وأستاذ المنطق وفلسفة اللّغة الباحث المغربي طه عبد الرّحمان الّذي اهتمّ بالقضايا التّداوليّة من وجهة نظر منطقيّة وفلسفيّة، مستمدًّا وسائلة النّظريّة والمنهجيّة من علمين حقّقا نتائج باهرة هما: اللّسانيات والمنطق، وقد قسّم اللّسانيات إلى ثلاثة أصناف[6]:

---

[1] - ينظر: التفكير الدلالي في الدرس اللساني العربي الحديث، ص277.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص277-278.

[3] - تمام حسّان في معيار النّقد اللساني،خالد خليل هادي، د: مؤيد آل صوينت، مجلّة الأستاذ، العدد:203، 1433ه/2013م، ص249.

[4] - اللغة العربية معناها ومبناها، ص39.

[5] - ينظر: المنوال النحوي العربي قراءة لسانية جديدة، عز الدين المجدوب، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، سوسة، ط1، 1998م، ص43.

[6] - ينظر: اللسانيات العربيّة الحديثة، ص249.

- **الدّاليات:** وتختصّ بوصف ومحاولة تفسير الدّال الطّبيعي في نطقه وصوره وعلاقاته، وهي تشمل الصّوتيات والصّرف والتّركيب.

- **الدّلاليات:** وتختصّ بوصف ومحاولة تفسير العلاقات بين الدّوال الطّبيعيّة ومدلولاتها كصور ذهنيّة أو ظاهرة.

- **التّداوليات:** وتختصّ بوصف ومحاولة تفسير العلاقات الّتي تجمع بين الدّوال الطّبيعيّة ومدلولاتها وبين الدّالين بها.

يعتبر **طه عبد الرّحمان** من المنادين بضرورة اعتماد اللّسان على المنطق بشكل مدروس غير آلي ولا الانغلاق داخل نسق صوري، بل لابدّ من التّطبيق المحكم والتّوسيع لمجال المنطق نفسه بتطوير أساليبه وأدواته، ليتناسب مع طبيعة اللّسان المنطوق الدّاليّة والدّلالية والتّداوليّة[1].

لذا يعتبر **طه عبد الرّحمان** من أهم الباحثين في المجال التّداولي رغم ندرتهم، وقدّم جهدًا معتبرًا في هذا السّياق تنظيرًا وتطبيقًا، ولقد سعى في مؤلّفاته الكثيرة في المنطق وفلسفة اللّغة والتّداولية إلى وضع نظريّات وتقويم بعض التّعريفات والمفاهيم العربيّة، وصياغة بعض المناهج وتطبيقها على أصناف الخطابات في التّراث العربي والإسلامي[2]، ومن أهمّ كتبه نذكر: **"المنطق والنّحو الصّوري"** سنة 1973م وكتاب**"في أصول الحوار وتجديد علم الكلام"** وهذا الكتاب حصل به عن جائزة المغرب في العلوم الإنسانية لسنة1977م، وكتاب**"تجديد المنهج في تقويم التّراث"**، وهو أيضا حصل به على جائزة المغرب في العلوم الإنسانية سنة1995م، وكتاب **"اللّسان والميزان"** سنة1998م، وكتاب**"حوارات من أجل المستقبل"**سنة2011م، بالإضافة إلى مجموعة من الكتب باللّغة العربية والفرنسية.

وهو أوّل من اقترح مصطلح التّداوليّة كمقابل لـPragmatique، وقد تبنّاه **أحمد المتوكّل** واستعمله، فلقي استحسان المختصّين الّذين تداولوه في محاضراتهم وكتاباتهم[3]، كما وضع مصطلحات جديدة معتمدًا على إستراتيجيّة قائمة على التّأصيل متجاوزًا الآلية المعتمدة في ترجمة الأفكار والنّظريّات، مستثمرًا فكر علماء الإسلام في البحث التّداولي، ولقد دعا إلى التّرجمة التّأصيلية واعتمادها كمنهج عمل، وظهرت إيجابياتها في تذليل وتسهيل كثير من إشكالات التّرجمة إلى اللّغة العربيّة، وأنّ انتشار الكثير من مصطلحاته وجريانها على اللّسان واستحسانها، ما هو إلاّ دليل على ضرورة الاعتماد على هذا النّوع من التّرجمة والعمل به[4].

وكان له آراء لافتة في مجال التّداوليّة فتحدّث عن الحجاج وربطه بالتّواصل كما أشرنا سابقًا، وكان له مواقف معارضه لنظرية الأفعال الكلاميّة **لغرايس وسيرل** معتبرًا أنّهما قد قاما بتحليل الأفعال البسيطة، ولم يشتغلا أو يهتمّا بالأفعال المركّبة واعتبر أنّ الباحثين**"فان إيمرن"**و**"خروتندوف"** أدركا هذا الخلل، **فقاما بتوسيع هذه النّظريّة حتّى تشمل الأفعال المركّبة والحجاج أيضًا**[5].

ج- أحمد المتوكّل رائد عالمي لهذه النّظريّة: يعتبر **أحمد المتوكل** رائدا عالميًّا للاتّجاه الوظيفي التّداولي، فهو ليس مصنّفا في الإطار العربي أو المغاربي فحسب، بل العالمي أيضا، فهو رائد من رواد هذه النظرية مجتهدًا مثريًا ومطوّرًا أفكارها وتحليلاتها اللّغوية، وليس في الوطن العربي قاطبة أنموذجا يضاهي ما قدمه **أحمد المتوكّل** في وصف اللّغة العربية من وجهة وظيفيّة تداولية، حيث انتفع بنموذج **سيمون ديك** في النّحو الوظيفي الّذي يعتبره **المتوكّل** من أكثر النّماذج استجابة لشروط التّنظير ومقتضيات النّمذجة للظّواهر اللّغوية، وقد أقام **المتوكل** ضمن الإطار النّظري لأنموج **ديك** دراسات مختلفة حول بنية النّحو في العربية فقدّم دراسة متكاملة واضحة الأصول.[6]

---

[1] - ينظر: المنطق والنّحو الصّوري، طه عبد الرّحمان، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت، ط1، 1983م، ص7(في المقدّمة).

[2] - ينظر: المنطق التّداولي عند طه عبد الرحمان وتطبيقاته، آمنة بلعلي، مجلّة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد17، جانفي 2006م، ص32.

[3] - تجلّيات مفاهيم التّداوليّة في التّراث العربي، ص32 .

[4] - ينظر: المنطق التّداولي عند طه عبد الرحمان وتطبيقاته ، ص287-292.

[5] - ينظر: التّواصل والحجاج، ص12-13.

[6] - ينظر: دراسات في اللسانيات العربية، ص147.

وفي إطار النّحو الوظيفي قام **المتوكل** في كتاباته العديدة بمحاولة وصف وتفسير كثير من قضايا اللّغة العربية منظورًا إليها من وجهة النّحو الوظيفي سواء بالقياس للفكر اللّغوي العربي القديم أو بالقياس للتّحاليل اللّسانية الحديثة، ويمكن تقسيم ما قدمه المتوكل من تحليلات إلى ثلاثة أنواع:(-**تحليلات معجمية-تحليلات تركيبية -تحليلات تداولية).**[1]

***-الوظائف التداولية:**اهتمّ المشروع الوظيفي **لأحمد المتوكّل** أساسًا بالوظائف التّداوليّة، وهي الميزة الّتي تميّز النّحو الوظيفي عن غيره من الأنحاء الأخرى، وحصر **سيمون ديك** الوظائف التداوليّة في أربع هي: **المبتدأ، والذّيل، والبؤرة والمحور**، وأضاف **المتوكّل** إلى هذه الوظائف وظيفة خامسة هي وظيفة المنادى، وذلك لأهمّية هذا العنصر في جميع اللّغات الطّبيعيّة ولغنى خصائصه في بعضها على غرار اللّغة العربيّة[2]. وتتميّز الوظائف التّداولية بكونها علاقات تقوم بين مكوّنات الجملة، انطلاقًا من البنية الإخبارية المرتبطة بالمقام.

وتقسّم هذه الوظائف في النّحو الوظيفي إلى نوعين من الوظائف:[3]

أ-وظائف داخليّة: وهي البؤرة، والمحور.

ب-وظائف خارجيّة: وهي المبتدأ، والذّيل. والمنادى.

وترى **نعيمة الزّهري** أنّ مهمّة الوظائف التّداولية، تكمن في تحديد الوضع التّخابري للمكوّنات داخل المحيط التّواصلي الّذي تستكمل فيه، ويتشكّل الموقف التّواصلي من الخلفية الإخباريّة لدى المتكلّم والمخاطب والخلفية الاجتماعيّة الثّقافيّة الّتي تحكم عمليّتي الإنتاج والفهم، **ويشكّل الكل ما أسماه سيمون ديك بـ: (المعلومات التّداوليّة)، الّتي تضمن مكوّنات ثلاثة**[4]:

أ- المعلومات العامّة المتعلّقة بطرفي الخطاب.

ب- المعلومات المقاميّة المرتبطة بالموقف التّواصلي.

ج- المعلومات السّياقية المتعلّقة بالعبارات اللّغويّة أثناء عمليّة التّواصل.

ويمكن الحديث باختصار عن الوظائف التّداوليّة الأربعة المذكورة الّتي اقترحها سيمون ديك، يضاف إليها الوظيفة الخامسة(المنادي) الّتي أضافها أحمد المتوكّل:

- **المبتدأ:** وهو وظيفة خارجيّة يدلّ على مجال الخطاب الّذي يعدّ الحمل الموالي واردًا بالنسبة إليه، كقولنا:

زيد ، قرأت كتابه.

- **الذّيل:** وهو وظيفة خارجيّة وهو المكوّن الّذي يوضّح أو يعدّل معلومة أو يصحّحها واردة في الحمل، كما في قولنا:

قرأت كتابه، **زيد.**

- **البؤرة:** وهي وظيفة داخليّة وتسند إلى المكوّن الحامل للمعلومات الأكثر أهمّية أو الأكثر بروزًا في الجملة، بحسب مقترح ديك 1978م، كقولنا:

البارحة أتممت كتابة المقال(لا اليوم).

- **المحور:** وهو وظيفة داخليّة وتسند إلى المكوّن الدّال على الذّات الّتي تشكّل محط الحديث داخل الحمل، كقولنا:

متى أتممت **المقالة؟**

- **المنادى:** وهو وظيفة خارجيّة وتسند إلى المكوّن الدّال على الكائن المنادى في مقام معيّن، كقولنا:

يا خالد، لا تخاصم أخاك.

---

[1] - ينظر: اللسانيات العربية الحديثة، ص268- 272.

[2] - ينظر: الوظائف التداوليّة في اللغة العربية، ص160.، وينظر: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص362.، وينظر: التفكير الدلالي في الدرس اللساني العربي الحديث ص 314-315.

[3] - ينظر: التفكير الدلالي في الدرس اللساني العربي الحديث، ص301، وينظر: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص352.

[4] - التّفكير الدّلالي في الدرس اللساني العربي الحديث، ص301، وينظر: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص395.

إن أهم ما ميز عمل **المتوكل** كما يقول **مازن الواعر** هو أنه لا يبحث في محتوى التّراث اللّغوي فحسب، بل يبحث كذلك وعلى الخصوص في منهجية قراءته وطرق استثماره، الّذي يجعله واحدًا من البحوث المهمّة التي حاولت إعادة صياغة النّظرية العربية الدّلالية في الفكر اللّغوي العربي القديم صياغة عمليّة تجريديّة مضبوطة ثم موضوعية[1]، **بل إنّ القراءة المتأنّية لأبحاث المتوكل تكشف بما لايدع مجالًا للشّكّ عن أنّ إشكالية التّراث والحداثة غير واردة في دراسته وهو ما يظهر بجلاء خاصّة عند قراءة تحليل المتوكّل لقضايا الدلالة**[2].

وما يلاحظ كملاحظة عامّة هو إجماع هؤلاء على أن التّراث اللّغوي العربي ثريّ بأفكاره وتحليلاته الّتي طبعتها الصّبغة الوظيفيّة على العموم، وبالتّالي فقد سلكوا مسلكًا توفيقيًّا واضحًا، مخالفين بذلك نهج الكثير من اللّسانيين العرب الّذين سبقوهم، حيث فصلوا بشكل عمودي بين النّحو واللّسانيات، واعتبروا أنّ التّراث النّحوي العربي ليس صالحًا ينبغي تجاهله والتّخلّص منه بكلّ بساطة، ولقد كان المتوكل رائدا عالميا للاتجاه الوظيفي التداولي لم يكتف بتطبيق هذه النظرية على اللغة العربية، بل تعدى ذلك وساهم في إثراء النظرية الأم وكان ذلك مثالا للتلاقح الإيجابي المثمر بين التراث اللغوي العربي واللسانيات .

رابعا: الاتجاه التوفيقي التجسيري العربي:

1-التعريف بهذا الاتجاه:

هو اتجاه يضم نفرًا من الباحثين يدعون إلى الوسطيّة أو ما يُسمى بالاتّجاه التّوفيقي التّجسيري الّذي يوجب قراءة الحديث لتأصيل القديم، وإنّ قراءة الحديث لا تعني هجر التّراث بقدر ما تعني زيادة التّمسك به[3] يقول **الحاج صالح**- رحمه الله- : «**وأما مكانة هذه النّزعة من النّزعات الأخرى في العالم العربي، فهي تتوسّط في اعتقادنا بين اتّجاهين، اتّجاه يتجاهل تمامًا أو إلى حدٍّ بعيد اللّسانيات الحديثة، ويعتمد أساسًا على المفاهيم اللّغوية الّتي تبلورت عند المتأخّرين، ويخلط أصحابه بين المفاهيم العربية الأصيلة، ومفاهيم هؤلاء المتأخّرين واتّجاه آخر يتجاهل تماما أو إلى حد ما التّراث العربي أو يجعل مثل الاتّجاه الأوّل كل التّراث واحدًا، وبعض أصحابه على الرّغم من معرفتهم بهذا التّراث، فإنّهم مقتنعون اقتناعًا تامًّا أنّه قد تجاوزه الزّمان أو هو وجهة نظر لا يمكن أن تساوي وجهات نظر اللّسانيات الحديثة** »[4].

إنّ هذا الاتّجاه يقف موقفًا وسطًا دون حكم مسبق متعصب لهذا أو لذاك، ولا نعني بالوسط مسك العصا من الوسط بشكل آليٍّ كما يتصوّر الكثير، وإنّما نقصد عدم التّعصّب لا للتراث ولا للسانيات الغربية، بل إن الأمر خاضع لمعايير علميّة دقيقة ناتجة عن فهم ودراسة علميّة متأنّية للعلمين، وهو ما يجعل الاستفادة المتبادلة بين التّراث النّحوي العربي من جهة واللّسانيات من جهة ثانية أمرا ممكنا وواردًا من باب التّأثير والتّأثّر الإيجابي"، ذلك أنّه لا صراع بين التّراث والحداثة، **يقول عبد السّلام المسدّي**:«**فالنّحو واللّسانيات ليسا ضدّين بالمعنى المبدئي للتّضاد، كيف والنّحو نفسه منذ القديم مفهوم مزدوج، إذ هو يعني في نفس الوقت جملة النّواميس الخفيّة المحرّكة للظّاهرة اللّغوية كما يعني عمليّة تفسير الإنسان لنظام اللّغة بمعطيات المنطلق من العلل والأسباب والقرائن، ويتجلّى هذا في الفرق المفهومي في الصّياغة المزدوجة تبعًا لقولك:نحو العربية، أو نحو الفرنسية...فأنت تعني نظامها، أو لقولك:النّحو العربي أو النّحو الفرنسي، فالمقصود عندئذ عمليّة استخراج النّظام الدّاخلي في تلك اللّغة**»[5]، فكلّ منهما لا ينفي الآخر ولا ينقضه ووجوده متوقّف قطعًا على وجود الآخر ولا معنى للسانيات دون استنباط قواعد اللّغة

---

[1] - قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديثة، 531-532.

[2] - ينظر: التفكير الدلالي في الدرس اللساني العربي الحديث، ص 280.

[3] - ينظر: تقويم الفكر النحوي، ص249.

[4] - المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، عبد الرحمن الحاج صالح،ندوة تقدم اللسانيات في الأقطار العربية، وقائع ندوة جهوية بالرباط أفريل 1987م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1991م، ص 389-390.

[5] - اللسانيات وأسسها المعرفيّة، ص15.

عن طريق استخراج نظامها النّحوي كما يذكر المسدّي. إنّ مثل هذه الثّنائيات مفيدة ونافعة وناجعة وتكمّل بعضها بعضًا إذا وُضعت في سياقها الصّحيح، ومن شأن هذا التّلاقح بين النّظريات الشّرقية والغربيّة أن يطوّر المعرفة البشرية برمّتها."[1]إنّ هذا الاتّجاه يعبّر عن طبيعته وأهدافه **الإجابة الّتي أجابها عبد الرّحمان الحاج صالح عن سؤال وُجِّه إليه في أحد النّدوات العلميّة** بعدمّا عرّف بمشروعه العلمي وقراءته الجديدة للتّراث اللّغوي العربي**"هل أنتم من المحافظين؟" فأجاب بصريح العبارة«لست محافظًا، ولا مجدّدًا، ولكن أبحث عن المفيد، اكتشفنا في القديم شيئًا عظيمًا لم نجده في الحديث، ولو اكتشفناه لأخذنا به»**[2].

ولقد أثبت هذا الاتّجاه أن التّقارب ممكن بالفعل في كثير من المواضع، لا بل إنّ التّراث اللّغوي والنّحوي العربي، ورغم قدمه فإنّه يحتوي على تحليلات فريدة فاق بها أحيانًا أحدث ما توصّلت إليه الدّراسات الغربيّة، هذا بالإضافة إلى التّشابه الكبير في كثير من التّحليلات اللّغوية بين العلمين، ما يطرح إمكانيّة استفادة اللّسانيات الغربيّة من الجهود اللّغوية العربيّة قياسًا بباقي المجالات الّتي لم يكن سرًّا استفادة الغرب منها على غرار الهندسة والكيمياء والطب والرياضيات، وغيرها من العلوم الّتي أبدع العرب فيها منذ زمن بعيد؟!

ومن هنا يمكن القول بأنّ هذا الاتّجاه اللّساني جعل جسرًا يربط بين علمين ينتميان إلى ثقافتين وزمننين مختلفين وهذا الجسر هو الّذي غيّر الحكم من الاختلاف الّذي يبدو في الظّاهر والشّكل،(في الزّمن واللّسان والجغرافيا)، لكنّه يُخفي تحته تقاطعات وتشابهات، بل وتماثلات تصل إلى حد التّطابق أحيانًا، ما يثبت المبدأ الّذي يقول" **أن لا شيء يُخلق من لا شيء**" بمعنى إمكانية وجود بعض الجذور العربيّة في اللّسانيات الغربيّة قد يكون أمرًا واقعًا.

وتكمن أهمية هذا الاتجّاه في قدرته على بلوغ ثلاثة أهدف عبّر عنها المتوكّل هي:

- صوغ النّظريات القديمة في قالب جديد يتيح المقارنة بينها وبين الحديث من النّظريات.
- تطعيم النّظرية اللّسانية الحديثة والعامّة بروافد نظريّة جديدة، قد تثبت ما اتّفق عليه الغرب وقد تدحضه.
- خلق نموذج لغوي عربي أو عدّة نماذج يضطلع بوصف اللّغة العربيّة، انطلاقا من النّظريات القديمة بعد أن تقولب وتمحّص في إطار النّظريات اللّسانية الحديثة، وأن تحتك بما تفرّع وما يتفرّع عنها من نماذج لغويّة.

إنّ تحقيق هذه الأهداف هو الكفيل بخلق حوار علميّ جادّ بين التّراث اللّغوي العربي واللّسانيات الغربّية، متجاوزًا كلّ نظرة مذهبيّة متعصّبة تعطي التّراث اللّغوي العربي قدرًا فوق قدره، أو تبخسه حقّه ومكانته[3]، من خلال دمج البحث اللّساني العربي القديم في البحث اللّساني الغربي الحديث، مع الإبقاء على هوية البحث اللّساني العربي القديم وكيانه كبحث يمثّل نظرة لسانية ذات خصائص مميّزة[4].

لقد اطلق **مصطفي غلفان** وكذلك **حافظ إسماعيلي علوي** على هذا الاتجاه اسم **لسانيات التراث**، والسّمة المميّزة لهذا النوّع من الخطاب اللّساني العربي الحديث هي سعيه إلى التّوفيق بين مضامين التّراث اللّغوي العربي وما تقدّمه اللّسانيات الحديثة من نظريات ونماذج وأدوات إجرائيّة وطرائق تحليل، ويستعمل لسانيو التّراث شتّى الوسائل المعرفيّة لتحقيق هذا المسعى في إطار ما عرف بقراءة أو إعادة قراءة التّراث.

وفي نظر غلفان فإن أصحاب هذا الاتجاه لا يشكّلون اتجّاها موحّدًا أو مدرسة متجانسة، بل يعبّرون عن وجهات نظر مختلفة في تعاملهم مع التّراث ، ذلك أنّ هذا الفريق مثلاً لا يراعي الحدود بين المدارس اللّسانية والفروق القائمة بينها فكثيرًا ما يتمّ الجمع بين توجّهين لسانيين عند لغوي واحد، كالجمع بين البنيوي والتّوليدي دون توضيح الأسس

---

[1] - ينظر: أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات، ص124.

[2] - من أزمة فهم اللسانيات إلى أزمة فهم التّراث قراءة في النّقد اللساني عند الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح، محمد صاري،مجلة اللسانيات العربيّة، مركز الملك عبد بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربيّة،العدد:7، شوّال1439هـ ، يوليو2018م، ص59.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص383.

[4] - قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، ص516. وينظر: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص 383.

الّتي يقوم عليها مثل هذا الجمع، بل ما يدعو للاستغراب حسب **حافظ اسماعيلي علوي** هو أن نجد من اللّغويين من يتجاوز نفسه داخل الاشتغال نفسه فيكون بنيويًّا وتوليديًّا ووظيفيًّا في آن واحد[1].

إن التّوافق بين التّراث النّحوي واللّسانيات حسب هذا الاتّجاه موجود بالفعل يُصرّح به حينا ويُتغافل عنه أحيانا يقول **نهاد الموسى**: «**ويشكل اتجاه البحث في نفس صاحبه تشكّله الأول على هيئة إحساس قوي بأن كثيرا من الأنظار الّتي وجدها في كتب المحدثين من الغربيين ولابسها في محاضراتهم ومقابساتهم، يوافق عند عناصر كثيرة منه ما قرأ عن النّحويين العرب مصرّيحين به حينا وصادرين عنه –فيما يقدر الباحث- كثيرا من الأحيان**»[2]، ذلك أن الطّابع الذّهني للّغة بشكل عام يجعل أمر الالتقاء ممكنا بين البحث اللّغوي العربي وغيره من البحوث اللّغوية، فالبحث في موضوع اللغة شغل كل الأمم، وليس غريبا على كل حال وجود مثل هذا الإحساس، حيث إنّ كثيرا من نقاط التّلاقي هي موجودة بالفعل ولا يحتاج إلى برهان.

وهذا الموقف يعبر عن حقيقة الدّراسات اللّغوية الّتي لابدّ أن تتقاطع في مواضع كما ذكرنا كما يمكن أن تختلف في أخرى، **وقد لخّص أحمد المتوكل أهم هذه الفروق والاختلافات في أربعة عناصر هي: ظروف الإنتاج والموضوع والهدف والمنهج:**[3]

أ-من حيث ظروف الإنتاج: لقد استفادت اللّسانيات من المحيط العلمي ومختلف العلوم، وهو ما لم يكن متاحًا للدّراسة اللّغوية القديمة عمومًا، حيث إنّ اللّسانيات استفادت من الفلسفة والمنطق والرّياضيات وعلم النّفس والتّكنولوجيا.

ب- من حيث موضوع الدّراسة: حيث إنّ اللّسانيات جعلت كلّ اللّغات على اختلافها موضوعًا لدراستها(الملكة اللّسانية)، في حين أنّ بقيّة الأنحاء كانت تقتصر على اللّغة الواحدة، هندية، عربيّة، فرنسيّة...إلخ.

ج- من حيث هدف الدّراسة: كان الهدف الأساسي للدّراسات اللّغوية القديمة تعليمي للحفاظ على اللّغات وصونها من الأخطاء، في حين أنّ اللّسانيات كان سعيها حثيثًا إلى إقامة نحو كلّي لجميع اللّغات البشريّة يرصد الخصائص بوجه عام.

د- من حيث منهج الدّراسة:يختلف منهج اللّسانيات عن منهج الدّراسات القديمة الّتي قام النّحو فيها على أوصاف متفرّقة مختلفة غالبًا، وإذا اعترفنا بروح التّنظير عند القدماء، فإنّ اللّسانيات منهجها مغاير تمامًا، يقوم على بناء نماذج خاضعة لقواعد الاستنباط وقوانين الصّورنة العلميّة، ممّا يجعلها قابلة للمعالجة الحاسوبيّة.

لقد ظلّ الموقف التّوفيقي التّجسيري الأكثر حضورًا ونفوذًا في حقل الدّراسات اللّسانيّة الحديثة من خلال السّعي إلى التّوفيق بين الفكر اللّغوي القديم واللّسانيات الحديثة في إطار قراءة التّراث اللّغوي القديم في ضوء اللّسانيات الحديثة[4]، وبهذا يمكننا القول **بأنّ اللّسانيات العربيّة اتّجهت إلى ما يمكن تسميته منهجًا توفيقيًّا أو لسانيات توفيقيّة يمزج بين مقولات اللّسانيات ومقولات النّحو العربي، وبالتّالي فإنّ اللّسانيين العرب المحدثين لم يتمكّنوا من ابتداع درس لساني عربي دون الرّجوع إلى التّراث**[5]، ثمّ إنّ الاتّجاهات اللّسانيّة العربيّة الّتي أخذت تسميتها من الأصل الغربي، **كالاتّجاه الوصفي البنيوي والتّوليدي التّحويلي والوظيفي التّداولي، جميعها يغلب عليه الممارسة التّوفيقيّة، وإذا لم يكن ذلك باعتراف واضح، فإنّه ممارسة ظاهرة لا يمكن أن تخفيها المكابرات**، وهو أمر ثبت في الاتّجاهين السّابقين التّوليدي التّحويلي والوظيفي التّداولي على حد سواء.

---

[1] - ينظر: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص185.

[2] - نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، نهاد الموسى، دار البشر، عمان، ط2، 1987م، ص 11.

[3] - ينظر: أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات، ص 37.

[4] - ينظر:الاتجاه التّوافقي بين لسانيات التراث واللسانيات المعاصرة الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح أنموذجًا، معالي هاشم أبو المعالي(رسالة دكتوراه)، إشراف:بان صالح مهدي الخفاجي، جامعة بغداد، العراق، 2014م، ص19 .

[5] - ينظر: المرجع نفسه، ص19.

2- أصول التوافق بين التراث اللغوي العربي واللسانيات الغربية:

قام العرب بجهود جبّارة في ميدان الدّراسات اللّغويّة لا تقلّ أهمّية عمّا أثبتته اللّسانيات المعاصرة[1]، فلقد ترك علماؤنا رحمهم اللّه تراثًا ضخمًا يبعث على الإعجاب والإكبار بعقليته المبدعة وتفكيره العميق، وهو ما يظهر جليًّا في كثير من المؤلّفات العربيّة العريقة على غرار كتاب لسيبويه والعين للخليل والخصائص لابن جنّي والصّاحبي في فقه اللغة لابن فارس ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ومفتاح العلوم للسّكّاكي... ، فلا نبالغ إذا قلنا إنّ ما تركه هؤلاء يُظهر سبق بعض علمائنا القدامى في بعض تحليلاتهم لأحدث ما قدّمته النّظريات اللّسانيّة في العصر الحديث[2].

وقد عبّر **محمّد الصّغير بناني** على هذه الفكرة في كتابه المدارس اللّسانية في التّراث العربي والدّراسات الحديثة بالقول :« **إنّ المدارس اللّسانيّة الحديثة، وإن كانت تهوى الاستقلال والتّفرّد بالمذهب، إلاّ أنّها في كثير من الأحيان ليست إلاّ ترديدًا وتكرارًا لأفكار سابقة، تعرض في ثياب ومفاهيم جديدة في الغالب، للتّظاهر بالسّبق والاستئثار بالاكتشاف**[3] »، ولعل شهادة العالم الإنجليزي الشّهير **جون فيرث** الّتي ذكرها الباحث العراقي في الصّوتيات **قاسم البريسم** تصب في هذا الاتجاه، حيث يقول **جون فيرث:"نشأت الدّراسات الصّوتيّة في أحضان لغتين مقدّستين هما السنسكريتيّة(لغة الهند القديمة) والعربيّة"**، وقد علّق **البريسم** على هذا القول **بأنّ الدّراسات الأوروبيّة في مجال علم الأصوات اعتمدت على ما أنتجه الهنود والعرب منذ بداية عصر النّهضة، ولا تزال دراسات العرب والهند مثار إعجاب علماء الأصوات حتّى الوقت الحاضر**[4].

إنّ التّوافق بين التّراث النّحوي واللّسانيات لم يكن اعتباطيًّا، ذلك أنّه لا يخرج من احتمالين لا ثالث لهما:

- سبق تحليلات القدامى وعمقها ودقّتها، وأنّ التّوافق محض الصّدفة، **والأمر المسلّم به على كلّ حال هو أنّ النّحو العربي أسبق تاريخيًّا من اللّسانيّات، وبالتّالي أيّ تقاطع في هذا الجانب يعود الفضل فيه للأوّل(القديم الأصيل) على الثّاني(الحديث).**

- أنّ اللّسانيات الغربيّة على غرار كل الميادين استفادت من التّراث اللّغوي العربي، وأعادت صياغته وهذا أمر وارد أيضًا رغم سكوت الغرب عن هذه المسألة، **وبالتّالي أي تقاطع يعود فيه الفضل كذلك إلى الأوّل(القديم التّراث اللّغوي العربي الأصيل) على الثّاني(الحديث المقلّد، اللّسانيات الغربيّة).**

وعلى العموم سنقدّم أمثلة عن بعض التوافق أو التقارب أو التقاطع بين التراث اللغوي العربي واللسانيات الغربية بتفرعاتها، الوصفية البنيوية، التوليدية التحويلية، الوظيفية التداولية.

أ-أصول التوافق مع البنيوية الوصفية:

من مبادئ المدرسة البنيويّة مثلاً وصف الواقع اللّغوي من خلال السّماع عن أصحاب اللّغة أنفسهم[5]، **وإذا كان الاتّصال بالواقع اللّغوي أصل من أصول النّحو الوصفي، فقد كان أيضًا أصلاً من أصول النّحو العربي نتيجة لطبيعة الحياة العربيّة، ولطبيعة الحركة العلميّة الّتي نشأت في مناخ عام أساسه الرّواية والنّقل، وقد أدّى هذا الاتّصال إلى أن يكون في النّحو العربي اتّجاه وصفي في تناول الكثير من ظواهر اللّغة**[6].

---

[1] - اللسانيات وتعليم اللغة العربية، ص17.

[2] - ينظر: دراسات وتعليقات في اللغة ، رمضان عبد التوّاب، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، 1994م، ص173، وينظر: التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص26، وينظر: نحن واللسانيات بحث في إشكاليات التّلقّي، حافظ إسماعيلي علوي، اللسان العربي وإشكالية التّلقّي، سلسلة كتب المستقبل العربي(55)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط2011،2م، 104.

[3] - المدارس اللسانية في التراث العربي والدراسات الحديثة، محمد الصغير بناني، دار الحكمة، الجزائر، دط، 2001م، ص10.

[4] - ينظر: علم الصوت العربي في ضوء الدراسات الصّوتية الحديثة، ص5(في المقدّمة).

[5] - دراسات وتعليقات في اللغة، ص185.

[6] - النّحو العربي والدرس الحديث، عبده الرّاجحي، ص55.

إن المتتبّع **لكتاب سيبويه** يلاحظ بوضوح تصريحاته بخصوص السّماع عن العرب أو أستاذه الخليل مثلاً، كقوله : **"سمعنا ذلك ممّن يوثق به من العرب"، و"سمعنا العرب تنشده"**[1]، **ممّا يثبت أنّ النّحاة الأوائل سلكوا منهج الاستقراء العلمي في التّعامل مع الظاهرة اللّغويّة، انطلاقًا من تتبّع الجزئيات واستقرائها، وانتهاءً بالوصول إلى الكلّيات في استخراج الأصول والقواعد النّحويّة**[2].

وعلى العموم يمكن القول **بأنّ التّراث النّحوي العربي بدأ وصفيًّا في كثير من جوانبه وأصوله، حيث اعتمد على استقراء المادّة اللّغويّة من مصادرها الأصليّة عن طريق السّماع والتّدوين المباشرين(الاستقراء)، ثمّ استنبطت القواعد الكليّة والجزئيّة من تلك المادّة المجموعة، حيث إنّ القاعدة خاضعة للاستقراء وليس العكس**[3]، أمّا في الحقبة المتأخّرة فقد أصبح معياريًّا، حيث أُخضِعت المادّة اللّغويّة للقواعد وتوقّف الاستقراء عند عصر الاستشهاد فانقلب الميزان من الوصف إلى المعيار، ومن إخضاع القاعدة النّحويّة إلى إخضاع المادّة اللّغويّة[4]، فانقلبت الأمور رأسًا على عقب، وأصبح النّحو يدور في حلقة مفرغة أشبه بالمتاهة الّتي كلّما ظنّ صاحبها أنّه خرج منها وجد نفسه في بدايتها.

ب- أصول التوافق مع التوليدية التحويلية:

إنّ فكرة **التّوليد النّحوي الّتي اشتهر بها تشومسكي موجودة عند الجاحظ والجرجاني وابن خلدون**[5]، هذا الأخير الّذي يقول في مقدّمته:«**فالمتكلّم من العرب حين كانت ملكته العربيّة موجودة فيهم، يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصّبيّ استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أوّلاً، ثمّ يسمع التّراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثمّ لا يزال سماعهم لذلك يتجدّد كلّ لحظة، ومن كلّ متكلّم واستعماله يتكرّر، إلى أن يصير ملكة وصفة راسخة، ويكون كأحدهم**»[6].

ولقد سبق **عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز تشومسكي في تحديد الفروق الدّقيقة بين العميق وغير العميق من عناصر الجملة، حيث فرّق بين النّظم والتّرتيب والبناء والتّعليق، فجعل النّظم للمعاني في النّفس، وهو تمامًا البنية العميقة عند تشومسكي، أمّا البناء فهو البنية السّطحية الحاصلة بعد التّرتيب بواسطة الكلمات، كما أنّ التّعليق هو الجانب الدّلالي من هذه الكلمات الّتي في السياق**[7]، وبهذا يكون فكر الجرجاني كما يقول **أحمد العلوي** مكمّلا لفكر النّحاة، وهو مكمّل لأنه لا ينقض أساس الفكر اللّغوي العربي، بل يعتمد عليه في بحث إشكالية النّظم، وهو مخالف له لأنه يربط النّظم بالذّات المفكّرة، ولذلك نجده يحصي أنواع الارتباطات الممكنة بين المقولات النّحوية كما قدّمها، وهو أمر لا يفعله النّحاة الّذين يرتبطون بفكرة المسافة العاملية وحدها.[8]

ج- أصول التوافق مع الوظيفية التداولية:

إنّ الوظائف السّت المعروفة الّتي ذكرها جاكبسون لم تغب **عن الجاحظ** مثلاً حيث تحدّث عنها بإسهاب، فلو طبّقنا تقسيم جاكبسون السّداسي للوظائف على كلام الجاحظ لوجدانه يشبهه إلى حدٍّ كبير، حيث تحدّث عن الوظيفة المرجعيّة الإخباريّة تحت عنوان الخبر والإخبار، أمّا بقيّة الوظائف فنلمسها من تعليقاته الّتي يعلّق بها على النّصوص والأخبار الّتي يسوقها على لسان الشّخصيات الّتي يعرض لها أو يروي عنها[9]، ونلمس على سبيل المثال حديثه عن الوظيفة الشّعريّة للّغة في قولة:«**فإذا كانت الكلمة حسنة استمتعنا بها على قدر ما فيها من الحسن، فإذا أردت**

---

[1] - الكتاب ، ج1، ص202،214.

[2] - ينظر: المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، توزاد حسن أحمد، منشورات جامعة قاريونس بنغازي، تونس،ط1، 1996م، ص56 .

[3] - ينظر: تقويم الفكر النّحوي، ص116.

[4] - ينظر: المرجع نفسه، ص116.

[5] ينظر: المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، ص11، وينظر: الاتّجاه التوفيقي، ص52،

[6] - مقدّمة ابن خلدون، ص626.

[7] - أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث، ص 30-31.

[8] - قضايا ابستيمولوجية في اللسانيات، ص 228.

[9] - ينظر: تأصيل النظريات اللسانية الحديثة في التراث اللغوي عند العرب، ص193.

أن تتكلّف هذه الصّناعة وتنسب إلى هذا الأدب، فقرضت قصيدة أو حبّرت خطبة أو ألفت رسالة، فإيّاك أن تدعوك ثقتك بنفسك أو يدعوك عُجبك بثمرة عقلك إلى أن تنتحله وتدّعيه...فإذا رأيت أنّ الأسماع تُصغي له والعيون تُحدق إليه، ورأيت من يطلبه ويستحسنه فانتحله...».[1]

وينظر النّحو الوظيفي إلى اللّغة على أنّها أداة تسخّر لتحقيق التّواصل داخل المجتمعات البشريّة وينظر إلى الجملة على أنّها وسيلة تستعمل لتأدية أغراض تواصليّة وتدرس خصائصها البنيويّة على هذا الأساس ، فرصد خصائص اللّغات البشريّة الطبيعيّة رهين بربط هذه البنية بوظيفة التّواصل في إطار السّياق الاجتماعي الّذي وردت فيه وليس بمعزل عنه كما يفعل غيرهم[2]، ولقد كانت هذه النّظرة الوظيفيّة شاخصة في التّراث اللّغوي عند العلماء العرب، فقد ظهرت في تحليلاتهم وبأسلوب يدلّ على نفاذ بصيرتهم وإدراكهم لقيمة اللّغة في الحياة والمجتمع ، ولقد خاض بعض اللّغويين العرب في هذه المسألة **كالجاحظ وابن جنّي والجرجاني**، ونلمس ذلك مثلا من تعريف **ابن جنّي** للغة بأنّها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم ، وقد ذكر **الجرجاني** أن اللّغة يستعملها النّاس ليعرف السّامع غرض المتكلّم ومقصوده وأن الخبر والكلام مقاصد وأغراض.[3]

3- أهم الجهود العربية في إطار الاتجاه التوفيقي التجسيري:

أ- عبد الرّحمان الحاج صالح رائد هذا الاتّجاه: يعدّ الباحث الجزائري عبد الرّحمان الحاج صالح رحمه الله من اللّسانيين العرب القلائل الّذين يعون ويدركون ما يكتبون في هذا الإطار وممّن يفرّقون إبستيميًّا بين التّراث اللّغوي وخاصّة النّحوي وبين اللّسانيات الغربيّة الحديثة، ويدرك خصوصيات كلّ منهما، ومن مظاهر هذا الوعي التّمييز بين مستويين من **التّراث أصيل وغير أصيل**، والأوّل هو ميدان البحث والدّراسة، ومن بين مظاهر الفهم للّسانيات عدم اهتمامه المفرط بأفكار دي سوسير ولا يكاد يقف عندها، رغم كونه يعتبر مؤسّس علم اللّسانيات الحديث كما فعل كثير من اللّسانيين العرب غيره، بينما نراه مثلاً يأخذ بالاعتبار ما قدّمه تشومسكي وما احتوته نظريّته ذائعة الصّيت، عُرف عبد الرحمان الحاج صالح رحمه الله بجهده الدّؤوب وعمله المثابر لما يزيد عن نصف قرن، لقد سافر الحاج صالح في بداية مسيرته إلى الأزهر الشّريف، حيث درس علوم العربيّة وتعرّف على كتاب سيبويه وأُعجب بالكتاب وبصاحبه وبأستاذه، فتكوّنت بينه وبين الخليل علاقة عجيبة غريبة من الإكبار والانبهار تحوّلت إلى ندّيّة وتنافس، حيث حاول أن لا يفعل كما فعل غيره من إسهال المديح والتّقريظ للخليل، بل عمل واجتهد بكلّ ما أوتي من قوّة وعزيمة وصبر لينجز في العربيّة شيئًا ينسج على منوال الخليل، وقد وفّقه اللّه إلى ذلك[4].

لقد هاجر **الحاج صالح** بعد ذلك إلى فرنسا حيث تلقّى دروسًا في اللّسانيات على يد "**أندري مارتيني**" الّذي يعدّ علمًا من أعلامها في ذلك الوقت، ثم قصد المغرب الشّقيق سنة1961م، حيث عيّن برتبة أستاذ ممتاز في مدارس الرّباط وكان في الوقت نفسه يتلقّى دروسًا في الرّياضيات الحديثة في جامعة الرّباط، وفي سنة 1962م عاد إلى بلده الجزائر حيث عيّن أستاذًا للّسانيات في الجامعة الجزائريّة ثمّ عميدًا لمعهد العلوم اللّسانية والصّوتيّة، فرئيسًا لمركز تطوير اللّغة العربيّة ثمّ عيّن سنة2000م رئيسًا للمجمع الجزائري للّغة العربيّة، كما كان يشغل عضوًا في عدّة مجامع عربيّة كمجمع القاهرة ودمشق وبغداد وعمان[5].

كان الحاج صالح غزير التأليف والعطاء حيث ألّف ما يزيد عن سبعين(70)دراسة محكمة منشورة في أكبر الجامعات العربيّة، وأنجز مجموعة من المداخل في التّعريف باللّسانيات وعلومها بلغت الغاية في الدقّة، وكتبت

---

[1] - البيان والتبيين، ج1، ص203.

[2] - ينظر: التّواصل الإنساني دراسة لسانية، امحمد إسماعيلي علوي، كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2013م، ص112.

[3] - ينظر: تأصيل النظريات اللسانية الحديثة في التراث اللغوي عند العرب، ص190.

[4] - ينظر: نظريّة العامل النّحوي وتعليميّة النّحو العربي مفهومه في النّظريّة الخليليّة وتطبيقه في تعليميّة النحو العربي، ص17(في الهامش)، وينظر: العامل عند عبد الرحمان الحاج صالح نموذج لربط التراث النّحوي باللسانيات الحديثة، ص144.

[5] - ينظر: العامل عند الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح نموذج لربط التراث النّحوي باللسانيات الحديثة، ص144.

باللّغتين العربيّة والأجنبية خاصّة الفرنسية أبرزها سلسلة علوم اللّسان عند العرب الّتي تضمّنت على التّرتيب الآتي"**بحوث ودراسات في اللّسانيات العربيّة جزءان**"و"**الخطاب والتّخاطب في نظريّة الوضع والاستعمال العربيّة، الحلقة الثّالثة**"و"**البنى النّحويّة العربيّة، الحلقة الرابعة**" بالإضافة إلى"**بحوث ودراسات في علوم اللسان**"و"**السّماع اللغوي عند العرب ومفهوم الفصاحة**"و"**منطق العرب في علوم اللّسان**"، وأطروحة الدّكتوراه من جامعة السّربون بباريس1979م عنوانها:"**علم اللّسان العربي واللّسانيات العامّة**"، وقد أهّلته قراءته التّجديديّة للتّراث اللّغوي، لاسيما تراث سيبويه وشيوخه وتلاميذه لاستنباط نظريّة أطلق عليها اسم"**النّظريّة الخليليّة الحديثة**" التي سبق الحديث عنها نال الحاج صالح سنة 2010م جائزة الملك فيصل تقديرًا لجهوده العلميّة المتميّزة في خدمة اللّغة العربيّة[1]، توفي رحمة الله عليه يوم 05مارس2017م، غير أنّ ما يلاحظ أنّ جهوده الكبيرة لم تلق الاهتمام اللّازم كما أنّ كتبه لم يكن إخراجها جيّدًا يعكس قيمة أفكارها، كما أنّ الحصول على أغلب جهوده ليس بالأمر الهيّن خاصّة على الشّبكة العنكبوتيّة، وهي من المسائل المهمّة في نشر الأفكار ونيل الشّهرة لأصحابها، وبها يتسنّى لأفكارهم الذّيوع ويطلّع عليها المهتموّن ما يجعلهم يتأثّرون بها، وهو ما تميّز به الباحثون من المغرب الشّقيق بشكل خاص.

ب-محمّد الأخضر غزال: هو الباحث **المغربي أو عميد اللّغويين المغاربة والملقّب بأبي الهندسة اللّغويّة العربيّة محمّد الأخضر غزال رحمه الله**، لقد كان الأخضر غزال عضوًا في أكاديميّة المملكة المغربيّة منذ تأسيسها سنة1977م وله إسهامات فعّالة في إعداد أجيال من الباحثين اللّغويين المغاربة لمّا كان مشرفًا على معهد الدّراسات والأبحاث للتّعريب الّذي سيّره لمدّة قاربت الثّلاثين(30)عامًا، وهؤلاء يشكّلون اليوم مدرسة مغربيّة عربيّة متميّزة[2].

ولقد اشتهر الأخضر غزال بشكل خاص بعمله الخالد **في مجال إصلاح الطّباعة العربيّة، وإدخال الحرف العربي في الإعلاميات والحاسوب، وقد نال براءة اختراع في ذلك، تبنت المنظّمة العربيّة للتّربيّة والعلوم والثّقافة (الألسكو) عمله بوصفه الشّفرة العربيّة الموحّدة المستعملة في الكتابة الحاسوبيّة**، قام بأعمال علميّة ميدانيّة لحصر الرّصيد اللّغوي لدى أطفال بلدان المغرب العربي الرّئيسيّة المغرب والجزائر وتونس المعروف بـ"**معجم الرّصيد اللّغوي**"، وهو معجم يضمّ كلّ الألفاظ العربيّة الّتي يمتلكها أطفال الدّول المغاربيّة قبل أن يدخلوا إلى المدرسة، وذلك من شأنه أن يمكّن القائمين على المناهج من إعداد مناهج التّعليم على أساس علمي، ولقد كان **لعبد الرحمان الحاج صالح** شرف الاشتراك في هذا العمل الهادف، وكذلك الباحث اللّغوي **التّونسي محمّد العابد**، لكن هذا المشروع النبيل والمهم والهادف ظلّ يتيمًا في الوطن العربي، ولم يطبّق بشكل مناسب، ولم يُعمل به رغم أهمّيته[3]، حتّى في دول المغرب العربي نفسها، وتجدر الإشارة إلى أنّ الباحث **الأخضر غزل**، ورغم العمل الّذي قام به لم ينل الاهتمام اللاّزم واالشّهرة الكافية بل إنّ أعماله بقيت مفقودة ويصعب الحصول عليها، إلاّ بعض المعلومات اليسيرة على الإنترنيت.

ج-عبد السّلام المسدّي: هو **الباحث التّونسي عبد السّلام المسدّي**، وهو باحث وناقد أدبي في الأساس الأوّل، ولكّن إبداعة في الكتابة اللسانيّة لا يقل شأنًا عن كتاباته الأدبيّة، بل أُلبست تلك الكتابات حلّة أدبيّة زادتها رونقًا وجمالاً وهي علامة مميّزة في كلّ كتاباته ذات الأسلوب الأدبي الجميل، لقد تميّزت كتابات المسدّي اللّسانيّة بنهج توفيقي واضح مدعّمة بصبغة نقديّة واضحة كذلك، تنطلق من مبدأ أن لا هويّة ضيّقة للعلم والّذي وإن كان يعبّر عن بيئة معيّنة لكنّه يأبى أن يبقى منحصرًا فيها بل إنّ روحه عالميّة تجمع ولا تفرّق، فالتّراث اللّغوي العربي واللّسانيات الغربيّة الحديثة ليسا ضدّين بل يمكن أن يمتزجا ويكمّل بعضهما بعضًا "**واللّسانيات لا تنفي علم النّحو ولا تنقضه، بل إنّ وجودها متوقّف قطعًا على وجوده، فنسبة ما بين النّحو واللّسانيات كنسبة ما بين علم الأخلاق وعلم الاجتماع في**

---

[1] - ينظر: من أزمة فهم اللسانيات إلى أزمة فهم التّراث قراءة في النّقد اللساني عند الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح، محمد صاري،مجلة اللسانيات العربيّة، مركز الملك عبد بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربيّة،العدد:7، شوّال1439هـ ، يوليو2018م، ص79-80.

[2] - ينظر: نظريّة العامل النّحوي وتعليميّة النّحو العربي مفهومه في النّظريّة الخليليّة وتطبيقه في تعليميّة النحو العربي، ص14(في الهامش).

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص14.

شجرة الفلسفة، النّحو قائم على ما يجب أن يكون، واللسانيات قائمة على ما هو كائن"[1]، ولقد كان لتجاهل علماء اللّسانيات للتّراث العربي العظيم آثار سلبيّة على اللّسانيات نفسها، فقد حرمها ذلك الشّيء الكثير الذّي كان سيوصلها إلى مراتب ربّما ستصلها اللسانيات بعد زمن طويل، للباحث كتب كثيرة منها:"**التّفكير اللّساني في الحضارة العربيّة**" ،"**اللّسانيات من خلال النّصوص**"، "**اللسانيات وأسسها المعرفيّة**"،"**مباحث تأسيسيّة في اللسانيات**"،"**العربيّة والإعراب**"،"**قضيّة البنيويّة دراسة ونماذج**"...

وعلى العموم فقد شكّل النّهج التّوفيقي بين التّراث اللّغوي العربي واللّسانيات الغربيّة **ظاهرة ليس في المغرب العربي فقط ولكن في الوطن العربي قاطبة**، بعضها غريزي بدافع الإعجاب بالتّراث العربي والرّفع من شأنه بمساواته باللّسانيات، ونحن لا نساند مثل هذه المواقف الّتي تحرّكها الغرائز وتدفعها دفعًا صوب الوصول إلى نتائج موضوعة مسبقًا، وبعضها كان ينمّ عن فهم حقيقي وتمكّن من التّراث اللّغوي العربي من جهة واللّسانيات الحديثة من جهة ثانية، مع إدراك خصوصيات كلّ منهما، على غرار ما قام به **الحاج صالح والوعر ونهاد الموسى والمتوكّل**....

[1] - **اللسانيات وأسسها المعرفيّة، ص41.**